

في جنوب الصين

حديث عن المسلمين في ماضيهم وحاضرهم

بقلم :

محمد بن ناصر العبودي

السنة الثانية عشرة
ربيع الآخر ١٤١٤هـ - العدد ١٣٦

بسم الله الرحمن الرحيم



المقدمة

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم ، الذي إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون. والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد : فقد قدر لي ان أزور الصين في عام ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م على رأس وفد من رابطة العالم الإسلامي مؤلف من ستة أشخاص استجابة لدعوة كريمة من الجمعية الإسلامية الصينية وهي الجمعية الإسلامية الوحيدة في الصين.

فسافرنا إلى أنحاء عديدة من المقاطعات الصينية وكتبت أوراقاً ومذكرات عما شاهدته أو استنتجته مما شاهدته هناك بلغت من الحجم حداً لايتحمله كتاب واحد فكان أن أصبحت الكتب عن تلك الرحلة ثلاثة:

أولها وهو أكبرها كتاب: « داخل اسوار الصين» . وقدطبع في مجلدين اثنين.

وثانيها: « كتاب في مهد الترك » . . ويتحدث عن مقاطعة تشنجاك التي كانت تعرف - عالمياً - بمقاطعة سينكيانغ ، واسمها في كتبنا العربية التاريخية تركستان الشرقية . .

ثالثها كتاب: « في جنوب الصين » . . وهو هذا الكتاب.

ويتضمن الحديث عن زيارة مدينة شنغهاي كبرى مدن الصين ثم منطقة (تونغ يانغ) التي تبعد بـ ٤٥ كيلومتراً عن مدينة شنغهاي.



ومدينة(قوانغتشو) المعروفة عالمياً بمدينة كانتون وفيها أول مسجد بني في الصين حسبما يقوله الصينيون وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله .

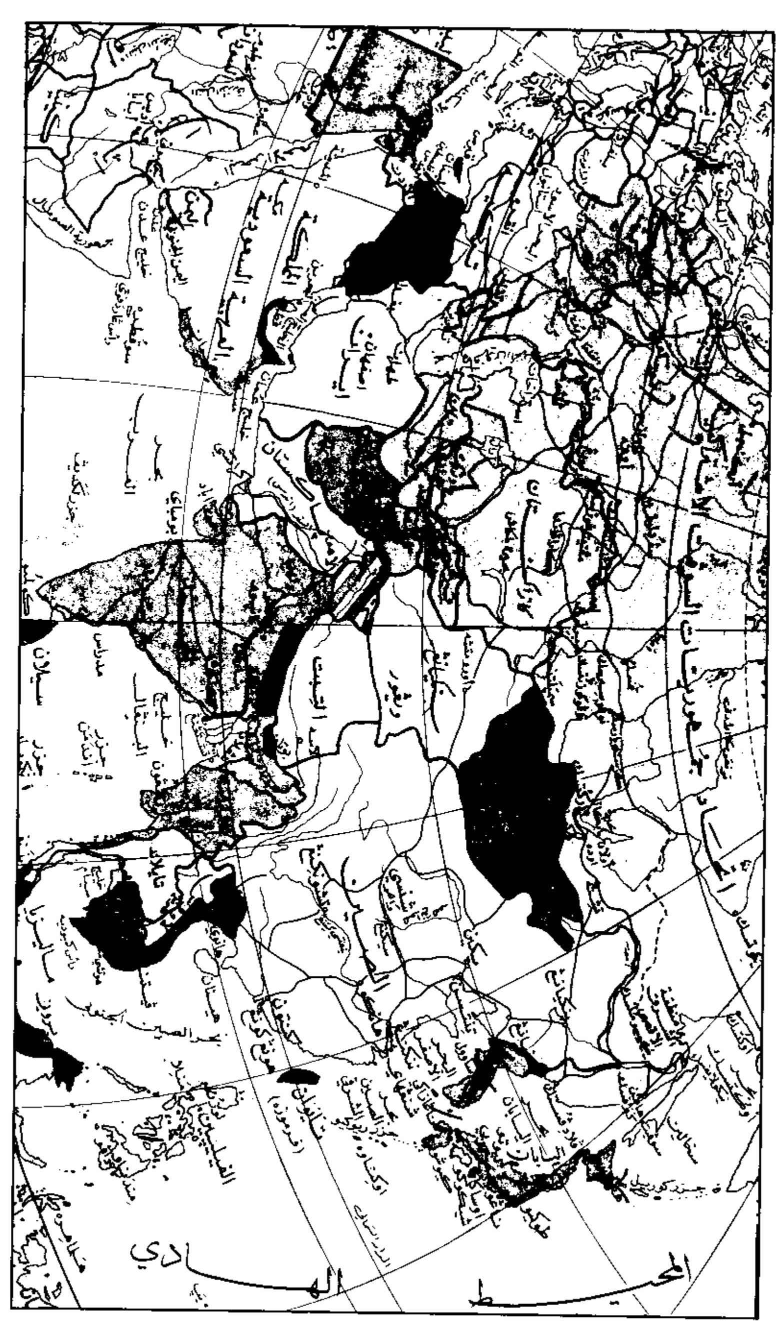
هذا وقد تكلمت في مقدمة كتاب : « داخل اسوار الصين » . عن أحوال مهمة من أحوال الصين بعامة وعن احوال المسلمين خاصة .

لذلك سأشرع مباشرة في يوميات الرحلة في جنوب الصين .

ومن الله التوفيق .

المؤلف

محمد بن ناصر العبودي



خريطة الصين



يوم الإثنين ١٤٠٤/٨/٧هـ - ١٩٨٤/٥/٨م

من لانجو إلى شنغهاي

بعد وداع حار من الاخوة المسلمين، ومن الصينيين الرسميين المجاملين في مطار لانجو عاصمة مقاطعة كانسو، قامت الطائرة في الساعة السابعة والدقيقة الأربعين متأخرة أربعين دقيقة عن الموعد الذي كانوا قد حددوه من قبل. وهي طائرة نفاثة صغيرة تابعة للمؤسسة الصينية الوحيدة التي تسير الطائرات على الخطوط الداخلية. وغني عن القول إنها حكومية فكل شيء مهم هنا مملوك للدولة.

فارقت الطائرة أرض المطار بسرعة. وذلك بالنسبة لما اعتدنا عليه في رحلات الأيام السالفة في الصين إذ كان أكثر سفرنا على طائرات مروحية بطيئة.

وعندما استوت في الجو كان المنظر المتجدد الذي لايمل الناظر تأمله هو منظر أكوام التلال الطينية العجيبة الموجودة في هذه المقاطعة التي هي من اعجب المناظر التي رأيتها في العالم.

واعلنوا أن المسافة إلى مدينة شانغهاي هي ألف وثمانمائة كيلومتر ستقطعها الطائرة في ساعتين وثلث.

ثم ارتفعت الطائرة في الجو مفارقة منطقة التلال ففقدت متعة مشاهدتها، وأجلت بصري داخل الطائرة لأجدها صغيرة لايزيد عدد المقاعد فيها عن ثمانين مقعداً وأركبونا فيما اسموه الدرجة الأولى فيها ومعنا اثنان غيرنا إلا أنني أعتقد أنها مصممة لتكون كلها درجة سياحية واحدة إذ لم أكد أجد فرقاً بين مقاعدها.

أما الأشياء التي استلفتت نظري فمنها أن الركاب في الدرجة

السياحية كان عددهم قليلاً لأن هذه الطائرة صغيرة وهي تسافر بين مدينتين كبيرتين أحداهما أكبر مدينة في الصين على الاطلاق وقيل في وقت من الأوقات إنها أكبر مدينة في العالم وهي (شنغهاي) وسكانها يقدرون بأحد عشر مليوناً من النفوس، والثانية هي عاصمة مقاطعة مهمة وهي (لانجو) التي تضم مليوني نسمة. وعقدت في نفسي مقارنة بين ما عليه حالة الانتقال بالطائرات في مسقط رأسي منطقة القصيم وتذكرت أن أربع طائرات في اليوم تغادر مطار القصيم إلى الرياض وبالعكس وهي أكبر من هذه الطائرة الصينية ومع ذلك تكون كلها في الغالب ممتلئة بالمسافرين مع انه لاتوجد نسبة بين سكان القصيم أو الرياض وبين سكان احدى هاتين المدينتين.

واستنتجت ان سبب قلة ركاب الطائرات في الصين هو تدني الدخول وعدم قدرة السواد الأعظم من الشعب على الحصول على قيمة تذكرة في الطائرة لأن قيمة التذكرة على هذه الطائرة التي نحن عليها الآن من لانجو إلى شنغهاي تعادل راتب العامل غير الفني أو الموظف الصغير في الدولة لمدة أربعة أشهر فهي إذاً من الناحية القياسية تساوي اثني عشر ألف ريال سعودي بالنظر إلى ان راتب العامل أو الموظف الصغير عندنا هو ثلاثة آلاف ريال في الشهر. لأن النقود تقاس - بطبيعة الحال - بقيمتها بالنسبة إلى جهد الإنسان الحقيقي الذي كثيراً مايتخذ العامل غير الفني مثلاً له لأن الفئات الأخرى من الشعب غير العمال تختلف درجات معرفتهم، وبالتالي تتفاوت دخولهم.

وقد سألت أحد الاخوة المرافقين عن السبب في قلة ركاب الطائرات في هذه البلاد فقال: انه أولاً بسبب غلاء أجرة الطائرة بالنسبة إلى رواتب الناس ودخولهم الحقيقية. وثانياً: لكون الحكومة قد منعت طوائف كبيرة من الناس من السفر بالطائرات بعد الحوادث

التي جرت من اختطاف الطائرات والذهاب بها إلى كوريا الجنوبية أو جزيرة تايوان ، لذلك قصرت الاذن بالسفر بالطائرة على طوائف معينة من كبار الموظفين الذين قد يكونون قادرين بسبب مناصبهم أو بسبب دخولهم المرتفعة على السفر بالطائرات معللة ذلك بأن الموظفين الصغار لايمكنهم توفير قيمة السفر بالطائرات من دخولهم الخاصة وانهم إذا فعلوا ذلك دل على أنهم قد حصلوا على نقود من جهة غير شرعية .

وهذا تعليل مقبول من جهة العقل وقد لاحظت أثناء أسفاري في الهند قلة استعمال الطائرات بسبب فقر العامة من الناس وذكرت ذلك في كتبي : «الرحلات الهندية» ولكن هناك فرقاً بين فقر الهند وفقر الصين، فالفقر في الهند، يتخبط فيه الأكثرية من الشعب، وتصل شدته في بعض الطوائف إلى درجة الإدقاع الشديد أو درجة الجوع المتناهي على حين توجد في البلاد طوائف غنية وإن كانت قليلة نسبياً وطوائف هي أقرب إلى الغنى، أو هي أبعد عن الفقر لكونها متوسطة الحال .

أما الفقر في الصين فإنه يتساوى فيه الجميع فهو لايصل إلى درجة الادقاع والجوع، ولكنه لايصل إلى درجة التوسط في الحال .

كان الجو صحواً في معظم الرحلة ولم نفارق العمارة والأراضي المزروعة تحتنا ، وان كانت الأرض تبدو تحتنا في بعض الأحيان هضابا جبلية بينها وديان عامرة بالزراعة .

وقرب الوصول إلى (شنغهاي) قلت الجبال وكثرت عمارة الأرض، وظهر نهر صغير يجري بين هضاب حمر . ثم صرنا نرى النهر العظيم (يانغ سي) وهو الثاني من نهرين عظيمين في الصين والآخر هو النهر الأصفر .

وها نحن الآن نشاهد نهر (يانغ سي) من الطائرة مفعماً بالمياه الحمراء التي تكاد نجزم بأنها مياه الفيضانات، كما كثرت بعد ذلك رؤية القنوات العديدة التي شقوها من هذا النهر تحمل المياه إلى أماكن بعيدة عن مجراه لتزدهر فيها الزراعة.

ثم كثرت رؤية القرى وتجمعات المنازل في الأرياف كثرة ملفتة للنظر، واشتدت كثافة الخضرة في الأرض. وظهرت سلسلة من البحيرات عليها المنازل وسط خضرة زراعية مطبقة حتى لايرى الرائي موضع شبر في الأرض غير مزروع وقد أصبحت الأرض سهولاً منسقة تمتد فيها قنوات المياه الطويلة المتعددة. وتنتشر فيها البيوت ذات السقوف المسنمة لأن المنطقة تنزل عليها أمطار غزيرة في بعض فصول السنة.

إلا أنه يلاحظ أن سقوف المنازل سود، أو رمادية اللون في منظر غير بهيج.

مدينة شنغهاي
كبرى مدن الصين

في مطار شنغهاي

حطت الطائرة في مطار شنغهاي في العاشرة تماماً ضحى، وقد ظهر الفرق واضحاً في الجو مابين الشمال البارد والجنوب المعتدل فكانت الحشائش والأعشاب ريانة نامية حول مدارج المطار تزينها زهور ربيعية صفر.

ولم أر المطار كبيراً إذا قيس بضخامة المدينة وكثرة سكانها غير ان الأمر في الصين هو كما ذكرت من قبل يتعلق بالحالة المالية للسكان الذين لايستطيعون بأكثريتهم استعمال الطائرات بسبب قلة دخولهم.

ولم نجد في المطار أحداً من المستقبلين على خلاف العادة لدى الصينيين الذين لمسنا منهم حرصهم على ان يحيطوا ضيوفهم بالحفاوة البالغة وبخاصة مايتعلق بالجمعية الإسلامية التي هي جمعية معترف بها في الدولة مع ان الاخوة في لانجو ذكروا لنا انهم أبرقوا بسفرنا إلى فرع الجمعية الإسلامية في شنغهاي وكذلك أرسل المعنيون بأمرنا في الدولة مثل وزارة شؤون الأديان إلى نظرائهم في شنغهاي.

وقد لبثنا فترة من الوقت في انتظار وصول امتعتنا من الطائرة، ثم عندما وصلت بعد لأي أحاط بها الموظفون ومنعوا الركاب من تسلم امتعتهم حتى يصفوها، ويرتبوها حسب زعمهم وربما كانوا ينتظرون أحد الموظفين المهمين وكان معنا في الطائرة بعض الأجانب الذين يدل مظهرهم على أنهم من الأوربيين.

ولاحظنا من تصرفاتهم مع الركاب، ومع بعضهم بعضاً أنهم أقل مجاملة من الصينيين الشماليين، وأقل نضارة في الوجوه وجمالاً في الصور.

ثم حضر رئيس الجمعية الإسلامية في شنغهاي ومعه موكب السيارات المعتاد والمخصص للوفد واعتذر بأن موعد وصول الطائرة المقرر كما أبلغهم المطار به هو الحادية عشرة إلا أنها وصلت في العاشرة على غير المتوقع لأن المعتاد أن تنزل في مدينة (شي آن) ولكنها لم تنزل فيها .

وقد جاء لاستقبال الوفد في المطار :

الشيخ ابراهيم مارينغ ينغ رئيس الجمعية الإسلامية لمدينة شنغهاي .

الشيخ محمد سليم نائب رئيس الجمعية ، الشيخ محمود عبد الأحد نائب رئيس الجمعية ، الشيخ محمد يوسف شادون خوا إمام مسجد يوشو لونغ ، الشيخ داود ماشينغ امام مسجد فويولو .



أعضاء الجمعية الإسلامية في شنغهاي يرحبون بالمؤلف



مجموعة من المصلين في مسجد شنغهاي تستمع إلى خطبة عيد الفطر المبارك

في مدينة شنغهاي

سار الموكب المكون من سبع سيارات من المطار فأفضى به الطريق مباشرة إلى ضاحية مخضرة بل زاهية الخضرة ليس فيها من قشف الشتاء أو آثار البرد شيء على عكس ماكان عليه الحال في المقاطعات التي جئنا منها في شمال الصين، فقال لنا الاخوة المرافقون من أهل (شنغهاي): إن هذا عندنا هو الربيع لقد كان قدومكم في الربيع وهواحسن فصول السنة في هذه المنطقة.

وكل مارأيناه لأول مرة في هذه الضاحية يدل على الخصب ووفرة المياه ومن ذلك مستنقعات صغيرة قد نمت على وجهها أعشاب المياه أي التي تنبت على وجه الماء عوضاً عن الأرض الجرداء.

وعندما توغلت السيارات في ضواحي المدينة اتضح ان كل مارأيناه هنا هو قديم، وإن كان جيداً بالنسبة للقديم وذلك من البيوت والميادين التي صارت الآن ضيقة بالمقارنة بالميادين الفسيحة الحديثة.

وحتى الشوارع فإنها تبدو جيدة التخطيط إلا أنها ضيقة بالنسبة لشوارع المدن الحديثة المزدهرة اقتصادياً.

ومن الأمثلة على ذلك ان المسافة مابين المطار والفندق الذي سننزل فيه في وسط المدينة تبلغ خمسة عشر كيلومترا، ولكن ظللنا نسير مدة قبل الوصول بسبب ضيق الشوارع داخل المدينة مع وجود كثافة عظيمة في مرور الدراجات والراجلين وكذلك وجود دراجات كثيرة وسيارات أكثر من الموجودة في المدن التي رأيناها في شمال الصين وبخاصة كثرة الحافلات الضخمة فيها. إلا أنها تعد قليلة بل نادرة بالمقارنة مع عدد سكان المدينة الذي يبلغ أحدعشر مليوناً من النفوس.

غير ان المدينة قد كادت تقف عن النمو بعد الثورة الشيوعية لأن

رأس المال الخاص قد ذهب أو هرب، والمبادرات الفردية أصبحت معدومة وصار كل شيء يعتمد على المشروعات الحكّومية التي كانت تعتمد المشروعات الجماعية التي مهما كثرت لاتصل إلا إلى عدد محدود من الناس، ومن لون سياسي خاص هو الذي يكون مع الحكومة، أو لا يعارض الحكومة- على الأقل-.

ونزلنا في فندق (جيانغ جانغ) وأسرع الاخوة المرافقون بقولهم: انه الفندق الذي نزل فيه الرئيس الأمريكي ريغان عندما كان في زيارة للصين قبل أيام.

قالوا ذلك رغم كوننا لم نر فيه مايستدعي التنويه به ما عدا أثاثه ورياشه فهو في مستوى فنادق الدرجة الأولى وأما مصاعده وابهاؤه فإنها في مستوى الدرجة الثانية.

وكنت أريد أن أسألهم عن تأسيسه أكان في عهد الرأسمالية أم في عهد الشيوعية، وان كان هذا السؤال قد يثير حساسية زائدة للقوم، إذ كثير من الأماكن السياحية الموجودة في البلاد هي موجودة قبل الشيوعية وينوهون على أنها كانت ملكاً خاصاً قبل الثورة ثم أصبحت ملكاً عاماً للشعب بعد الثورة لأنهم يسمون الشيوعية بالثورة وقل أن سمعتهم يذكرون الشيوعية باسمها أو باسم الاشتراكية.

وقد جاء الجواب عن أصل هذا الفندق من دون توقع فقد سألتهم عن معنى كلمة (جيانغ جانغ) التي سمى بها الفندق؟ فقالوا: إنها من اسم منطقة في الصين فيها نهر اسمه (جيانغ جانغ) ومؤسس هذا الفندق هو من أهل تلك المنطقة، سماه على اسم ذلك النهر، والآن الفندق هو حكومي مثل غيره من الفنادق.

فاتضح انه كان ملكاً لأحدهم قبل الشيوعية ثم صادره الشيوعيون فيما صادروه من عقارات وممتلكات.

ووجدناهم وضعوا في الغرف تحية النزيل المحتفى به عادة وهي

سلة كبيرة من الفاكهة تحتوي على تفاح وبرتقال وهناك الأباريق (الزمزميات) المليئة بالماء الحار وأكياس الشاي مابين أحمر وأخضر لكي يصنعه النزيل بنفسه كالعادة إذا لم يكن الوقت وقت وجود الخدم، ومن أجل توفير العمل والوقت على الضيوف والعمال. وماء معدني محفوظ في علب معدنية.

وكان وقت الغداء قد أزف، وقد وكلوا العناية بالطابق الذي أنا وبعض الرفاق فيه إلى فتاة صينية طويلة ، بالنسبة إلى غيرها من الصينيات وهي قصيرة أو متوسطة بالنسبة إلى العربيات ثم ان التقاطيع الصينية المتميزة هي أقل في وجهها ظهوراً، من سائر الصينيات وبخاصة في جنوب الصين.

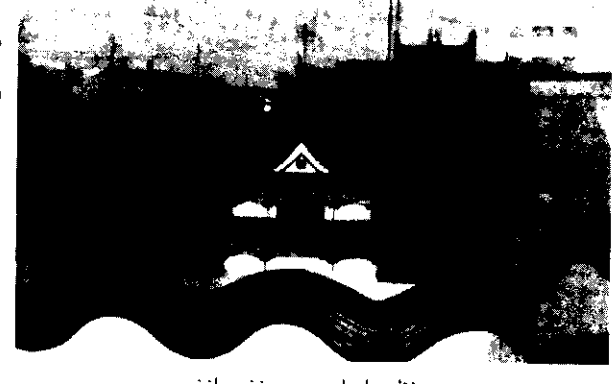
وهي إلى ذلك تعرف الانكليزية ولا تعرف شيئاً من الحياء، بل تسرع إلى الحديث مع الضيوف من باب الإكرام أو الإحترام كما تزعم.

وقد قدمت لنا الطباخ قبل أن تقدم الطعام فهي التي تشرف على تقديم الأكل لتعرفنا انه مسلم يقوم بالطبخ للضيوف من المسلمين.

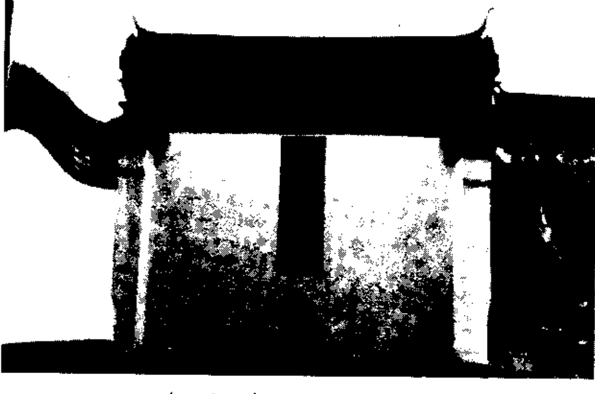
جولة على مساجد شنغهاي

لم يكن في البرنامج وقت للراحة بعد الغداء حيث كانت الفقرة التالية جولة على مساجد شنغهاي في الساعة الثانية ظهراً.

وقد صحبنا في هذه الجولة غير الرفاق الذين كانوا معنا طول الرحلة رئيس الجمعية الإسلامية في شنغهاي الأخ (إبراهيم مارينغ ينغ) فركب معي في السيارة وهو يعرف قدراً من العربية لا بأس به. كما اصطحب الموكب شاب ذكر ان اسمه (صالح جي فان سو) قال إنه يعرف العربية وانه تعلمها في مبدأ أمره في معهد اللغات الأجنبية في شنغهاي وعمل في العراق لبعض الوقت وتبين لنا ان اسم (صالح) الذي ذكره في أول لقاء إنما هو اسم مصلحي - ان صح التعبير - فهو غير مسلم واسم صالح من أسماء المسلمين التي لايتسمى بها غيرهم ولكنه فعل ذلك تقرباً من الزوار المسلمين



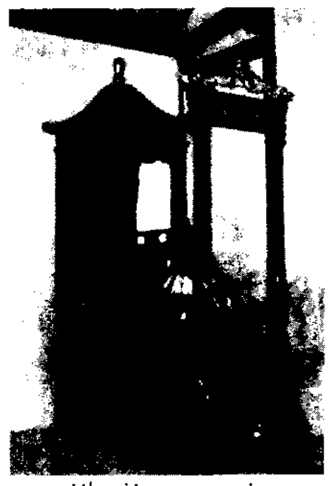
منظر عام لمسجد سونغ جيانغ



مدخل مسجد سونغ جيانغ بشنغهاي

ولكي يكون له اسم مألوف لهم ، خفيف على ألسنتهم.

وقد تبين لنا شيء أهم من ذلك وهو انه لايتقن العربية وبخاصة إذا كان المطلوب منه ان يترجم ترجمة فورية. وكنا قد قلنا لأخينا الشيخ (لقمان ماشان لي) إنه آن له ان يستريح من عناء الترجمة بعض الوقت مثلما قلنا له ذلك عندما أحضر أهل (نن تشوان) مترجماً ذكروا انه يعرف العربية غير أننا عرفنا أن الأخ (لقمان) لايمكن الاستعاضة عنه بهذا وأمثاله من الذين لا خبرة لديهم بالترجمة ولايتقنون العربية التي كان الأخ لقمان قد تعلمها ثم اتقنها بدافع ديني ، لأنها لغة القرآن الكريم وهو رجل متدين كما عرفت بحكم صحبتي له.



منبر مسجد سونغ جيانغ

كانت شوارع (شنغهاي) مكتظة بالناس الذين أكثرهم من الراجلين إضافة إلى زحام الحافلات والسيارات الحكومية الأخرى.



محراب مسجد سونغ جيانغ

وأول الانطباع عنهم في مجال المقارنة بينهم وبين مواطنيهم في شمال الصين ان هؤلاء القوم من سكان (شنغهاي) أقل التزاماً بالتقاليد الموروثة، وربما قيل أكثر تحرراً في اللباس وطريقة السلوك عدا مجالاً واحداً وهو المجال الاقتصادي فهم فيه مثل غيرهم لأن القوانين الشيوعية صارمة في هذا المجال.

كما لا يظهر على وجوههم الذبول الذي رأيناه



قبة مسجد سونغ جيانغ

بارزاً في وجوه مواطنيهم في شمال الصين بسبب طيب الجو عندهم بالنسبة إلى أولئك.

مسجد بستان الخوخ:

كانت الوقفة الأولى عند مسجد (تشاو تاو يان) ذكروا انه سمي على اسم الشارع الذي يقع عليه وان معنى الاسم هو (بستان الخوخ الصغير).

وجدناه مسجداً جميل البناء، بهي المنظر، ذا ملحقات منها دهليز يدخل معه من الشارع فيصل الداخل إلى باب المصلى الرئيسي الذي هو فخم ذو قبة أشبه ما تكون بالقباب العربية، وإذا لم يدخل في المصلى الرئيسي وواصل سيره فإنه يصل إلى فناء واسع ذي حديقة نضرة وتتفرع منه ممرات تفتح عليها غرف متعددة. مما يدل على عظم النفقة التي انفقت على إنشائه.

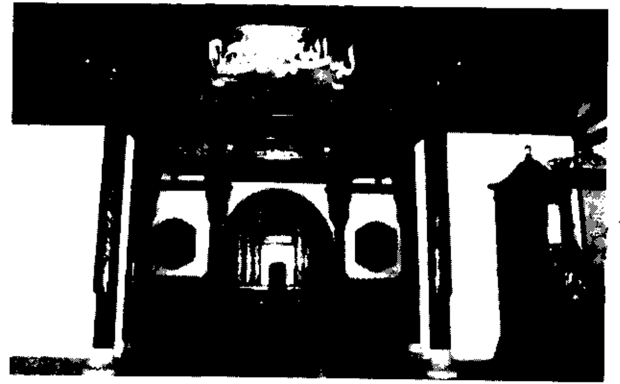
الخلفاء:

قال لنا المرافقون: إلى الخلفاء، فلم أفهم ذلك لأول وهلة، بل أجفلت منه فأكثر الأشياء في هذه البلاد وبخاصة أحوال المسلمين وسيطرة الشيوعية فيها يجعلنا أحوج مانكون إلى ان نذكر الخلفاء ونتعزى بسيرهم ولكن مااللصين وللخلفاء؟.

قالوا: سنذهب الآن إلى غرفة من عدة غرف ملحقة بالمسجد يدرس فيها الأئمة ويريدون أئمة المساجد- فنحن قد بدأنا ذلك منذ عهد قريب لأن أئمة المساجد المتعلمين يموتون ولا نجد من يحل محلهم. فقلت: احسنتم في هذا الفهم وهذا التعليل. والمهم ان تحسنوا العلم والتعليم، وهنا كنا قد وصلنا إلى قسم فيه عدة غرف ولكن جميع

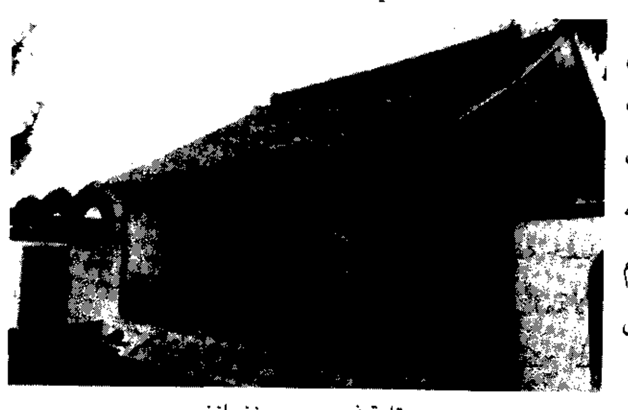
الطلاب فيه هم في غرفة واحدة لأن عددهم قليل لايزيد على سبعة دارسين هم الذين يدرسون في الفصل الأول. وأخبرونا ان من شروط الالتحاق بالدورة الحصول على الشهادة المتوسطة والخدمة في أحد المساجد أو إحدى المؤسسات الدينية لمدة سنتين، واخبرونا ان هذه هي أول دورة تقام.

وجدنا الامام - أي إمام المسجد - محمد داود يلقي على طلبته درساً اسموه مختارات من الآيات القرآنية وقد كتبوها على السبورة وهي : ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾ و ﴿أطيعوا الله واطيعوا الرسول واحذروا ﴾ ويفسرها المدرس لهم بالصينية حيث كتب ترجمة معانيها بالصينية في أسفل السبورة.



مدخل أمامي للمصلى في مسجد سونغ يانغ

ثم دخلنا الفصل الثاني وفيه ثلاثة طلاب فقط تلا أحد الطلبة آيات قرآنية فلم تكن تلاوته متقنة وبخاصة عدم إخراج الحروف من مخارجها الصحيحة.



قاعة في مسجد سونغ يانغ

وقد أخبرونا ان هذا المبنى كان في الأصل مدرسة إسلامية ملحقة بالمسجد ولكنها اغلقت لسنوات طويلة - ولم يقولوا بعد الحكم الشيوعي - ولكنهم قالوا انها افتتحت قريباً.

ورأيتهم يريدون ان يقولوا إننا انتهينا من الجولة فسألتهم: وأين هم الخلفاء الذين ذكرتم اننا سنذهب إليهم فقالوا والبعض منهم فهم ان الأمر التبس عليّ: إنهم الذين كنا عندهم الآن، إننا نسمي أئمة المساجد بالخلفاء!

ثم قالوا يحدثوننا عن بناء هذا المسجد، ونحن ذاهبون إلى قاعة استقبال عند المدخل: لقد بني (مسجد تشاو تاو يان) هذا قبل ستين سنة وقد أصابه ضرر بالغ أثناء الثورة الثقافية ولكن المسلمين جمعوا النقود فيما بينهم وأصلحوه.

وقد قام على بنائه بل بناه أخ مسلم اسمه (محمد علاء الدين) بعد ان حج في عام ١٩٣٧م وهو من قومية خوي وقد أخذ يجمع التبرعات من المسلمين حتى أتمه.

قالوا: وكان عدد المسلمين عند بناء المسجد كثيراً في هذه الحارة، ولكنهم أثناء الحرب الصينية اليابانية تفرقوا، ولم يذكروا لنا السبب في ذلك، والآن لا يوجد تجمع للمسلمين بل هم موزعون في أنحاء مدينة (شنغهاي).

قالوا: وتولى ابن المؤسس واسمه محمد أيضاً إمامة هذا المسجد حتى مات، وبعد ذلك تولى الامامة حفيده (محمد سليم) هذا الحاضر معنا، والظاهر انه واحد من عدة أئمةلأن من عادة الصينيين الإكثار من الأئمة للمساجد حتى وان لم يكن المسجد كبيراً. أما هذا المسجد فإنه كبير وهو رئيسي يرتاده عدد من المسلمين في الجمع وهو الذي

تصلى فيه صلاة العيدين في الوقت الحاضر.

وذكروا أنه في عام ١٩٨١م كان المسجد الوحيد الذي تقام فيه الصلاة، لأن الحكومة كانت قد استولت على المساجد في عهد عصابة الأربعة والآن بلغ عدد المساجد التي تقام فيها الصلاة في مدينة شنغهاي ثلاثة وهناك ثلاثة مساجد أخرى أعيدت لأصحابها المسلمين ويجري الآن إصلاحها واعدادها لإقامة الصلوات فيها.

حفلة الجمعية الإسلامية:

الجمعية الإسلامية الصينية هي الجهة الوحيدة المعترف بها رسمياً والمصرح لها بالعمل في الميدان الإسلامي في جمهورية الصين الشعبية ومقرها الرئيسي في العاصمة (بكين) ورئيسها هو الأخ محمد على وانغ وهو وزير في حكومة الصين. ولهذه الجمعية فروع في المقاطعات والمحافظات والأقاليم وفي سائر أنحاء الصين.

صورة تذكارية مع الحاج ابراهيم مارينغ ينغ رئيس الجمعية الصينية في مدينة شنغهاي في فناء المسجد

ونحن ضيوف على الجمعية الإسلامية وأرسلت معنا مرافقين من كبار موظفيها لمصاحبتنا في رحلتنا هذه كلها وقد أمرت مع ذلك الجمعيات الإسلامية الفرعية أن تعنى باستقبالنا وشرح مايحتاج المسلمون إليه في الأقليم الذي يكون فيه فرع الجمعية وقد أقام فرع الجمعية الإسلامية مأدبة خفيفة مما يسمى بعض الناس مثله عندنا مأدبة الشاي، وبخاصة إذا كان وقته ليس وقت عشاء أو غداء.

أقاموا الحفلة في قاعة استقبال واسعة ملحقة بهذا المسجد العظيم (تشاو تاو يان) (مسجد بستان الخوخ) فوجدناهم قد وضعوا الأطباق الكثيرة على مائدة كبيرة فيها ، منها ما اعتدنا على رؤيته في شمال الصين من فاكهة طازجة أو مجففة: ونقول- جمع نقل- كالجوز والفول السوداني ورأينا فيها مالم تسبق لنا رؤيته في شمال الصين وهو البرتقال الذي لم أره أبداً في الشمال وكذلك البطيخ الأخضر الذي لم نره إلا على مائدة الغداء في هذا اليوم.

نهض رئيس الجمعية الإسلامية هنا الأخ (إبراهيم مارينغ ينغ) فألقى كلمة ارتجالية باللغة الصينية وترجمها صالح - غير الصالح- قال فيها من بين ماقاله: مع تفتح زهور الربيع كان قدوم وفدكم الكريم انه يدل على الصداقة بين الشعبين الصيني والسعودي إننا لنرجو ان تتطور هذه الصداقة وتنمو على الأيام.

وقال: لقد شاهدناكم في التلفاز وأنتم تتنقلون في أقاليم بلادنا فاشتاق أهل شنغهاي لرؤيتكم وصاروا ينتظرون وصولكم ليرحبوا بكم.

إن الحاضرين من الجانب الصيني هنا هم أعضاء الجمعية الإسلامية والمسؤولون عن المساجد في شنغهاي إنني أرحب بكم باسمهم وباسم المسلمين في (شنغهاي) الذين يبلغ عددهم أربعة وأربعين ألف مسلم، و إنني أشكر رابطة العالم الإسلامي على استضافتها لي عندما أديت فريضة الحج عام ١٩٧٩م.

وقال: إن مدينتنا (شنغهاي) هي مدينة صناعية وهي ميناء مهم جداً في الصين. ولها علاقات تجارية مع مائة وستين دولة، ويبلغ عدد سكانها اثني عشر مليوناً كانوا قبل التحرير- يريد قبل الثورة

الشيوعية- يعيشون في بؤس وشقاء ومتأخرين في الثقافة، وبعد التحرير سعدوا وتقدموا كثيرا لعناية الحكومة - ولم يذكر كيفية الشقاء، قبل الشيوعية وماهية السعادة بعدها بطبيعة الحال- لكنه أورد مثالاً على عناية الدولة بقوله قبل التحرير كان في كل جمعة أمام باب المسجد متسولون كثير والآن لايوجد.

والحقيقة أنني لم أشاهد متسولين في الصين، ولاشك أن حزم الحكومة في ذلك هو سبب من أسباب كثيرة قد يكون منها ان أكثر الناس لم يعد عندهم مايعطونه للمستجدين والسائلين لأنهم أنفسهم قد اصبحوا من الفقراء المعدمين إضافة إلى كون الحكومة قد أوجدت ملاجيء ودوراً للعجزة متعددة.


رئيس الجمعية الإسلامية ابراهيم مارينغ يعرض على المؤلف لوحة من الجمعية

ثم واصل الأخ (إبراهيم) كلامه قائلاً: يوجد الآن في مدينة (شنغهاي) ثلاثة مساجد مفتوحة ونستعد لفتح ثلاثة مساجد أخرى منها مسجد يعود تاريخ بنائه إلى ستمائة سنة وهو الآن


بعض الطلاب العرب مع رئيس الجمعية الإسلامية ابراهيم مارينغ

تحت الصيانة والترميم. والمساجد المفتوحة تؤدى فيها الصلوات الخمس يومياً.

وبعد الاجتماع الثالث لمؤتمر الحزب - يريد الشيوعي - الوطني أي على مستوى الوطن أكدت الحكومة سياسة حرية الأديان والنشاط الديني مضمون من الحكومة قانونياً.

ثم قال: ونحن نهتم الآن بمدرسة العلوم الإسلامية - يريد التي رأيناها قبل قليل- ونثبت دعوة الإسلام في نفوس المسلمين ونحن نشكر رئيس الوفد- يقصدني- على إخباره بتقديم الكتب الإسلامية وإنني أثق أنكم إذا زرتم شنغهاي مرة ثانية فإنكم ستجدون عدد الطلاب أكثر مما هو عليه الآن.

وقال- يخاطبني- إنكم تعرفون أحوال المسلمين في جميع أنحاء العالم ونحن محتاجون إلى نصائحكم في هذا الموضوع.

فرددت عليه بكلمة ضافية ركزت فيها على ماذكره حول حرية الديانة إذ لاحظت ان الثناء على الحكومة أو إظهار ما أعلنته من نوايا تجاه المسلمين لم يرد في كلمات كثير من الخطباء في الاقاليم التي زرناها، وربما كان مرجع ذلك إلى أن وقوع شنغهاي في موقع قريب من العالم غير الشيوعي واتصال الناس بأهلها جعل الحكومة تجد من الضروري التأكيد على الدعاية لها عند الناس.

وقلت وأنا أعلم ان كل مايقال هنا سينقل إلى المسؤولين في الدولة: إننا سررنا لما أخبرتمونا به من ضمان الحرية الدينية بالقانون، ومن حسن معاملة المسلمين وأرجو ان تثقوا ان أية معاملة حسنة يلقاها المسلمون في هذه البلاد سيكون لها صداها الحسن في العالم الإسلامي لأن المؤمنين إخوة ونحن نتتبع ماتكون عليه أوضاع اخواننا المسلمين

فنشكر من يساعدهم، ونحاول الوقوف في وجه من يعاندهم.

وبينت لهم ماتستطيع أن تقدمه رابطة العالم الإسلامي للإخوة المسلمين في العالم.

قدم رئيس الجمعية الإسلامية هدايا للوفد وهي علب يدوية وخصني بلوحة منقوشة قال ان فيها أربعين ألف غرزة، وكتبت كلمة مناسبة في سجل الزيارات.

ثم دار نقاش جيد بين الوفد وبين الحاضرين تناول بعض الشؤون الإسلامية وتبين انهم كانوا بحاجة إلى مثل هذه الجلسات ليناقشوا فيها أمور دينهم بعد الانفراج النسبي الأخير في الصين الشعبية.


مدخل ثانٍ لمسجد سونغ يانغ

إلى مسجد آخر:

عندما خرجنا من المسجد وجدنا جماهير غفيرة من الناس قد وقفوا أمام المسجد ينتظرون خروج الضيوف ليروهم. وأخبرنا اخواننا ان الموكب بسياراته السبع الجديدة هو الذي لفت انظار الناس إلى وجود وفد زائر.

كان الشارع الذي فيه مدخل المسجد قديما وغير واسع فضاق بالناس حتى تدخل رجال الشرطة بدفعهم للافساح للمرور.

وصلنا للمسجد الثاني من مساجد (شنغهاي) واسمه (مسجد خويولو) إضافة إلى حي (خويو)


مسجد تايوانغ في شنغهاي

الذي يقع فيه.

وهو قديم مبني على الطراز الصيني بخلاف الذي قبله فهو مبني على الطراز العربي.

وهذا واقع في القسم القديم من مدينة (شنغهاي). وبني - في ماقالوه لنا- قبل أكثر من مائة سنة. وحدد أحدهم تاريخ بنائه في عام ١٨٧٠م.

وبناؤه بالخشب الصيني القوي الذي كانت تبنى منه المباني ذات الأهمية مثل قصور الملوك ومنازل كبار الوجهاء والأثرياء.



مدخل جامع تايوانغ

ثم جاء إلينا إمامه الأخ (محمد داود ما شينغ) فقال انه لم يصب بضرر من الثورة الثقافية ولكنهم جددوه منذ وقت قريب، وهذا يدل على انه قد أصيب بضرر وقال: ان المسلمين الذين جمعوا الأموال لتجديده ساعدتهم الحكومة على ذلك، أما بناؤه الأول فذكر انه كان في عام ١٨٧٠م.

وقال: إن راتب امامه ومؤذنه يأتيهم من الجمعية الإسلامية في (شنغهاي) وانه يمتلىء بالمصلين لصلاة الجمعة بحيث يبلغ عددهم مابين اربعمائة إلى خمسمائة.

وأما في أوقات الصلاة الخمس فعدد المصلين قليل، وذلك لتباعد بيوت المسلمين عنه.



المؤلف أمام مسجد نويولو في شنغهاي

ثم ذكر ان عدد المصلين في صلاة الفجر أكثر من المصلين في الأوقات الأخرى وذلك لعدم انشغال الناس في الفجر إذ يصلي في هذا المسجد في الصباح مابين أربعين إلى خمسين.

وقد أسرعت أريد التجول في هذا الحي القديم الذي يقع فيه المسجد وكانوا أخبرونا أنه أقدم أحياء (شنغهاي) وماهم بحاجة إلى قول ذلك لأن حالة البيوت والأزقة ولا أقول الشوارع تشهد بذلك فضلاً عن الحوانيت الضيقة ذات المداخل التي قد يحتاج الداخل معها في بعض الأحيان ان يطأطئ رأسه بسبب ارتفاع أرض الزقاق على مدى السنين.

وقد لاحظت ان طراز البيوت القديمة لا يختلف كثيراً عن أطرزة البيوت المبنيةمؤخراً في الحارة. و التي يصيبها حر الصيف وتكثر الرواشين فيها - جمع روشان- وهي النوافذ ذات الشقوق من الخشب التي يرى من يكون بداخلها الناس ولايرونه إلا في الليل إذا كان عنده نور. وهي بيوت صغيرة جداً بدليل تقارب ابوابها حتى تخال البيوت في بعض المواضع قبل ان تتأملها حوانيت. على ان أكثر هذه البيوت مبنية من الآجر أو مطلية بالأسمنت وذلك لكون المنطقة مطيرة.

مسجد ياشوي لونغ:

واسمه من اسم الحي الذي يقع فيه أيضاً. توجهنا إليه مع شوارع ضيقة في وسط المدينة. ومع ذلك ترى فيها لمحات من الشبه فيما بينها وبين الأحياء القديمة في المدن العربية مثل القاهرة وبخاصة مايتعلق بالساحات التي هي الميادين الصغيرة.

والناس هنا أقل وجاهة من أهالي شمال الصين، وتظهر فيهم

خصائص الوجوه الصينية أكثر ولهم الأشكال الصينية التي يتميز بها الذين يعيشون في بلدان جنوب آسيا الشرقي مثل ماليزيا وتايلند أقرب من أهل الشمال.

ذكروا ان البناء الحالي للمسجد كان قبل ستين سنة وان المسلمين اشتركت مجموعة منهم في بنائه في ذلك الوقت بمعنى انه لم يقم على بنيانه شخص واحد وكان عندما بنوه أول مرة صغيراً ثم وسع بعد ذلك وإلا فإنه كان موجوداً قبل ذلك بزمن.

إمام المسجد (محمد يوسف ساسوي وا) ذكر ان عدد الذين يؤدون صلاة الجمعة في المسجد يبلغ نحو مائة وفي الصلوات الأخرى في حدود الثلاثين.

وقال: إن هذا المسجد سيزال مع الحي الذي هو فيه لأنه قديم وغير صالح للسكن كما قيل لنا. ثم تكلم الامام فقال: نرحب بوفد رابطة العالم الإسلامي وكنا نود لو اجتمع المسلمون هنا كلهم ليحيوكم، ولكنهم منتشرون في أنحاء المدينة. والمهم انه إذا بني المسجد في مكان جديد فإن المسلمين سيحاولون السكنى بالقرب منه، لأن المسلم يحب ان يسكن بالقرب من اخوانه وقال: إنه إذا أزيل الحي مع المسجد فإن بيوتاً من بيوت المسلمين في الحي ستزال أيضاً ولذلك سيبحثون لهم عن أماكن قريبة من المسجد.



في فصل تدريب الأئمة في جامع تايوانغ في شنغهاي

وذكر ان الحكومة ستعوض المسلمين عن المسجد كما انها ستدفع تعويضاً لأهل البيوت التي ستهدم في الحي إذا كان أهلها يملكونها حتى المستأجرون تعطيهم الحكومة تعويضاً مناسباً، وذكر ان أكثر المسلمين في هذا الحي هم من العمال.

وبعد هذا الكلام المشتمل على ثناء مبطن للحكومة كما هي العادة هنا في مدينة شنغهاي مما لم نجده في شمال الصين أو مما لا يسارع المسلمون إلى قوله هناك.

ابتدأ في الأمر الجدي فقال: إننا الآن نجمع النقود لبناء المسجد الجديد الذي سننتقل إليه. وقد جمعنا من الاخوة المسلمين حتى الآن عشرين ألف ين والحاجة ماسة إلى اربعمائة ألف تقريباً. لأن المسجد الجديد سيكون أكبر من هذا أربعة أضعاف.

وكان حديثنا مع الامام على فنجان من الشاي الخفيف المر كالعادة قدمه للوفد وذكر أنهم سيبدؤون بالعمل في المسجد الجديد في السنة القادمة وقد حرصت عل استجلاء أمر هذا المسجد وتصويره قبل هدمه وإزالته فوجدت فيه لوحات عديدة كلها عربية إسلامية ومكتوب على بابه الداخلي الآية الكريمة: ﴿وان المساجد لله فلاتدعوا مع الله أحدا﴾، بخط واضح. كما رأينا تاريخ بنائه في عام ١٩١٤م.



عند باب المسجد الذي سيهدم في شنغهاي

وعلّق أحد الاخوة من المسلمين الحاضرين من أهل الحي فقال: إنه يوجد في هذا الحي وما هو

قريب منه عدد من المسلمين يبلغ نحو ألف وستمائة وأربعين نسمة. وان بعضهم سينتقلون مع المسجد إذا نقل إلى مكان آخر.

ثم غادرنا هذا الحي القديم فوجدنا جماهير مجمهرة من الناس من رجال ونساء وأطفال قد تجمهروا حول المكان وامتدت صفوفهم مع امتداد الشارع الضيق الذي يقع فيه المسجد انتظاراً لرؤية الزوار الذين قد هيء لهم كل هذا الموكب من السيارات وأكثرهم من غير المسلمين ورأيناهم يحيون وحتى الأطفال الذين على أيدي أهاليهم رأينا أهاليهم يرفعون أيدي الأطفال بالتحية، وأما الكبار فإنهم يقولون كلمة سألت المترجمين عن معناها فقالوا: إنهم يقولون: مرحبا، مرحباً.

في القديم والحديث:

توجد أحياء قديمة ذات طابع مميز في مدينة (شنغهاي) ولكن لاتوجد بها أحياء جديدة واسعة ذات طابع معين تشتمل على الحوانيت المتنوعة والدارات (الفيلات) أو المنازل الخاصة الفاخرة وإنما الجديد فيها هو أبنية متعددة الطوابق (عمارات) تبنيها الحكومة لتؤجرها شققاً على موظفيها وعمالها.

ولذلك يمكن أن يقال بشيء من عدم الدقة: ان مدينة شنغهاي تنقسم الاحياء فيها من قديم إلى حديث غير جديد أو لنقل انه القديم الحديث لأن الأحياء الجديدة التي تقام في مدن الاقطار الحرة اقتصادياً إنما يقوم على

الحي القديم في شنغهاي

إنشائها الأفراد والشركات المؤلفة من مساهمين أفراد وهذه غير موجودة في الصين. مع ان مدينة (شنغهاي) قبل استيلاء الشيوعية عليها كانت فيها أحياء جديدة راقية فبقيت على حالها ماتزال تلك الأحياء جيدة إلا ان مقاييس الجودة في أحياء المدن الراقية الحرة التي انشئت منذ عهد قريب قبل عشر سنوات أو خمس سنوات قد تجاوزت مقاييس الحاجة إلى الجمال في التخطيط فأصبح المطلوب ان تكون الشوارع أوسع لكي تفي بالحاجة لاستيعاب آلاف السيارات الحديثة وصارت الميادين أرحب من أجل الوفاء بما يحتاج إليه الناس في الوقت الحاضر من انسياب في المرور مع وجود حدائق أو ساحات خضراء كافية في تلك الميادين وأمثالها. إلى جانب مواقف السيارات التي يحتاجها السكان الذين تحيط منازلهم بالميدان. .

سرنا في الشوارع الرئيسية من مدينة (شنغهاي) وقد امتلأت بالدراجات والمشاة لأن هذه الساعة هي ساعة انصراف الناس من أعمالهم اليومية فهي الخامسة والربع وقابلنا أفواج المشاة في شارع (نانكين) وكأنهم الأمواج المنسابة وهم يسيرون على الأرصفة الجيدة.

ورأينا حانوتاً كبيراً مكتوباً عليه باللغة العربية: (الدكان الإسلامي للحلوى والفطائر) وهو حكومي مشهور واقع في شارع نانكين هذا الذي رأينا الزحام فيه على أشده لأنه شارع تجاري ومع ذلك لاتزال تسير فيه حافلات الركاب الكهربائية التي يسميها المصريون (ترولي باص) وهذه العربات الكهربائية موجودة في شوارع عديدة من المدينة. وأرصفة الشارع جيدة الرصف وواسعة وهو مشجر بأشجار الظل ولكن لم أر فيه مقاهي كثيرة من مقاهي الرصيف التي تكثر عادة في مثيلاته من الشوارع التجارية الرئيسية في المدن الحرة كشارع (الشانزلزيه) في باريس. وانما رأيت (مقهاة) واحدة في الداخل

وليس على الرصيف من كراسيها أو روادها أحد.

ويمتلىء الشارع بالعمارات الجديدة ذوات الطوابق المتعددة وكلها ليست جديدة البناء لأن العمارات الجديدة تبنيها الحكومة في ضواحي المدينة على أراض خالية أو في أمكنة أحياء قديمة ذات بيوت من طابق واحد تزيلها وتبنيً عليها (بنايات) ذات شقق سكنية تستوعب أكثر مما تستوعبه البيوت الانفرادية الخاصة من السكان.

وحتى الأزقة المتفرعة من هذا الشارع المهم (نانكين) هي جيدة المظهر ذات أرصفة بعضها مبلط بالأسمنت لأنه أقوى من البلاط المعتاد.

وأما الجمهور فإنه الجنس الصيني الخالص- إن لم يكن في هذا القول سذاجة في التعبير- وأريد بذلك الجمهور الذي تتجلى فيه الخصائص الجسدية الصينية المعروفة ويكاد المرء يحس بأن الناس هنا على وجه العموم تميل قاماتهم إلى القصر بالنسبة إلى أهل بكين الخلص مثلاً.

وأكثر مفارق الطرق هنا عليها الجنود يسيرون السيارات بإشارات من أيديهم وليس فيها إشارات مرور ضوئية وإنما تكون هذه الاشارات وهي موجودة ظاهرة في المفارق الرئيسية وعلى الشوارع الكثيفة الحركة.

ويلاحظ المرء كثرة في ركاب الحافلات الذين يراهم قد تجمعوا في محطات الحافلات المعتادة والكهربائية ولكن الزحام المؤذي غير موجود هنا ومظهر الحافلات نفسها هنا جيد والتراكض على ركوبها غير موجود.

ومررنا أيضاً بميدان الشعب في قلب المدينة وهو واسع جداً يستعمل جزء منه للاستعراضات وللتجمعات الجماهيرية ويقع عليه مجلس نواب الشعب.

يوم الثلاثاء: ١٤٠٤/٨/٧هـ - ١٩٨٤/٥/٨م

معرض الصناعات

يتضمن برنامج الوفد هذا اليوم عدة فقرات ليس من بينها فقرة تتعلق بأمور إسلامية وذلك لضعف النشاط الإسلامي في المدينة بسبب قلة عدد المسلمين بالنسبة إلى كثرة سكانهاولكونها تعتبر موطناً من مواطن الاحتكاك الثقافي الذي تخشى منه الحكومة الصينية على مذهبها الشيوعي.

وأولى الفقرات كانت زيارة معرض صناعات (شنغهاي) فشنغهاي اشتهرت بأنها مدينة صناعية، وكونها كذلك أمر تستغله الحكومة. وتريد له الذيوع والانتشار لأن التجارة كلها بيدها لذا تحرص على إبراز ماتستطيع أن تنتجه شنغهاي من صناعات وبخاصة ماكان منها صالحاً للتصدير، ولذلك تجعل زيارة هذا المعرض في برنامج زيارة الوفود الأجنبية.

والمعرض بناء واسع مؤلف من عدة طبقات ولايتسع للنماذج الحقيقية من المصنوعات الكبيرة ولذلك وجدناهم عرضوا نماذج مصغرة منها من ذلك بواخر كبيرة لأغراض مختلفة من أغراض النقل البحري، ومحركات للسفن تعمل بالديزل، ومعدات لأجزاء السفن الكبيرة وقطع من قطع التغيير للسفن وكلها صنع



معرض الصناعات في شنغهاي

شنغهاي .

ثم رأينا ركناً فيه مواد البناء ومنه أنواع مختلفة من البلاط الذي يستعمل لأغراض مختلفة مثل بلاط السطح وبلاط الحمام وقماش من ألياف زجاجية لكسوة الحيطان الداخلية وأنواع من الزجاج .

وفي القسم أو الركن المتعلق بذلك موظفة مسؤولة عنه تبادر بشرح كل مايتعلق به للزائرين إذا كانوا من الضيوف أو من المحتفى بهم .

ثم انتقلنا إلى ركن آخر فيه محركات توليد الكهرباء ومولدات كهربائية صغيرة وكبيرة وآلات خرط الحديد واللحام، ومحركات تعمل بالديزل للسيارات .

ثم كان الذهاب إلى قسم للملابس والمنسوجات والأحذية وآخر للآلات الموسيقية والأدوات الكتابية .

وتعددت الأركان والمعروضات . أما الأسعار فإنها غالية من ذلك غسالة متوسطة كتبوا عليها سعرها ٣٣٨ يناً .

وهناك أشياء تلفت النظر لحداثتها، أو غرابتها من ذلك قسم للأنسجة الصناعية من المواد غير الطبيعية كالأنسجة التي تدخل اللدائن في تركيبها وقد صنعوا من هذه المواد الصناعية غير الطبيعية أشياء أخرى غير الملابس كالأثاثات المنزلية .

ثم قاعة كبيرة مميزة خصصوها لصناعة صينية أصيلة، بل عريقة الأصالة في الصين وهي الأقمشة والمنسوجات الحريرية من طبيعي وصناعي .

ورأيتهم كتبوا على دراجات هوائية من دراجاتهم سعر الكبيرة منها هو ١٨٠ يناً والصغيرة ١٥٠ يناً، أما الدراجة النارية فإن الخفيفة

الصغيرة منها سعرها سبعمائة ين .

وهناك ساعات ومصورات - آلات تصوير - من صناعتهم وكلها أغلى سعراً من مثيلاتها اليابانية وأقل جودة .

ويجب أن لا ننسى ان (الين) الواحد وهو العملة الصينية يساوي خمسة وأربعين سنتاً من الدولار الأمريكي بالصرف الرسمي وفي السوق الحرة التي تمنعها الحكومة يساوي ٣٣ سنتاً .

والواقع ان الصناعات المعروضة هنا والتي قالوا انها كلها من مصنوعات شنغهاي هي كثيرة ومتنوعة وجودتها لابأس بها ولكنها دون ماكنت ظننتها عليه بناء على ما في ذهني من عراقة الصين في الصناعة ومن رخص اليد العاملة في الصين ،وقول الحكومة الصينية بأنها طورت الصناعة في الصين بل ادعت أنها أحدثت ثورة صناعية يصعب على الصين تحقيقها في أزمان طويلة بدونها .

محطة التلفزة :

والفقرة الثانية من زيارات هذا اليوم هي لمحطة التلفزة ذهبنا إليها في التاسعة والنصف وهي خاصة بمدينة (شنغهاي) فوجدنا في الاستقبال مدير المحطة ونائبه وقد أمرتهم السلطات الحكومية أن يكونوا في استقبال وفدنا .

وفي قاعة استقبال جيدة الأثاث بل ان أثاثها كله على طراز أوروبي ليس فيه من الأثاث الصيني شيء قدم المدير الشاي الصيني المعتاد ورحب بالوفد وقال : أنشئت هذه المحطة في عام ١٩٥٧م بعد إنشاء محطة بكين فهي كانت المحطة الثانية .

وفي البداية كان عدد الموظفين فيها ثلاثين والآن فيها ثلاث قنوات كلها ملونة. ثم قال : إن أرياف (شنغهاي) فيها أجهزة تلفزيونية كثيرة حتى الفلاحين لديهم أجهزة ملونة لأنهم أغنياء.

وهذا مشكوك فيه فالفلاحون ليسوا أغنياء إلى درجة انهم يشترون التلفاز الملون وهذا أمر معروف للجميع ولكن الأمر الشائع المعروف ان الفلاحين هم الآن أحسن حالاً على وجه العموم- من الموظفين والعمال الذين يسكنون في المدن وتلتهم وسائط النقل دخولهم القليلة لأن الفلاح يوفر ذلك على نفسه لكونه يسكن في منزل له بدون أجرة وليس عليه التزامات كالتي يلتزم بها سكان المدن.

ثم قال مدير محطة التلفزة: إن (التلفاز) هو صديق الفلاحين، وكذلك التلفزة للتوعية الإسلامية لأن الجمعية الإسلامية تأتي في المناسبات بناء على طلب من رئيس الجمعية الإسلامية فقد أذاعوا في العام الماضي طواف الحج.

ثم قدم المدير هدايا رمزية هي دفاتر ومحافظ جلدية صغيرة.

برج شنغهاي:

أرسل مدير محطة التلفزة معنا نائبه في إدارة المحطة ففتح لنا برج التلفزة الذي يسميه بعضهم برج شنغهاي لارتفاعه الذي ذكروا انه يصل إلى ٢١٠ أمتار ولكنهم قالوا: إننا سنصعد ١٢٦ متراً فقط. وكان يرافقنا رئيس الجمعية الإسلامية وعدد من موظفي المحطة والمرافقين. دخلنا مصعداً متوسط السعة والجودة أوصلنا إلى المكان المطلوب من البرج في ٦ ثوان كما قالوا لأنه سريع ولايقف دون الهدف.

ولقد كان لهذا الصعود مايبرره من استجلاء منظر مدينة شنغهاي وبخاصة القسم العصري منها ولانقول الجديد لما سبق.

وقد كان المنظر بديعاً لأن البرج يتوسط ذلك القسم العصري من المدينة ومنه ترى أبنية لها قيمتها منها فندقنا الذي نسكن فيه (جيانغ جانغ) وكنت أرى هذا البرج من نافذته ولكنني لم أدر ماهو في أول الأمر، وفندقاً آخر أتموا بناءه قبل سنتين اسمه (فندق شنغهاي). وميدان الشعب وكان قبل ذلك ميدانا لسباق الخيل في عهد الانجليز، و(البرلمان) أو مجلس نواب الشعب والمكتبة العامة، ودار عرض الألعاب البهلوانية (الاكروبات) وهذا الفن مما يشتهر به الصينيون، بل يكادون يفوقون غيرهم فيه.

وأكثر البيوت العامة التي يراها المرء من هنا بيوت كانت فاخرة وكان يملكها رجال أثرياء، ووجهاء، في العهود السالفة وليس فيها عمارات كثيرة متعددة الطوابق إلا قليلا، إلا أن المرء يبصر على البعد عمارات سكنية عالية وهي جديدة بنتها الدولة.

وبخصوص السيارات التي تجوب شوارع هذا القسم العصري وسط المدينة فإن الذي يسمع أبواقها يظنها كثيرة العدد غير ان الذي يراها من هذا البرج يرى أنها ليست كثيرة، وإنما اطلاق أبواق السيارات أمر شائع في الصين، لأن الشوارع قديمة التخطيط والمارة كثير، والسيارات هي من صنع وطني غير حرة الحركة أو غير بالغة المرونة في الحركة.

وترى من هذا البرج نهراً يسمونه نهر (شوتشو) وهو فرع لنهر (وانغ بو) الذي هو متفرع من نهر (يانغ تسي) العظيم.

مأدبة المجلس الاستشاري:

يتضمن برنامح الوفد تناول طعام الغداء على مأدبة نائب رئيس المجلس الاستشاري واسمه (جانغ تشين جونغ). وموعده في الثانية عشرة وهو الموعد الرسمي للغداء في الصين وبخاصة في المآدب الرسمية في العادة .

وصلنا إلى مكان الحفلة فإذا به أشبه مايكون بالقصر الفخم من قصور أوروبا إلا انه في قلب المدينة وقد أخبرنا انه كان (النادي الفرنسي) إبان الحكم الاستعماري على مدينة شنغهاي .

فاستقبلنا نائب رئيس المجلس الاستشاري وهو صيني أصيل كبير السن من قومية (خان) التي هي القومية الرئيسية في الصين ومن غير المسلمين وكان نائباً لرئيس حكومة شنغهاي مدة عشرين سنةووجدنا مصوري التلفزة والصحافة حاضرين بآلاتهم فصوروا الاستقبال بل صوروا الحركة في المأدبة كلها وقد بثوها من التلفاز في مساء هذا اليوم. وحضر المائدة عدد من رجالات الدولة في المدينة منهم (ماني سانغ) نائب رئيس شؤون القوميات وهو مسلم والمسؤول عن إدارة الشؤون الدينية غير مسلم.



نائب رئيس المجلس الاستشاري في شنغهاي وعلي يمينه المؤلف
وعلى يساره المترجم الأستاذ لقمان ماشان لي

تحدث مضيفنا عن العلاقات المتينة مابين الصين والبلدان العربية في التاريخ القديم، وألمح إلى

ان شعب الصين يتطلع إلى إعادة تلك العلاقات إلى سابق ماكانت عليه، بل إلى أقوى من ذلك، وبخاصة ان هناك الآن علاقات حميمة بالصين مع عدد من البلدان العربية.

وقد رددت عليه بكلمة ضافية ركزت فيها على ماعرفناه في كتبنا العربية التاريخية من تسامح الصينيين مع المسلمين وتقديرهم لهم، وتمكينهم من بناء مساجدهم، وأداء شعائرهم بكل حرية، وألمحت إلى ان ما حدث في الصين إبان الثورة الثقافية يعتبر بمثابة النغمة الشاذة في سير الثقافة الصينية وفي نظام الحياة التقليدية وعلاقات الصينيين بغيرهم من ذوي الأديان والثقافات الأخرى.

والرجل وهو المحنك الكبير السن يدلي بإحصاءات عن المسلمين في الصين ومهد لذلك بأن قال: نحن نحترم المسلمين ففيهم مثقفون أكثر من غيرهم بالنسبة إلى عددهم، فمثلاً هناك ألفان وسبعمائة جامعي في شنغهاي من المسلمين.

وذكر ان نسبة تمثيل المسلمين في المؤسسات الرسمية الصينية تزيدعلى نسبتهم العددية بالضعف فمثلاً هناك اثنا عشر نائباً مسلماً من ٩٧٧ من غير المسلمين. بل ان نسبة تمثيل المسلمين هي لكل عشرة آلاف شخص اثنان على حين ان هذه النسبة للصينيين غير المسلمين هي نائب واحد لكل اثني عشر ألفاً.

وذكر ان مجلس الوزراء المركزي فيه سبعون وزيراً منهم ثمانية من المسلمين. وكذلك القول في نواب الحي تكون نسبة تمثيل المسلمين دائماً أكثر من عددهم.

وقد استمر حديثه عن المسلمين وهو حديث شيق إلا انه يرد عليه انه لايتكلم مع شخص يعرف دقائق هذه الأمور حتى يتيقن ان كل

ماقاله صحيح، ويرد عليه أيضاً ان الحكومة الصينية الشيوعية لا تصنف الناس حسب أديانهم ولكن حسب قومياتهم ولذلك قللت من عدد المسلمين لأنها لا تدخل في حسابها لهم إلا القوميات المسلمة الخالصة للمسلمين أما الأقليات المسلمة من القوميات الأخرى فإنها لم تحسبها من المسلمين، كأقلية التبت ومنشوريا. كما أن الأقليات في المدن والأرياف البعيدة التي لاتنسب إلى قوميات معينة لم يتناولها حسابهم أيضاً.

إلا أن حديث الرجل كان مفيداً لأنه تناول أموراً كثيرة من أمور الصين. وكان حديثاً طريفاً شيقاً كما كان طعامه صينياً شهياً رأينا فيه عجائب من الأطعمة الصينية لم نرها في المآدب السابقة رغم إكثارنا من حضورها من ذلك انهم أحضروا اللحم موضوعاً في سلة من الحصير تبين أنها سلة تؤكل إذ هي من البطاطس.

وجاءوا بطبق فيه العصافير وقالوا - ولا أدري صدق قولهم- إنها مذبوحة على الطريقة الإسلامية وحلوى من العدس على هيئة (آيس كريم)، وبقية أواني الطعام كانت على هيئة فواكه!

إلى حديقة يي يانغ:

تحرك الموكب في الثالثة ظهراً مخترقاً وسط المدينة القديمة ذات البيوت الضيقة بدليل ان الناس ينشرون ملابسهم المغسولة على الشرفات التي حفلت بالملابس المنشورة.

وكان الزحام بالغاً في هذه الشوارع الضيقة. حتى كانت سياراتنا تشق طريقها بصعوبة حتى وصلنا زقاقاً أضيق من غيره لايتسع إلا لسيارة واحدة وبصعوبة بالغة وهو الذي يفضي إلى الحديقة التي نقصدها.

وذلك لأن هذه الحديقة قديمة وكانت قائمة منذ قرون عندما كانت كل (شنغهاي) هي هذه المدينة القديمة.

فقد ذكروا ان هذه الحديقة كانت ملكاً خاصاً لأحد الأشخاص البارزين من الصينيين وفي عام ١٩٥٦م صادرتها الحكومة الشيوعية فصارت ملكاً عاماً من أملاك الدولة وفي عام ١٩٦٠م فتحت للجمهور.

أما تاريخها القديم فقد ذكروا انه يرقى إلى ماقبل أربعمائة سنة بقليل.

استقبلتنا مديرة الحديقة واسمها (ني سونغ سي) وهي صينية أصيلة بمعنى ان الخصائص الصينية كلها واضحة على وجهها ومظهرها، وهي في المتوسط من عمرها وذلك لأن المسؤولين في الدولة أخبروها بقدومنا كما هي العادة مع وفود الزائرين من الأجانب. رحبت مديرة الحديقة بضيوفها وهي تظهر الاهتمام وبدأت مديحاً متواصلاً للحكومة كما سمعناها بل كما كررت ذلك على أسماعنا.

قالت: إن مساحة الحديقة تزيد قليلاً على عشرين ألف متر، وإنشاؤها أول مرة استغرق خمس عشرة سنة، وذلك انها ليست حديقة فقط، بل هي قصر وأماكن تحكي الجبال ومواضع تحكي الوديان وكل ذلك مصنوع لأنها واقعة في المدينة القديمة من شنغهاي واسمها (ييى يانغ) ذكروا ان معنى كلمة (ييى) وهي بيائين أي ياء واحدة مكررة طاعة الأم والأب، وسبب تسميتها بذلك هو التذكير بطاعة الأبوين التي هي من التقاليد الصينية العريقة.

ثم بدأت الجولة في الحديقة بصحبة المديرة التي كانت تشرح كل

شيء وعند رؤية معبد بوذي صغير رأيناه مغلقاً لم نسأل عن السبب لأنه مفهوم لنا وهو معاداة الشيوعية للأديان وارتكازها على الالحاد وبخاصة بالنسبة إلى الأماكن التي هي تابعة للدولة.

أكثر مايلاحظه المرء في هذه الحديقة حتى بدون ان يلفت نظره إلى ذلك أحد كثرة النقوش الصينية المنوعة المنقوشة بألوان صارخة وفقاً للفن الصيني المعروف في هذا المجال.

ثم أرتنا قاعة واسعة لها مداخلها واعمدتها في داخلها وسقفها مقبب على الطريقة الصينية، وقالت: إن هذه القاعة مبنية من الخشب ولكن العجيب أنه ليس فيها مسمار واحد وإنما أدخلوا بعضها في بعض بطريقة فنية حتى اصبحت على ماهي عليه وهي قديمة البناء، سألت المديرة عن السبب في كونها سلمت على مدى قرون من الحريق رغم كونها من الخشب والخشب بطبيعته إذا طال عهده صار أكثر عرضة للحريق فأجابت: ذلك لكونها بنيت بعقول والعقل الكادح جعلها تسلم من الحريق. وقالت: إنها إذا أخذ منها جزء سقطت كلها ويمكن أن تنقل كلها أما بعضها فلا يمكن نقله.

هكذا قالت وهم يستعملون كلمة (كادح) هنا للجماعات التي قالوا ان الشيوعية قامت من أجل نصرتهم، مع العلم بأنها بنيت- في الحقيقة- قبل الشيوعية بقرون ولكنها تقصد ان الذين بنوها لأهلها الأغنياء كانوا من العمال الكادحين. وهذا التنويه بهذه الأمور يكمل مالاحظناه هنا في مدينة شنغهاي ولم نلاحظه في المدن التي زرناها قبلها وهو الثناء على الحكومة أو ذكر ماقامت به للعمال والفلاحين- وقد قدمت شيئاً من ذكر ذلك.

جبل اصطناعي :

بعد منظر هذه القاعة الكبيرة الخشبية التي أقيمت من غير مسامير كان لنا منظر جبل اصطناعي لم يكن في مكانه جبل ولا حجارة قبل ان يقيموه وقد نقلوا إليه الصخور الكبيرة وركبوا بعضها على بعض حتى بدت للناظر صخوراً كبيرة طبيعية مع انها تستعصي على امكانات الناس في ذلك العصر الذي بنوه فيه وهو ماقبل أربعمائة سنة كما قالت المديرة.

وقد جعلوه وعراً يصعب الصعود إلى قمته، امعانا منهم في إظهاره بمظهر الجبل الحقيقي، ولما أبديت استغرابي من قدم تاريخه ذكرت ان تمثالي أسدين منصوبين على باب الحديقة ورأيناهما عند الدخول قد صنعا قبل ستمائة سنة.

ثم صعدوا بنا إلى غرفة خاصة لها نافذة تطل على منظر خاص به لاتتيسر رؤيته من غير هذه النافذة وكذلك لايسمحون بالاطلالة من هذه النافذة إلا لكبار الزوار.

والشجرة المعمرة :

وأرتنا الدليلة شجرة لها ثمر أبيض وقالت: هذه الشجرة عمرها أكثر من أربعمائة سنة غرسها والد المالك الأول للحديقة ولم أر في هذه الشجرة مايلفت النظر ولا يظن من يراها فيها طول العمر.

وإنما المنظر المخيف الملفت للنظر هو لخمسة تنانين- جمع تنين- عظيمة ضخمة بنيت بأحجام كبيرة من الطين والآجر وصبغت بصباغ أسود وهي تحتاج إلى الترميم والتعهد في كل بضعة من السنين.

ومعلوم ان التنين هو رمز الصين وهو عندهم حيوان خرافي،

وعند أسلافنا العرب هو الحية العظيمة والشيء الذي لاحظته وله معنى خاص ان في الحديقة مراحيض (دورات مياه) ومقهى مخصصة للأجانب ولايجوز للصينيين ان يدخلوها والأجانب يراد بهم زوار الحديقة من غير الصينيين ولو لم يكونوا من ضيوف الحكومة أو المؤسسات التابعة لها، وإنما الأجانب من السياح والتجار وغيرهم عندما يأتون تكون جيوبهم عامرة بالعملة الصعبة التي تستحق أن يحرص عليها. ويستحقون من أجلها أن تخصص لهم (دورات مياه) خاصة ومقهاة كذلك.

وقد شربنا الشاي وعصير الفاكهة في هذه المقهاة ضيافة من المديرة.

ومن أطرف ما عملوه أنهم أقاموا في داخل الحديقة أنموذجاً مصغرا للحديقة كلها بكافة معالمها حتى الجبل الاصطناعي أقاموا في مكانه من الحديقة جبلاً صغيراً صورنا عنده، وذكروا من خرافاتهم ان من يقف في هذا المكان ويفكر في شيء فإنه يتحقق له ماأراد. وهذا هراء لأن الذي لاشك فيه ان كثيراً من الصينيين بل ان أكثر الصينيين ليسوا من الشيوعيين ولايريدون الشيوعية ولاشك في ان بعضهم قد جاء هنا وفكر في ان تتخلص البلاد من الشيوعية ولم يتحقق له ذلك.

وفي نهاية الجولة ودعتنا المديرة بانحناءة اصطناعية مع ابتسامة صفراء، ولا أدري لم شعرت بذلك على خلاف ما شعرت به عندما يبتسم لي ويصافحني أفراد من عامة الشعب الصيني الذي هو شعب مؤدب مهذب.

ممنوع دخول الصينيين والكلاب :

عفواً فهذه العبارة هي نقل أمين لعبارة كانت موجودة على حديقة وصلنا إليها بعد أن تركنا حديقة (ييى يانغ)، وقد أزيلت هذه الجملة من الحديقة قبل نحو ٥٨ عاماً ولكن الناس لايزالون يذكرونها وبخاصة المسؤولين الحكوميين لكي يوضحوا لأبناء مدينة شنغهاي أنهم كانوا مستعمرين ومحتقرين من الأجانب قبل تحرير المدينة.

واسم الحديقة (هوان بو) وكانت حكراً على المستعمرين الأوربيين دون الصينيين. وكان الانجليز على وجه الخصوص هم الذين كانوا قد كتبوا تلك العبارة على مداخل هذه المدينة التي تمنع دخول الصينيين ودخول كلاب الأوربيين إلى الحديقة وقد رفعت تلك اللافتات في عام ١٩٢٨م.

وهي ليست واسعة إلا انها فاخرة أو كانت كذلك وليس في مبانيها ولا فيما حولها شيء يوحي بالأصالة الصينية و هي مبنية على الطراز الصيني مع أنها ليست كالحديقة التي قبلها التي هي حديقة ومتحف وإنما هذه حديقة ذات أشجار باسقة وزهور متسقة.

وتقع في موقع جميل من ضفة نهر (سوجيو) ويفصلها عن مياه النهرجدار عريض يمكن الوقوف عليه أو الجلوس على مقاعد عنده فيتمتع المرء برؤية الحديقة وينقل بصره منها إلى هذا الخضم الضخم من مياه النهر الذي يقع عليه ميناء شنغهاي الكبير.

وهذا النهر رغم كونه ليس مشهوراً فإن مياهه هائلة الكثرة والاتساع في هذه النقطة التي يقع فيها ميناء مدينة شنغهاي التي كانت أكبر مدينة صناعية وتجارية في الصين كلها. لأنها أكبر مدن الصين على الاطلاق.

وتمتد مياه هذا النهر مسافة ٢٨ كيلومترا فتختلط بمياه نهر (يانغ سي) العظيم.

وإذا أبصر المرء هذا الميناء الضخم الذي يعد واقعاً في مياه نهرية لم يكد يصدق ذلك بل قد يظن انه في مياه بحرية مع ان مياه النهر هذه لاتصل إلى البحر إلا بعد ثمانين كيلومترا وهذا الميناء النهري هو أكبر ميناء في الصين ويبلغ عمق الماء فيه تسعة أمتار وتسعة أعشار المتر وطاقته للصادر والوارد تسعون مليون طن في السنة.

ويلفت النظر هنا منظر بعض العشاق - وهو منظر غير لائق بطبيعة الحال - فيما بين المدينة والنهر وهو منظر قلما يراه المرء في مدن الصين الأخرى فشنغهاي كان لها وضع خاص ولايزال هذا من رواسبه وبخاصة أنها تستقبل زواراً كثراً من ذوي الأصل الصيني المنتشرين في العالم.

وقد بنوا فيها سطوحاً صغيرة كي يتمكن المتفرجون من استجلاء المنطقة ومن أهم المناظر التي يراها المرء من هذه السطوح التقاء النهرين اللذين تكون مياههما هذه المياه التي أقيم عليها ميناء شنغهاي وهما نهر (سوجيو) ونهر (هوانغ بو). وتبلغ مساحة الحديقة ثلاثين مو وهو وحدة القياس للمساحات المسطحة في الصين و(المو) الواحد يساوي هكتارين.

وذكروا ان هذه الحديقة انشئت في عام ١٨٨٥م.

وعندما رأيت كثرة الناس في شوارع شنغهاي وفي هذا الميناء النهري عرفت السبب الذي حمل الحكومة الصينية على تحديد النسل في الصين وليس هذا بطبيعة الحال استحساناً لما فعلوه وإنما التماساً لمعرفة سبب التحديد فقد اجتمعت في ذهني مناظر كثرة الناس في المدن والبلدان التي مررت بها في الصين حتى الآن وانضاف إليها منظرهم في هذا الأصيل حتى كاد المرء لايجد له ممراً بينهم لأنهم في مثل هذه الساعة يخرجون إلى المنتزه في هذه المدينة وعلى شاطيء النهر وبخاصة في مثل هذا الفصل الربيعي وفي مدينة شنغهاي نفسها التي تفوق غيرها من

المدن الكبيرة في الصين في الطقس ويفوق أهلها غيرهم من سكان المدن الكبيرة في الملبس والمأكل فيها يظهر للمتأمل المستعجل مثلي أو هذا هو مايتبادر من مظاهر الناس ومناظرهم الخارجية. ماعدا شيئاً واحداً ذكروه لنا وهو السكن فإن الضيق هنا عام شامل للسكان في جميع المدن الصينية الكبيرة.

إلا أن الذي قد يعزى بعضهم بالنسبة إلى مايعرفه من تدني الدخل الفردي في الصين ان أجور المساكن رخيصة جداً إذا قورنت بالمدن الكبيرة في خارج الصين.

ورأيت طوائف من الذين ينتظرون الحافلات بعضهم كانواجالسين وبعضهم ظلوا واقفين والحافلات كثيرة وأجرتها رخيصة ولكن الناس كثير جداً.

ومع ذلك فإن النظام هنا هو السائد فلاتزاحم ولا أحداث مستكرهة أوخصام بين الناس أو تشاحن عند الركوب أو المرور.

وبعد قضاء وقت ممتع في هذه الحديقة وعلى ضفاف النهر الذي كان نهرين قبيل وصوله إلى منطقة الميناء عدنا إلى الفندق مع طريق شق القلب التجاري لمدينة (شنغهاي) الذي كان فاخراً حتى شبهه بعضهم ببعض أسواق باريس وهو كان مثل القلب التجاري للقاهرة في ذلك الوقت أما الآن فلم يبق إلا المظاهر القديمة في أبواب الحوانيت والأرصفة وأما المتاجر فقد أصبحت كلها حكومية وأصبح العاملون فيها موظفين للدولة وصارت السلع كلها مما تبيعه الدولة فقلت محتوياتها، وذهب رونقها وصارت مثل (عزيز قوم ذل) و(تلك الأيام نداولها بين الناس) صدق الله العظيم.

ولم يبق في برنامج الليلة إلا حضور حفلة (بهلوانات الاكروبات)

ولكننا لم نرغب الذهاب إليها.

ومدينة شنغهاي هي - كما قلنا - كبرى مدن الصين ذات المدن الكبيرة وكادت تكون في وقت من الأوقات أكبر مدينة في العالم.

وليس مايهمني إيضاحه هنا هو تاريخ هذه المدينة القديم بخاصة أو تاريخ الصين بصفة عامة لأن كتابي هذا هو كتاب مشاهدات وملاحظات قصدت منه، أن أطلع القاريء الكريم على مارأيته أو سمعت به في الصين.

ويندرج فيما يهمني من أمر مدينة شنغهاي معرفة معنى اسمها وكيفية النطق به.

أما النطق به فهو بشين صحيحة كالشين في كلمة «شيء» العربية وتنطق مفتوحة ثم نون بعدها غين عربية صحيحة كالغين في كلمة (غير) العربية وليس كما ينطق بها بعض العرب بأنها بجيم مصرية فذلك إلى كونه غير صحيح في النطق فإنه ينقلها من مكانها الواقع في جنوب الصين غير بعيد من ساحلها الجنوبي إلى مكان ناء عن ذلك المكان في الشمال الغربي من الصين ويخرجها من كونها مدينةً واحدة إلى كونها مقاطعة ذات مدن ونواح.

ذلك بأن كلمة شنغهاي التي تنطق فيها الغين جيماً مصرية وتنطق الشين في أولها معطشة كالحرف الذي يكون في أول الإسم (تشارلز) أو تشرشل- مثلاً- تدل على مقاطعة أخرى من مقاطعات الصين وهي مقاطعة واقعة في الشمال الغربي. وفيها مسلمون، ومساجد عديدة، ولكن لم تتيسر لنا زيارتها. وإن كان الحرف الأول من اسمها مكسوراً بخلاف مدينة شنغهاي التي هو فيها مفتوح ولهذا السبب لابد من التنبه إلى التلفظ بالغين في اسم هذه المدينة الكبيرة وأنها غين حقيقية وأما

معنى مدينة (شنغهاي) فإن المعنى الحرفي له (فوق البحر) فشانغ تعني فوق و(هاي) تعني البحر » وهي في الحقيقة فوق البحر بمعنى أنها مرتفعة عنه وغير بعيدة منه ولكنها على خضم مياه النهر كما سبق .

ومدينة شنغهاي إحدى كبريات المدن في العالم، سكانها ١١مليون نسمة يشغل ثلثهم ما مساحته ١٥٠ كم مربعاً من اجمالي مساحة المدينة غير ان مساحتها الكلية ٦١٠٠ كم مربع بما في ذلك الضواحي وعشر محافظات ريفية .

وإدارة البلدية فيها تشبه تماماً ما في المقاطعات وتخضع مباشرة للحكومة المركزية .

وفي المجال الاقتصادي، تأتي شنغهاي الأولى بين المدن الصينية، إذ تقدم ثمن حجم الانتاج الاجمالي في الصناعة الوطنية، وسدس عائدات الدولة يأتي من شنغهاي، وثلث مايصدر منها يصنع فيها . ولما كانت شنغهاي مدينة كبيرة تعج بالملايين. فقد علق مواطن شنغهاني مسن قائلاً : «بإمكانك ان ترى في شنغهاي كل المدن الصينية متجمعة في مدينة واحدة» . فالراغبون في دراسة الصين، ماضيها وحاضرها، يجدون الكثير من قاعات المطالعة ومتاحف الفنون الجميلة . وبامكان المرء ان يرى كافة أنواع الحرف والصناعات اليدوية والأثريات والتحف في المحلات التجارية بالإضافة إلى الأطعمة الصينية الشهيرة . ففي المدينة ٦٠٠ مطعم تقدم كل أنواع مايقدمه المطبخ الصيني .

النهــران :

تدين شنغهاي في نشأتها ونهوضها إلى نهرين، الأول نهر ووسونغ والمعروف باسم نهير سوتشو الذي يربط المدينة بالقناة العظيمة وهي

مجرى مائي من الشمال إلى الجنوب. والثاني نهر هوانغ بو الذي يعتبر منفذ المدينة إلى المحيط الهاديء وهو يلتقي بنهر اليانغتسي على بعد ٢٨كم من المدينة. كانت مدينة تشينغبو، الواقعة حالياً في القسم الغربي من شنغهاي ميناء مزدهراً في عهد أسرة تانغ (٦١٨-٩٠٧م).

تشكلت الدلتا التي تقوم عليها المدينة الكبيرة والتي تشكل نتوءاً بارزاً في البحر منذ أواسط القرن العاشر. ولما نمت الدلتا وكبرت لم يعد نهير سوتشو يصب مباشرة في المحيط الهاديء بل في هوانغ بو حيث صار الأخير أهم النهرين. ونمت شنغهاي وامتدت على ضفة هوانغ بو الغربية.

وتصور إحدى اللفائف العائدة إلى عام ١٥٥٣م مدينة شنغهاي على أنها كانت مدينة متوسطة الحجم. وتبين لفافة أخرى تعود إلى القرن الثامن عشر أنها كانت ميناء للتجارة الخارجية مزدهراً.

جعلت المعاهدات غير المتكافئة التي فرضت على الصين بعد حرب الأفيون في عام ١٨٤٠ مدينة شنغهاي مفتوحة للمغامرين الأجانب الذين أكل قلوبهم الجشع والطمع وبالأخص تجار الأفيون، وفي الفترة مابين ١٨٤٥م و١٩١٤م، استولى المستعمرون الغربيون على مامساحته ٤٠٠٠ هكتار من الأراضي الزراعية حول شنغهاي ووضعوها تحت سلطتهم بحجة «الاستيطان» وبحلول عام ١٩٣٠م كانت الدول الأجنبية الاستعمارية تحكم المناطق الأجنبية في داخل المدينة. ولقد تمتعوا بمكانة تجاوزت الحدود، بمعنى أنهم ومؤسساتهم لم يخضعوا للقانون الصيني، في حين اقتلع الفلاحون الصينيون من ديارهم واخرجوا منها.

دخول الإسلام إلى شنغهاي :

في أيام أسرتي تانغ وسونغ الملكيتين توافد التجار المسلمون من بلاد العرب والبلاد الفارسية إلى قوانغتشو وفوجيان بحراً وربما وصل بعضهم إلى شنغهاي التي كانت تابعة لمحافظة هواتينغ التي وصفها أحد السجلات التاريخية بأنها «محافظة ضخمة مشهورة بسهولة مواصلاتها براً وبحراً في ساحل جنوب الصين الشرقي، يتسابق إليها كبار الأثرياء والتجار العرب والفرس».

ومع تطور الصيد وصناعة الملح صارت المحافظة بالتدريج مجمعا من التجار العرب والفرس ومعرضاً للمواد المختلفة والبضائع الزاخرة.

ومنذ أسرة يوان (١٢٧١-١٣٦٨) تدفق حسب السجلات التاريخية عدد كبير من المسلمين إلى شنغهاي التي كانت مثل كثير من الموانيء في الجنوب الشرقي وصارت غاصة بالأعيان من المغول وأهل الشام ورجال الدين والتجار الأوروبيين والآسيويين.

وفي عام ١٢٧٧م زحف المغول إلى جنوب نهر اليانغتسي وقد جاءوا بكثير من أهل الشام فطاب لهم المقام.


مقبرة اسلامية في شنغهاي

وفي عام ١٢٩٥م عين رجل من أهل الشام اسمه ناصر الدين في منصب مرموق في المحافظة فجاء ومعه ٣٠ ألف شخص من قبيلته.

وفيما بين عام ١٣٤١ وعام ١٣٦٧م بنى مسجد

في المحافظة يصلي فيه أهل الشام كما يزوره التجار الآسيويون والأوربيون، وظهر بجانبه مقبرة إسلامية واسعة. وبهذا يمكن القول ان الإسلام دخل شنغهاي في تلك الفترة.

المسلمون في شنغهاي:

في عهد أسرة مينغ وأسرة تشينغ، استقر المسلمون من البلدان الخارجية في مدينة شنغهاي. فقد اكتشف في قبر قديم قطعة مستديرة دقيقة من اليشم منحوت عليها «لا إله إلا الله محمد رسول الله» باللغة العربية. كان بعض المسلمين يعلقونها على صدورهم.

وفي عام ١٨٤٠م جاء تجار مسلمون بخيل إلى شنغهاي من الشمال الشرقي حيث استقروا لترويض الخيول خدمة للمشترين الأجانب وبنوا مسجداً بعد زمن قصير.

وفي عام ١٨٥٠ غادر مسلمو نانكين إلى شنغهاي هروباً من الحروب والفتن واختاروا منطقة في جنوبي المدينة للاستقرار فيها وبنوا فيها مسجداً، وبعد ١١ سنة من ذلك ظهرت أول مقبرة للمسلمين في مدينة شنغهاي.

نظام التعليم:

كان الاسلوب القديم لدراسة التعاليم الإسلامية متمثلاً في التلاوة بالمسجد والنسخ والحفظ بالبيت. ومنذ القرن التاسع عشر ظهر في شنغهاي نظامان للتعليم الإسلامي أحدهما تتبعه المساجد التي تقبل عدداً من التلاميذ لدراسة «القرآن» الكريم و«الحديث النبوي» على يد الائمة واللغة العربية والفارسية درسهم الأساسي. والنظام

الثاني ساد المدارس الإسلامية التي انشئت في بكين وشنغهاي وشاندونغ في حركة اصلاح نظام التعليم الإسلامي بالصين. وقد ولدت مدرسة التعليم الإسلامي بشنغهاي عام ١٩٢٨ لاعداد أئمة بارعين في اللغة العربية والصينية. فلم تقتصر على دروس الدين الإسلامي فحسب بل اشتملت على المعارف الثقافية والعلوم الأساسية أيضاً، فأزالت بهذا قصور النظام الأول وقد أرسلت ستة من طلبتها إلى الجامعة الأزهرية منهم محمد مكين الذي أصبح استاذاً مشهوراً في جامعة بكين.

وفي عام ١٩١٤ اقيمت الأكاديمية الإسلامية الصينية في شنغهاي ولها أثر عظيم في ترجمة معاني «القرآن الكريم» إلى الصينية وإدارة مدارس اللغة العربية ومدارس التعليم الإسلامي وإصلاح التعليم الديني. وفي عام ١٩٢٩ انشئت جمعية الإسلام الصينية في شنغهاي لإعداد الأئمة وإدارة المدارس.

ومع إصلاح وتطوير التعليم الإسلامي نشرت في شنغهاي كتب عن تعاليم الإسلام وتاريخه ومواد تدريسية للغة العربية وأكثر من ١٠ صحف ومجلات كما أقيمت (٢٠) مدرسة متوسطة وابتدائية إسلامية ومنذ عام ١٩٦٢م وفرع شنغهاي للجمعية الإسلامية الصينية يساعد الحكومة في تنفيذ سياسة مساواة القوميات وحرية


النساء يصلين صلاة العيد في مسجد تايوانغ بشنغهاي

الاعتقــاد الدينــي ويستنهض المسلمين على البناء الاقتصادي ويبلغ الحكومة آراءهم وطلباتهم وينظم رجال الدين في الدراسة السياسية والبحوث العلمية للتعاليم الإسلامية والمعلومات التاريخية ويقيم الاحتفالات الدينية ويبادل الاتصالات الودية مع المسلمين في بلدان العالم لزيادة التفاهم وتعزيز الصداقة .

إلى محافظة تونغ يانغ:

والقصد من زيارتها رؤية مسجد تاريخي قديم فيها وهو مسجد خربه الشيوعيون في زمن (ماو تسي تونغ) حين حولوه إلى مصنع واستعاده المسلمون منهم قبل فترة قصيرة ولكنهم استعادوه وهو يكاد يكون خراباً يبابا إلا بقايا من قسم فيه بني على الطراز العربي. كما أخبرونا .

ويبعد عن مدينة شنغهاي بخمسة واربعين كيلومتراً .

غادر الموكب فندقنا في (شنغهاي) في الساعة الثامنة صباحاً تتقدمه السيارة الرسمية كالمعتاد ويتألف من عدد من السيارات . واخترق شوارع المدينة التي قل فيها المارة لأنهم قد بدأوا أعمالهم في هذه الساعة من الصباح . وأما السيارات وبخاصة الحافلات فإنها كثـيرة نسبياً . ومررنا بمنطقة سكنية جيدة .



وفد الرابطة في مسجد تونغ يانغ

مثلها في ذلك مثل أكثر الضواحي في المدينة وهي على جودتها تكاد تكون مهملة من الترميم أو الاصلاح، لأن الفقر أو رقة الحال هو الغالب على الجميع في الصين. إضافة إلى ان بعض المساكن قد استولت عليها الحكومة من أهلها إذا كانوا يملكون غيرها أو توفي عنها مالكها ولاذرية له.

رمز الصداقة بين العرب والصين :

كان معي في السيارة الأخ رئيس الجمعية الإسلامية في منطقة شنغهاي الحاج (إبراهيم مارينغ ينغ) فكان يحدثني من أمر هذا المسجد ماحدثني بمثله غيره أو بما يقرب من ذلك عن تاريخه. قال: لقد بني هذا المسجد قبل ستمائة سنة في بداية تشكل قومية (خوي) التي تعني المسلمين القدماء الذين يتكلمون الصينية وينتمون بأصولهم إلى العرب والترك والفرس ولكنهم انصهروا في جماعة واحدة يتزاوج أفرادها فيما بينهم. ويشملهم اسم واحد هو اسم (خوي) الذي قلت: إنه ربما كان مشتقاً من كلمة الأخوة العربية وان الكلمة هي كلمة (أخوي) بمعنى مؤاخٍ.

وقال: إن هذا المسجد هو من أقدم المساجد في المناطق الجنوبية في الصين. وفي ذلك الزمن كان المسلمون كثرة في منطقة (تونغ يانغ) التي يقع فيها المسجد.

ولذلك اتفقوا على ان الذي بنى المسجد هو شخص اسمه العربي (نصر الدين) كان بمثابة القائد للمسلمين في هذه المنطقة، وله اسم آخر هو (بالو فاج) قيل إن هذا الاسم من اللغة المغولية، وقيل غير ذلك.

وكما اختلفوا في أصل اسمه اختلفوا في أصله فمن قائل : إنه عربي الأصل ومن أولئك رفيقنا الحاج إبراهيم مارينغ ينغ .

ولكن الشيء الذي لم يختلفوا فيه قولهم : إن هذا المسجد بني ليكون رمزاً للصداقة مابين العرب والصينيين لأن بعضه مبني على الطراز العربي مثل مسجد مشهور في الشام لم يعرفوا اسمه، وبعضه على طراز صيني تقليدي .

وعلى أية حال سوف أصف ما أرى في المسجد عندما أراه .

وجاملنا الأخ الحاج إبراهيم مارينغ رئيس الجمعية الإسلامية في شنغهاي فقال : وها نحن نراك الآن تزور الصين، وتزور هذا المسجد بالذات الذي هو رمز للصداقة مابين العرب والصينيين فستكون زيارتك والوفد المرافق لك عاملاً جديداً على تعزيز الصداقة مابين العرب وأهل الصين .

فقلت له : إنه يسرني ان يكون الأمر كما ذكرته فالصداقة مع أهل الصين أمر مهم ينبغي الحرص عليه. غير ان مجيئنا هنا هو لتعزيز العلاقة مابين المسلمين في العالم الذين تمثلهم رابطة العالم الإسلامي وبين المسلمين في الصين .

في ريف شنغهاي :

أمضينا نصف ساعة وسياراتنا تسير في داخل مدينة شنغهاي الكبيرة ثم خرجنا إلى الريف وطبيعي أن هذه الدقائق الثلاثين ليست هي كل مايلزم المرء لاختراق المدينة ولكنها التي أوصلتنا من فندقنا إلى خارجها .

وجدنا ريف شنغهاي أخضر خضرة مطبقة ولا أثر فيه للبرد أو الجفاف أو لشيء مما يقرب من ذلك. كما هي عليه الحال في شمال الصين.

وأخبرونا ان الخضرة هذه تدوم في أكثر شهور السنة.

ورأينا مساكن الفلاحين في الريف هنا أحسن حالاً منها في شمال الصين لأنها هنا تبنى في الغالب من الأخشاب أو من الآجر وسقوفها مسنمة وقال الأخ الحاج إبراهيم: إن مساكن الفلاحين هنا جيدة، وليست كما هي عليه الحال في مساكن المدينة التي هي ضيقة بطبيعتها.

وقال: إنك في الريف تكاد تعرف عدد الأسرة وكثرة الأطفال وقلتهم من شكل البيت ومن إتساعه وضيقه، وذلك أنهم كلما زاد عدد أفراد الأسرة وسعوا مساحة البيت بخلاف المدينة فإن الأسرة يزيد عددها ولكن لاسبيل لها إلى توسيع مسكنها أو زيادة غرفه.

فقلت له ولكن إذا طبقت حكومة الصين قانونها الحالي الذي يحدد الانجاب بطفل واحد للأسرة الواحدة فإنه لن يكون هناك فرق كبير بين أعداد الأسر في الصين فقال: هذا صحيح.

وسار الموكب في هذا الريف الأخضر وأكثر ماتقع عليه العين فيه بهيج ما عدا منظر البيوت التي هي كلها ذات مظهر رمادي بسبب افتقارها إلى تجديد طلائها.

وقد تقول: ماالسبب في ذلك؟ فأقول لك ماسبق أن قلته بالإشارة أو بصريح العبارة: إنه ماقاله المثل العربي القديم: حال الجريض، دون القريض... وقد أخبرونا ان الناس الآن بدأوا يخرجون للريف للسكنى فيه إذا تيسر لهم ذلك.

وقد سألني بعضهم في عديد من المناسبات عن شوارع الرياض،

هل هي تضيق بالناس وبالسيارات فأخبرتهم ان الناس لدينا ليسوا بالكثرة التي هم عليها في مدن الصين بطبيعة الحال والسيارات كثيرة عندنا إلى حد لايستطيعون تصوره بسبب قلتها في بلادهم. . ولكن الشوارع الرئيسية في الرياض واسعة جداً ثم ذكرت لهم سعة بعضها وان عرضها يصل إلى ثمانين متراً مثل الشارع القريب من بيت لي جديد هناك فيعجبون من ذلك ولا يكادون يصدقون، ولم أخبرهم بما لدينا من السيارات لئلا يظنوا ان ذلك من باب التباهي أو التفاخر، وربما لايفهمون إذا ذكرت لهم أنني أفعل ذلك من باب التحدث بنعمة الله- وهم يعجبون من وجود ضواح في مدننا تصل إليها المرافق العامة بسرعة كالكهرباء والماء والهاتف.

أرض الأنهار والقنوات:

يصح وصف هذا الريف في هذه المنطقة بأنه أرض المياه لما يوجد فيه من الأنهار والقنوات والمياه التي قل ان يوجد لها مثيل في غير الأقطار الاستوائية.

وذلك كله وفق تنظيم شامل كامل بحيث صارت هذه القنوات اشبه ماتكون بالشبكة الكاملة التي تستمد مياهها من الأنهار وماتفرع منها، ولاتتأثر بتأخر الأمطار.

وبعض القنوات من السعة وكثرة المياه، بحيث تسير فيها القوارب التي تحمل الأثقال فضلاً عن قوارب الركوب الصغيرة.

ومن العجب أنني رأيت قناة أخرى تسير فيها السفن وقد أخبرونا أنهم قد شقوها من نهر (هوانغ بو).

ومع ذلك فإنهم لم يكتفوا بالقنوات التي شقوها في الأرض، وإنما

اسالوا منها المياه في أنابيب تحت الأرض لتصل إلى المزارع الصغيرة البعيدة عنها والأرض كلها مزروعة بحيث لا تكاد ترى بقعة خالية من الزرع ولو كانت صغيرة.

وذلك كله في منظر أخضر بهيج لا أثر فيه للبرد أو الجفاف إلا انك واجد مايكدر هذا المنظر من شقاء الآدميين من ذلك أنني رأيت أناساً يمتطون الدراجات الهوائية ويحملون وراءهم أشياءهم الثقيلة وهم لايكادون يستطيعون إدارة عجلات الدراجة لثقلها.

ورأيت فلاحاً يجر عربة يدوية محملة وتساعده أمرأته على ذلك بدفع العربة من الخلف .

أما الطريق فإنه ازفلتي لايتسع لأكثر من سيارتين متقابلتين وحالته جيدة ما عدا بعض المواضع فيه التي تحتاج إلى ترميم.

والزراعة المحلية هنا مختلطة فهناك القمح الذي رأيناه قد أخرج سنبله وذلك وقت متأخر عن هذه المرحلة من عمر القمح في بلادنا بأكثر من شهر.

كما رأيناهم قد بدأوا في زراعة الأرز، وان كان أكثره يزرع عندهم بعد حصاد القمح .

واخترق الطريق نهراً فسألتهم عن اسمه؟ فقالوا: إنهم لايعرفون له اسماً وإنما هو نهر صغير لايستحق منهم ان يبحثوا عن اسمه مع انه أكبر من نهر بردى في دمشق عندما يمتليء بمياه الأمطار بكثير، غير ان كثرة الأنهار والمياه عندهم جعلتهم لايهتمون بأمثاله الاهتمام الذي يكون بمثله في البلاد الجافة أو غير المطيرة. وعلى ذكر المزروعات فقد سألتهم عن الطعام الرئيسي للناس هنا؟ فقالوا : إنه الأرز، بخلاف أهل الشمال فإن الطعام الرئيسي عندهم هو القمح.

ومن مظاهر اعتدال الجو هنا ان المزارع المحمية وهي بيوت من اللدائن نادرة جداً بخلاف ماعليه الأمر في الشمال حيث انها هي المظهر المميز للمزروعات وبخاصة منها الخضروات والأرز في أول نباته لتقيه من تأثير البرد الشديد في الربيع .

ومن المناظر البهيجة هنا منظر زهور برية أو ان شئت قلت: وحشية بمعنى أنها نابتة من دون استزراع وبعضها أصفر، وبعضها أرجواني. وهي تنبت على حواشي الأحواض في الحقول، وذلك لأننا الآن في أواخر فصل الربيع في هذه المنطقة .

وسار الموكب يتخطى القنوات الكبيرة ونراها يمنة ويسرة كما نرى القنوات الصغيرة المفعمة بالمياه منتشرة في كل اتجاه، وقد كان عجبي يزداد من كثرة هذه القنوات ومن اتساع بعضها حتى إنني كنت أرى المراكب تسير فيها وهي محملة بالأشياء الثقيلة مثل الفحم الحجري والطين الذي لا أدري الغرض من حمله .

في مدينة تونغ يانغ :

مدينة (تونغ يانغ) هي مركز محافظة مسماة باسمها عندما وصلنا إلى حدود هذه المحافظة استقبلتنا سيارتان رسميتان من الادارة المحلية الحكومية في المحافظة من باب التكريم وتقدمتا الموكب .

وفي ريف هذه المحافظة يلاحظ المرء عدم وجود المنازل الطينية الموجودة في شمال الصين ربما كان ذلك بسبب الرطوبة وكثرة المياه .

ومن المناظر التي تكررت منظر الجواميس المربوطة في جذوع الأشجار الضخمة الموجودة على الطريق .

ودخلنا مدينة (تونغ يانغ) مع شارع رئيسي تحف به (عمارات)

سكنية حكومية متعددة الطوابق، جيدة المظهر، وشارعها الرئيسي هذا واسع منظم.

ثم عطف الموكب جهة اليمين من الشارع الرئيسي حيث وصلنا إلى مبنى المحافظة وقد استقبل الوفد في قاعة الضيافة في المدينة:

١- سنغ يوسن - رئيس المجلس الاستشاري لمحافظة تونغ يانغ.

٢- السيد على مي فانغ جي نائب رئيس المجلس الاستشاري للمحافظة.

٣- السيد محمد على سانغ يوفونغ عضو المجلس الاستشاري للمحافظة.

٤- السيد محمد يوسف وانغ جنغ جي عضو مجلس النواب للمحافظة.

وقد رحب السيد على مي فانغ جي في كلمته بوفد الرابطة وتحدث عن مدينة تونغ يانغ بأنها مدينة قديمة يرجع تاريخها إلى ٢٧٠٠ سنة تقريباً وتبلغ مساحة المحافظة ٦٠٠ كيلومتر مربع تتبعها ١٩ قرية ويبلغ سكان المحافظة ٤٧٠ ألف نسمة يعيش ٨٠٪ منهم في الأرياف حيث يزاولون زراعة القمح والأرز والقطن وسائر الخضروات، كما توجد في المدينة الصناعات الحديثة وأهمها مصنع لآلات التصوير.

وفي المدينة آثار كثيرة أهمها مسجد تونغ يانغ الذي يرجع تاريخه إلى عام ١٣٤١م وهو مبني بالطرازين الصيني والعربي.

المسلمون في المحافظة:

من خلال الأحاديث المتكررة التي دارت بيننا في المجلس سواءً أكانت خاصة أم عامة يمكن تلخيص حالة المسلمين في محافظة (تونغ يانغ) بأنهم كانوا كثرة في القديم ولكنهم الآن قلوا، لأنهم هاجروا منها

إلى أماكن أخرى - كما عبروا عن ذلك.

ويبلغ عددهم فيها في الوقت الحاضر سبعاً وستين أسرة تؤلف مايزيد قليلاً عن مائتي نسمة.

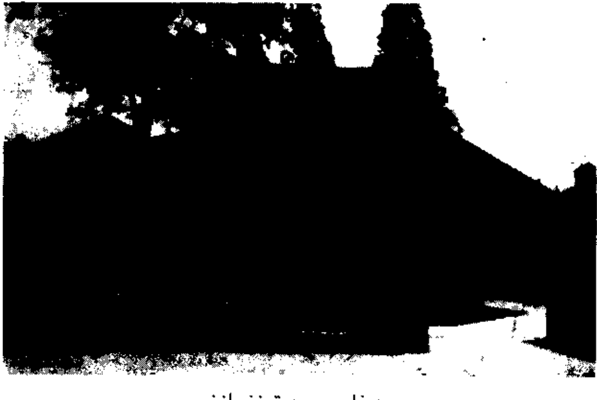
مدينة الخواتين ومسجدها القديم:

أخبرونا بأن المسجد بني في عام ١٣٤١م أي: قبل مايزيد على ستمائة سنة وقالوا: إن جزءاً منه بني على طراز عربي أصيل يوجد مثيل له في دمشق وفي مكة المكرمة وان هذا دليل على كثرة المسلمين وقوتهم في ذلك الوقت في المدينة.

فسألتهم عن اسمها القديم مادام الأمر كذلك؟ فأجابوا: إنها كانت تسمى: (خوا تين).

فقلت لهم: إنني قد قرأت مايؤيد كلامكم إذا كان مافهمته صحيحاً لأن أحدهم وربما كان الرحالة ابن بطوطة قد ذكر مدينة (الخواتين) في الصين.

مسجد تونغ يانغ التاريخي



مدخل مسجد تونغ يانغ

ولعلها هي هذه (خواتن) أدخل عليها « ال » التعريفية. على أنني غير متأكد من ذلك.

في جامع تونغ يانغ:

بعد الاستقبال الحافل في المحافظة الحكومية سار الموكب منضماً إليه سيارات محلية إضافية لرؤية المسجد الجامع. وقد اخترق شارعاً تجارياً بمعنى ان عليه حوانيت متلاصقة، رغم كونه ضيقاً لأنه قديم وكلها أو أكثرها تملكه الدولة، وأكثرها ذو مظهر جيد تبعاً للمظهر العام الجيد الموجود في البلدة. وأكثر مافي هذا الشارع الدراجات واقفة لعدم وجود السيارات الخاصة.

وأما الناس الموجودون في هذا الشارع التجاري بخاصة وفي المدينة عامة فإنهم الصينيون الأصلاء وقد سبق أن شرحنا مايعرف به الصيني الأصيل من المظهر.

ثم عطفنا من هذا الشارع التجاري إلى زقاق ضيق لم تكد السيارات تدخل منه لضيقه وهو خالٍ من الازفلت بخلاف الشارع العام الذي هو مزفلت زفلتة جيدة.

ويقع في المدينة القديمة وعليه بيوت ذات مظهر قديم مبنية على الطراز الصيني الخالص وهي من الآجر الذي تركبه سقوف شبه مسنمة ولكنها مسترخية أي: غير مشدودة كما تكون عليه المنازل المسنمة السقوف في المعتاد.

عندما وصلنا المسجد كان أول من استقبلنا الأخ الحاج (عبدالله شانغ يانغ تشن) مدير مكتب ترميم الجامع، وعلى الأدق إعادة بنائه فأكثره يحتاج إلى إعادة البناء لأنه قديم وقد خرب أكثره.

والأخ الحاج عبدالله يعمل الآن متفرغاً لتعمير المسجد وهو من أهل شنغهاي ولكنه جاء إلى (تونغ يانغ) لهذا الغرض. وهو متحمس له، بل إن عمله في المسجد ملك عليه مشاعره كلها.

ابتدرنا عندما قابلناه بالترحيب الحار ثم بشرح حال هذا المسجد وقال: إنه أهم المساجد القديمة في جنوب نهر (يانغ تسي).

وقال: مع ذلك لم نستعد هذا المسجد إلا منذ عهد قريب فقد كانت الحكومة قدصادرته إبان الثورة الثقافية وحولته إلى مصنع للمصابيح الكهربائية ولكننا استعدناه بمعاونة من حكومة (شنغهاي) وبسعي حثيث من الجمعية الإسلامية في شنغهاي، وذلك إضافة إلى مساع من زعماء المسلمين عامة. وكان ذلك قبل عيد الأضحى الماضي بل كان في يوم عرفات بالتحديد. وقال: إننا نحرص الآن على إعادة القسم الصيني المتمثل بالمدخل إلى هيئته الأصلية وهو أمر صعب ربما لايقل صعوبة عن بناء مدخل جديد على طراز حديث وكذلك نريد ترميم مقدمة المسجد ذات الطراز العربي كما كانت عليه من قبل.

وقال: إن التخطيط الهندسي لإعادة المسجد كما هو عليه أمر يحتاج إلى وقت حتى إن المهندسين الذين يعملون معنا يقولون: إن ذلك لن يتم قبل شهرين من الآن لأننا نريد ان يشمل ذلك حتى النقوش الأصلية.

ثم قال: الواقع ان زيارتكم هذه سببت لنا مزيداً من عواطف عجيبة هي مزيج من الفرح والارتياح والفأل الحسن بأن المسجد ستتم عمارته على الوجه المطلوب.

وقال: لقد وجدنا المسجد في الحقيقة مكسراً، بل ان أجزاء منه خربة لأنه كان قد استعمل عدة سنوات مقراً لمصنع للمصابيح

الكهربائية كما قدمت ولذلك نحن قمنا بأعمال عديدة في تعميره حتى الآن.

ثم تحدث عن تاريخ المسجد فقال: إن بناءه قد بدأ بأيدي إخواننا العرب في عام ١٣٤١م وانتهى في عام ١٣٦٨م. وقال: إن العرب الذين قاموا على بنائه كانوا من الذين جاءوا إلى الصين لغرض التجارة، ولكنهم لم ينسوا واجبهم الديني.

وبانيه منهم المسمى (نصر الدين) وهو مدفون في منزل مجاور للمسجد قد أدخل في المسجد في تاريخ لاحق عندما جرت توسعة المسجد.

وقال: إن زيارة وفد الرابطة هذه للمسجد لها معانٍ كثيرة ونرجو ان نتعاون في المستقبل.

وقال: لقد وجدنا في المسجد لوحات تبين انه قد رمم خمس مرات في التاريخ منها واحدة تمت قبل ثلثمائة سنة وآخر مرة كانت في عام ١٨٥٠م. وبعض المرات تمت في عهد أسر حاكمة لانستطيع تحديد زمنها بسهولة، لأن الصينيين كما تعرفون يؤرخون بسني الأسر الحاكمة وقد رددت عليه بكلمة بينت لهم فيها ان الرابطة مستعدة معهم للمساعدة على ترميم هذا المسجد خاصة والمساجد الأخرى المحتاجة بصفة عامة، وأننا نستطيع ان نقدم مبلغاً رمزياً من المال في الوقت الحاضر وسوف نرسل إليهم في المستقبل مبلغاً مجزياً بإذن الله ونحن نعتبر ان هذا ليس مساعدة من الرابطة وإنما هو واجب مفروض علينا أداؤه لأن هدفكم من تعمير هذا المسجد هو هدفنا في الحقيقة فكلنا نرجو ان يعود هذا البيت من بيوت الله كما كان في الماضي شاهداً على التعاون مابين المسلمين فى الصين وإخوتهم المسلمين في الخارج، بل انه سيكون رمزاً ثقافياً واضحاً للعلاقات الثقافية المتينة مابين المسلمين في

خارج الصين وبين أهالي الصين بصفة عامة.

وبعد ان قدموا لنا الشاي الصيني المعتاد الذي هو عندهم بمثابة القهوة في بلادنا السعودية لابد من تقديمها للضيوف، صحبناهم في جولة في أنحاء المسجد فكان يتألف من قسمين رئيسيين ولكنهما متصلان الأول منهما وهو الأمامي بني على الطراز العربي بالآجر المعقود تركبه قبة عربية الطراز تحتها المحراب، ولاتحمل القبة أية أعمدة بل قائمة بالآجر المعقود وفق صنعةمحكمة صمدت للقرون. والثاني هو المسجد الرئيسي أو المصلى وهو مبني على الطراز الصيني القائم على أعمدة من الأخشاب الضخمة ومسقف بالأخشاب المخروطة التي يفرط النقاشون في نقشها بل خرطها وتزويقها.

وبجانب المسجد من الجهة الجنوبية قبور قديمة في فناء مكشوف منفصل عن المسجد. بعد أبنية وملحقات للمسجد كانت تستعمل بمثابة المنازل للأمام والمؤذن وبعض العاملين في المسجد على العادة المتبعة في المساجد الرئيسية القديمة في الصين.

وفي جهة من الفناء وقفنا على قبر باني المسجد (نصر الدين) ولم نعرف بقية اسمه نسلم عليه السلام المشروع على المقبور. ودعونا له بالمغفرة والرضوان وجزيل المثوبة على عمله هذا العظيم الخالد.

وعليه كتابة سألناهم عن تاريخ وفاته فأجابوا: بأنه توفي في أواخر أسرة (مينغ) وأوائل أسرة تشنغ وأنهم لايستطيعون الآن تحديد ذلك التاريخ لأنه يحتاج إلى حساب.

وقد نبتت على القبر الذي كان مرتفعاً عن الأرض بنحو الذراع وهو ذو سطح مستو قد نبتت عليه شجرة خضراء ظليلة. وفي ركن منه نبتت شجرة عنب رأيناها مزدهرة.

وقد رافقنا في الجولة على المسجد عدد من الرسميين من المسلمين وغيرهم وكذلك رافقتنا مهندسة صينية غير مسلمة هي التي عهدوا إليها بالعمل الرئيسي في التخطيط لإعادة المسجد على ماكان عليه في السابق.

وفي نهاية الجولة كانت جلسة في المكتب الرئيسي الذي هو بجانب المسجد فحدثونا بالمزيد من أمره وقالوا: انهم لن يكتفوا بإعادة المسجد على ماهو عليه وإنما قرروا ان يزيدوا في مساحة مرافقه وملاحقه ومن ذلك انهم استملكوا هذه البيوت المجاورة القديمة وأشاروا إليها وتقع في الجهة الجنوبية الغربية من المسجد. وقد دفعوا تعويضاً لأهلها مائتي ألف ين. وأهلها من المسلمين الذين كانوا يسكنون بجانب المسجد.

وقالوا: انهم جمعوا حتى الآن ثلاثين ألف ين من تبرعات المسلمين واعطتهم الجمعية الإسلامية المركزية عشرين ألف ين مساعدة على اصلاح المسجد، وقد همس في أذني أحد الاخوة الصينيين المرافقين قائلاً: إنها من المبلغ الذي سبق ان قدمته الرابطة إلينا والبالغ قدره خمسمائة ألف دولار أمريكي وزعناه على المشروعات الإسلامية في سائر أنحاء الصين.

وقالوا ان المبلغ المقدر لاكمال المشروع هو مليون ين، وانهم لكبيرو الأمل في المساعدة للحصول عليه.

بحيرة السكران:

بعد الانتهاء من زيارة هذا المسجد التاريخي العظيم كان البرنامج يشتمل على زيارة حديقة قديمة في البلدة معنى اسمها في اللغة الصينية (بحيرة السكران) قالوا: إنها سميت على اسم شاعر صيني مشهور يلقب بالسكران توفي في عام ١٦٥٢م.

وقالوا: ان هذه الحديقة أثرية أيضاً فقد بدأ أول انشائها منذ خمسمائة سنة في أسرة (مينغ).

بدأنا زيارتها بتفقد قسم منها في غرف وأبهاء أشبه بالمتحف كان من أهم مافيه عندهم رسوم لكبار رجال المنطقة، منذ أكثر من مائتي سنة.

ومن الأشياء التي استرعت انتباهي فيها نماذج للخط الصيني كتبت قبل خمسمائة سنة وتتضمن أشعاراً من ذلك التاريخ ولم يستطع المترجم الأستاذ (صالح) الذي كان قريباً مني وهو يعرف قدراً من العربية ان يفهمها وقال: إنها من الشعر المنظوم بلغة ذلك العصر ولا استطيع فهمه.

وقد كنت لاحظت ان المرافقين الذين كانوا معنا كلهم من شمال الصين يصعب عليهم التفاهم مع عامة الناس الذين يسكنون في جنوب الصين فاللغة برغم كونها صينية في الجميع إلا انها تختلف في الجنوب عنها في الشمال بحيث لايكاد بعضهم يفهم كلام بعض.

وكل الأبنية الموجودة في الحديقة أو المتاحف التابعة لها هي من الخشب على الطراز الصيني القديم مع أنها أبنية كثيرة ومتسعة، ولكن هذا كان هو طراز البناء عندهم حتى القصور كانوا يبنونها بالأخشاب غيرانهم يزوقونها ويزخرفونها بالطلاء حتى لايعرف الناظر إليها أنها من الخشب إلا بعد ان يخبره مخبر بذلك.

ثم جلنا بصحبة كبار القوم من رسميين وغيرهم على الحديقة نفسها وهي غريبة حقاً بل فيها ماهو عجيب قل ان يوجد له نظير في الحدائق الأخرى في العالم.

ومن ذلك بعض الآصص وهي الأوعية التي تستنبت فيها الزهور وغيرها من النباتات تاريخية قديمة بحيث يرقى تاريخها إلى

خمسمائة سنة مضت وهذا أمر عجيب ولكنهم اتفقوا على ذكره.

وقالوا إنهم يغيرون التربة التي في داخلها كل ثلاث سنين.

ومن لطيف مافيها مما هو باق من العصور القديمة أو ان فخارية كبيرة جداً مليئة بالماء كانوا يعدونها كذلك في الزمن القديم لسقي أشجار الحديقة قبل ان يعرف الناس إسالة المياه في الأنابيب. وقد استعملوها الآن لزراعة زهرة اللوتس.

المردة في القماقم:

من أغرب ما رأيت فيها مما لم أر له مثيلاً في أنحاء العالم وأشك في أنه يوجد له مثيل أشجار معمرة قد غرسوها داخل زهريات حجرية أو آصص فخارية وهي من الأشجار التي تعظم في العادة.. إلا انهم لم يسمحوا لها بأن تكون كذلك فهم يقطعون مايخرج منها ماعدا جذوعها وشيئاً قليلاً من أغصانها وأوراقها التي لاتخرج عن حجم الأزهار الكبيرة في الأصص المعتادة وأخبرونا أن أعمار بعض هذه الأشجار تزيد على مائة عام.

ومنها على سبيل المثال شجر الصنوبر الذي لايزيد ارتفاعه على شبر، وكذلك البامبو الذي يطول عادة ويرتفع في السماء. رأيناه هنا رغم طول عمره لايزيد ارتفاعه على شبر أيضاً.

وكلها غليظة الأعجاز قصيرة القوام، بحيث تبدو في مغارسها الضيقة كالمردة المحبوسة في القماقم. وقد غلظت أعجازها بشكل ملفت للنظر حتى بدت كأعجاز ذوي البدانة من الأقزام.

وأرونا بعد ذلك نماذج تطريز الحرير على الطريقة الصينية التقليدية القديمة، وهو عمل دقيق يستغرق وقتاً طويلاً.

وفي ختام زيارة هذه الحديقة أخبرونا أنها كانت منذ تأسيسها الأول حديقة خاصة غير أنها أصبحت عامة بعد الثورة الشيوعية ويسمونها هنا التحرير وذلك في عام ١٩٥٨م.

جولة في مدينة تونغ يانغ :

سار الموكب في جولة في المدينة لم تكن مقررة في البرنامج ولكنني طلبت منهم ذلك لرؤية بقية المدينة وبخاصة القسم القديم منها غير أنهم لم يمانعوا ولم يستجيبوا وإنما جعلونا نجول جولة في الأجزاء الحديثة من المدينة لأن القديم منها ضيق الأزقة وذو مظهر لايحبون أن يراه الغريب.

وقد بدت المدينة ذات قنوات مائية متعددة بل ان في بعض أجزائها تجمعات للمياه بحيث ذكرتني ببعض المناطق الاستوائية التي تكثر فيها المستنقعات والمياه.

أما هذه فإن تجمعات المياه فيها نظيفة.

وقد مررنا بمطعم إسلامي كتب عليه اسمه باللغة العربية هكذا : « هذا طعام الإسلامية » والكتابة على المطعم هنا رمزية تدل على ان فيه طعاماً من طعام المسلمين وإلا فإنه لايوجد من يقرأ هذه العبارة فضلاً عن أن يفهمها وهذا من تأثير الدين الإسلامي على اللغة وتعلق أهله به.

وعامة الناس من أهل المدينة يبدون في حال حسنة من حيث المظهر سواء في اللباس وفي المظاهر الأخرى. وعندما سألت مرافقي عن سبب ذلك؟ قالوا: إنه من أجل صغر المدينة فآخر إحصاء للسكان فيها هو انهم ثمانية وستون ألف نسمة. ومجموع سكان محافظة (تونغ يانغ) التي هي مركز إدارتها أربعمائة وسبعون ألف نسمة.

ومن هنا نرى أن الصينيين الذين يتميزون بكثرة العدد، وتتميز مدنهم الكبيرة الكثيرة بالزحام يعدون من مزايا المدن أو المحافظات أن تكون قليلة السكان.

وأرونا من معالم المدينة برجاً مربعاً قالوا: إنه الوحيد في الصين الذي بني على هذا الشكل في القديم لأن الأبراج التاريخية في الصين كانت تبنى مستديرة ولا تبنى مربعة.

وقد بالغوا في تاريخ بناء هذا البرج إذ قالوا: إنه بني قبل تسعمائة سنة. وهو مبني من الآجر والخشب ولكن بدون مسامير. ولقد تكرر قولهم في عدد من الأبنية الخشبية وأنها خالية من المسامير لأن ذلك من علامة المهارة عندهم إذ يداخلون الأخشاب بعضها ببعض بواسطة أجزاء من الأخشاب نفسها فذلك أبقى لها وأطول لأعمارها. وفي الوقت نفسه أجمل لمنظرها حيث تبدو أجزاؤها في كثير من الأحيان كأنها جزء واحد.

العودة إلى شنغهاي:

بدأنا العودة إلى مدينة شنغهاي في الساعة الثانية عشرة وكان ذلك مع طريق واسع غير الطريق الذي جئنا منه.

وقد رأيتهم لايزالون يعملون في هذا الطريق الواسع الذي ظهر أن أصله كان طريقاً قديماً ضيقاً يوسعونه الآن.

وتحف به أشجار جيدة معتنى بها. وزفلتته ممتازة قالوا: لأنها حديثة ولم أجد فرقاً فيما رأيته من الريف في الطريقين. فكلاهما يتميز بالخضرة الشاملة الجيدة. ويبدو ريفاً جميلاً غارقاً في المياه ولكن وفق نظام ينفع الزراعة ولا يضر الأرض بشيء.

وقال لنا المرافقون: إن الصينيين يقولون: إن الجنوب ويقصدون به ماكان جنوب نهر (يانغ تسي) هو موطن الأرز والسمك.

وقد أخبروني ان ريف (شنغهاي) كله هكذا أخضر وأن الشاي يزرع في بعض المناطق فيه.

مغادرة شنغهاي:

تركنا فندق (جيانغ جانغ) في الخامسة والربع عصراً إلى مطار شنغهاي حيث ودعنا الأخوة الكرام من أهل شنغهاي والرسميين الذين كانوا معنا من غيرهم.

وقد تكرر التدقيق على جوازات سفرنا ومقارنة الصورة في الجواز على وجه صاحبها مع أننا وفد رسمي معنا جماعة من الموظفين المعروفين وكذلك كانوا يختمون على ورقة يضعونها على الحقيبة اليدوية ولايسمح لمسافر باستصحاب حقيبته اليدوية إلى قاعة المغادرة إلا إذا كانت مختومة بذلك الختم.

وفي السابعة إلا ثلثاً كانت الطائرة تغادر مطار شنغهاي والشمس تغرب، وقنوات شنغهاي تمتد إلى مالانهاية في المنظر مستقيمة مترعة بالمياه، ونهر (هوانغ بو) ينساب مزهواً بأن هذه القنوات التي مدت من مياهه لم ترزأه شيئاً ذا بال غير انه بلاشك إذا ذكر شقيقه الأكبر نهر (يانغ تسي) فإنه لابد من ان يفارقه الزهو ويدركه التواضع.

ولقد ذكرني منظر القنوات المتعامدة والمتقاطعة وكثرة المياه في ريف شنغهاي مناظر من مناطق استوائية عديدة في العالم إلا ان هذه المياه منظمة ينتفع بها الناس إلى أقصى حدود الانتفاع بل انهم نظموا حتى طرق صرفها وابعاد الزائد أو المستعمل منها. حتى مع وجود المستنقعات التي استفادوا منها في زراعة الأسماك.

وكانت الطائرة تتسامى في الجو ونور الشفق أو أذيال الغروب يتسامى في الجو أيضاً حتى حرمنا من هذا المنظر الأنيق أسفل الطائرة.

أما الطائرة نفسها فإنها نفاثة صغيرة قد رصوا مقاعدها رصا حتى ضاق مابينها عن الحقائب اليدوية فكانوا مثل أهل الهند الذين يكثرون من الكراسي في الطائرة ولايتركون للحقائب أو الأمتعة التي يحملها الراكب بيده مكاناً فيكون البديل لذلك في رفوف الطائرة يملؤونها ملأ ولكنهم يغلقونها ويتأكدون من ذلك قبل قيام الطائرة.

وذكروا ان السفر إلى كانتون أو(قوانغتشو) كما ينطقون بها يستغرق ساعة وخمساً وثلاثين دقيقة ووزعوا الضيافة والوقت هو وقت العشاء والعشاء قطعتان من الخبز مستديرتان لايبعدان عن حجم البيضة كثيراً ونوعان من الكعك وشريحة من لحم الدجاج أو البط وكيس من اللدائن فيه شراب من عصير الفواكه وهو الذي تناولته دون غيره إلا الفاكهة وهي حبة من البرتقال ملفوفة بورقة رثة.

في مطار كانتون:

نزلنا في مطار كانتون والوقت ليل لم استطع ان أبصر المنطقة التي حول المطار إلا أن الأنوار توحي بالتوفير أو عدم توفر الكهرباء.

وحتى أبنية المطار وبخاصة قاعة الوصول الواسعة كان سقفها من الخشب والصاج حتى لتشبه بعض الأسواق العامة في القارة الافريقية. ولم يكن المستقبلون قد وصلوا فانتظرنا خارج قاعة الوصول مما يلي البلد على كراس من الطين أو الحجارة لا أدري ولكنها ليست من الخشب أو الحديدً والبعوض أو حشرات أخرى صغيرة لاسعة يلهب أقدامنا ويحوم أمام وجوهنا.

وبعد قليل جاء الاخوة المستقبلون ومنهم :

الحاج نور محمدمانونغ تا نائب رئيس الجمعية الإسلامية لمدينة كانتون

الأستاذ سليم مالوجانغ سكرتير الجمعية الإسلامية.

الإمام موسى يانغ دونغ سي إمام مسجد خوي شينغ (كوانغ تا) المنارة.

الحاج محمد رشيد يانغ تانغ الإمام الثاني لمسجد خوي شينغ ونائب رئيس الجمعية.

في مدينة كانتون أو (قوانغ تشو) :

قربوا سيارة سوداء رسمية مماثلة للتي كنا قد ركبناها في المدن والمقاطعات السابقة وهي المخصصة في الأصل لركوب الوزراء ومن في رتبتهم كما أخبرونا.

وركب معي في السيارة الأخ (نور محمد ماتونغ تا) نائب رئيس الجمعية الإسلامية في منطقة كانتون.

وعندما سار الموكب من المطار إلى المدينة وهو لايبعد عنها كثيراً والطريق أكثره عامر عمارة متصلة لفت نظري فيه كثرة سيارات الأجرة الصغيرة (التاكسي) بأعداد لايوجد مايماثلها في أية مدينة صينية أخرى، بل إن سيارات الأجرة لاترى ظاهرة أبداً إلا في هذه المدينة وقد وضعوا على ظهورها العلامة المميزة المنارة التي كتبت عليها كلمة (تاكسي) بالانجليزية وهي كلها مملوكة للحكومة.

والسبب في ذلك كونها مدينة مفتوحة أو شبه مفتوحة للسياح

والتجار وهذا مهم عندهم فعن طريقها تباع مصنوعات صينية كثيرة، وتعقد صفقات كبيرة للتصدير وذلك لقربها أيضاً من (هونغ كونغ) التي هي كلها منطقة حرة كاملة ولفت نظري لأول وهلة ان السكان هنا أقصر قامات من الصينيين الذين اعتدنا على رؤيتهم في شمال الصين ووسطها وهم إلى ذلك أضعف أجساماً.

كما ان تقاسيم وجوههم أشبه بالجنس الملايوي الموجود في تايلند وأجزاء من اندونيسيا منهم بالصينيين الشماليين وبخاصة من يسمون منهم بقومية (خوي) الذين هم المسلمون الصينيون الأصلاء.

فندق الأوزة البيضاء:

استمر تدفق سيارات الأجرة بلونها الأصفر المميز والعلامة في سقفها واستمر تدفق الناس أيضاً في الشارع فلم يمض على غروب الشمس وقت كثير حتى وصلنا فندقا حديثاً أمريكي الطراز ليس فيه مما للصينيين وأهل الصين من أثر.

وكتبوا عليه اسمه بالانجليزية بارزاً (فندق الأوزة البيضاء). وكل شيء فيه عصري غربي حتى الموسيقى التي كانت تصدح من مكبرات الصوت هي موسيقى غربية لا أثر للموسيقى الصينية فيها أصلاً.

وجلسنا في غرفة انتظار أنيقة جميع الأثاث فيها غربي أوروبي لا أثر للذوق الصيني فيه حتى أعدوا الغرف فوجدنا ستة مصاعد متقابلة كل ثلاثة في صف وهي كلها حديثة تسير بالضغط على الأزارير كما هي عليه الحال في الفنادق الكبيرة الحديثة في العالم.

وهذه أول مرة نركب فيها مصعداً لايحتاج إلى سائق أو لا يحتاج

إلى عمل يدوي يقوم به الراكب لأن المصاعد في الفنادق التي نزلنا فيها في الصين كلها قديمة وقد أخبرونا بعد ذلك ان هذا الفندق حديث بالفعل لم يمض على بنائه إلا سنة واحدة.

وأنزلوني في غرفة في الطابق السادس والعشرين منه وهو يتألف من ثمانية وعشرين طابقاً وكل مافي الغرفة من أثاث ورياش هو عصري غربي حتى أجهزة التلفزة كبيرة ملونة كالتي تكون في الفنادق الحديثة في العالم الغربي.

وتتألف الغرفة من قسم منفصل للنوم وقاعة استقبال ومايتبع ذلك.

ووجدنا الضيافة من إدارة الفندق سلة من الفاكهة المحلية هنا وهي غير الفاكهة التي اعتدنا عليها في شمال الصين والتي تتألف في الغالب من التفاح وأحياناً تكون من الكمثرى فهنا برتقال ويوسفي وموز.

وحتى خادمات الفندق وهن صينيات أصيلات قد ألبسوهن لباساً لايمت للصينيات بصلة، وقد جمعن بين أدب الصينيات في الخدمة والتزام الغربيات. فليس هناك عدم مبالاة بالخدمة عندهن كما لاحظنا ذلك في بعض مدن الصين.

وليس فيهن من وقاحة بعض الغربيات شيء.

وكان العشاء في الفندق لمن أراد من الرفاق أما أنا فلم أرد لأنني أكلت قليلاً في الطائرة وكان النوم عميقاً في هذا الفندق الهاديء الجميل الذي يحوي كل ممتع ومريح للنظر. وقبل النوم كنت أفكر في هذا الذي رأيته في هذه المدينة من خلال مرورنا في شوارعها مابين المطار إلى الفندق ومارأيته في فندقها هذا العصري الجميل ولم كل هذا الفرق

العظيم بينها وبين بقية البلاد في الصين من شرقه إلى شماله وغربه؟ .

وكان الجواب هو أن هذه المدينة قريبة من بلاد الحرية الاقتصادية التي لابد لها من وجود حريات أخرى .

ومن بلاد الحرية الاقتصادية وبخاصة في (هونج كونج) تأتي الأموال، ويفد رجال الأعمال التي تتعلق بالبيع والشراء والأخذ والعطاء، وتصدر الصين بذلك ما تستغنى عنه، وتستورد ماتحتاج إليه. ولذلك جعلوها مدينة مفتوحة أو شبيهة بالمفتوحة يسهل الدخول إليها والخروج منها، كما اقاموا فيها معارض صناعية شبه دائمة لما تنتجه الصين من مصنوعات ومزروعات .

يوم الخميس: ٩ شعبان ١٤٠٤هـ - ١٠مايو ١٩٨٤م

صباح كانتون :

عاجلت الفجر قبل ان يبسط سلطانه على المنطقة لأرى ماتريه النافذة من طابق الفندق السادس والعشرين فأزحت الستارة الحديثة التي انزلقت بنعومة عن نافذة زجاجية بحجم الجدار كله. فرأيت غرة الفجر الوضاءة التي كانت لاتزال تنير نفسها كالمصلح الإجتماعي الذي يبدأ بإصلاح نفسه قبل ان ينشر الإصلاح على الآخرين.

وانتظرت فترة إلى ان عم النور الفضي جو المنطقة، ولم تبزغ الشمس بعد فكان ذلك كوقت أهل الجنة الذي ورد في الحديث أنها ليس فيها شمس ولا قمر وإنما هو نور كالنور الذي يكون قبل طلوع الشمس، أو ماهذا معناه.

فرأيت منظراً جميلاً هو منظر أنهار ثلاثة أو نهرين لأحدهما شعبتان وهي تقترب احداهما من الآخرى ثم تقترن في عناق جميل قبل ان تمتزج كما تمتزج أرواح العشاق، بعد العناق.

وتؤلف هذه الأنهار خضماً فخماً من المياه كأنه الخور العظيم من البحر، تقوم عليه أبنية عالية متفرقة أكثرها حديث من دون ان تطغى على طبيعة ضفافها الخضر فتحيلها من طبيعة ريفية إلى مكان حضري مزدحم. بل بقيت هذه الضفاف ذات طبيعة خضراء بهيجة. ولاينقص من بهجتها وجود مصانع بعيدة ذات مداخن عالية لأنها بعيدة من الضفاف.

وتسعى القوارب الكبيرة والصغيرة في مياهها سعياً حثيثاً، والعجب ان القوارب في النهر أكثر من السيارات في شوارع المدينة التي أراها في هذه الساعة المبكرة من الصباح.

لقد بنوا هذا الفندق الحديث الجميل على الضفة الشمالية لموقع اقتران هذه الأنهار مباشرة وربما كان هذا من أسباب تسميته بفندق الأوزة البيضاء. فالأوز يعيش في الماء وعلى ضفاف المياه.

وأجمل ما في هذا المنظر أن البصر يمضي فيه بعيداً في الفضاء، لا تحده أبنية عالية لأن المياه متسعة إلى مدى بعيد.

وهناك الميناء الذي يزدحم بقوارب كبيرة وسفن متوسطة راسية في مياه هذا النهر أو هذه الأنهار.

وذكرني ذلك بمرات عديدة نزلت فيها بفنادق واقعة على أنهار كبيرة في أنحاء متباعدة من العالم ومن ذلك فندق حديث عال في مدينة برازافيل عاصمة الكنغو وقد بنوه على ضفة نهر الكنغو مباشرة وفندق على نهر النيجر في مدينة باماكو عاصمة مالي، ويسمى «فندق الصداقة» وفندق آخر في عاصمة أخرى على ضفاف النهر العظيم الذي كان أسلافنا العرب يسمونه نيل السودان واسمه الأوروبي الذي يعرف به الآن «نهر النيجر» وذلك الفندق اسمه (جاوي) في نيامي عاصمة جمهورية النيجر المسلمة.

ولن أذكر لك مانزلته من فنادق على أنهار عدة في البلدان الأوروبية والأمريكية لأنه معروف ومشهور ومنها فندق قد بني مباشرة على بحيرة واسعة في مدينة ديترويت عاصمة صناعة السيارات في الولايات المتحدة الأمريكية، وتلك البحيرة هي التي تؤلف جزءاً من الحدود مابين الولايات المتحدة وكندا في تلك المنطقة وكنت نازلاً في الطابق السابع والثلاثين من الفندق ومن نافذته كنت أرى أرض البلدين الأمريكيين المتجاورين.

وكان الإفطار في الفندق مختلطاً ما بين الصيني والغربي يسألونك

أيهما تريد فأردنا الصيني لأننا شعرنا بقرب فراق الصين إذ سنغادر هذه المدينة إلى (هونج كونج) خارج الصين يوم الجمعة أي غداً بإذن الله، فكان أبرز مافيه شربة لذيذة من مسحوق السمك. وقد جمعوا بين الشاي الأحمر المعتاد والأخضر الصيني الخفيف.

وكان موضع الافطار غرفة منفردة إذ هم جعلوا في المطعم غرفاً إضافية خاصة بالمجموعات التي لاتريد أو لايليق ان تتناول الطعام مع سائر الناس في المكان العام.

وبعد ذلك حضر الأخ (نور محمد ماتونغ تا) نائب رئيس الجمعية الإسلامية وجلسنا قليلاً قرب شلال صناعي في الفندق يقل نظيره في الصين لأنه من الأشياء غير الضرورية. ولاحظت ان جميع النزلاء الذين رأيتهم في الفندق هم من الأجانب وليس فيهم من الصينيين أحد.

وإن كان فيهم من لايبعد كثيراً في المظهر عن أهالي مدينة (كانتون) وهم أقوام أخبرونا أنهم من الفلبين أو من سنغافورة.

إلى أول مسجد في الصين:

هكذا ذكروا لنا جازمين أنه أول مسجد في الصين كلها. وقد أيدوا قولهم بأن مدينة (كانتون) هي أول مدن الصين التي دخلها الإسلام، وذلك لكونها كانت الميناء الرئيسي أو المدخل الأدنى القريب لمن يأتي من البلاد العربية إلى الصين بطريق البحر سواء أكان ذلك بطريق مباشر أو غير مباشر.

سار الموكب من فندق الأوزة البيضاء (وايت سوان هوتيل) وهو مؤلف من خمس سيارات من دون أن تتقدمه سيارة رسمية عسكرية أو

نحوها كما سبق في المدن الصينية الأخرى. وذلك ان المسلمين الآن في (كانتون) هم قلة، وليسوا كما كان عليه الحال في الماضي ولذلك كان وزنهم عند الحكومة هنا ليس بالثقل الموجود في كثير من المقاطعات الأخرى في الصين.

على أننا ضيوف للجمعية الإسلامية الصينية التي تكاد تكون لها صفة رسمية من ناحية الاتفاق على مجيء الضيوف الأجانب ودعوتهم ثم استضافتهم.

وسلكنا شارع جانب النهر الذي يسميه بعض الناس بالكورنيش عليه النهر على أيماننا متجهين جهة الشرق. فوجدنا أنفسنا نصل بسرعة إلى حي قديم فاخر أي هو جيد بالنسبة لما كانت عليه الأحياء الجيدة في المدن التجارية قبل أربعين سنة مثل الأحياء التي كانت فاخرة من مدينة القاهرة قبل عام ١٩٥٢ ويتألف من متاجر وأبنية جيدة إلا أنها غير مفرطة في الارتفاع لأن هذا كان مستوى الأبنية العالية في ذلك الوقت.

وهذه المتاجر والحوانيت قد علاها الكسوف إذ أصبحت حكومية ليس فيها من حركة إلا حركة محدودة بالحدود التي ترسمها الحكومة لها كما سبق.

وأما الناس الذين في هذه الأسواق فإنهم شديدو الشبه بالجنس الملايوي الموجود في جنوب الفلبين وبلاد الملايو.

ولعل هذا من الشواهد الظاهرة على أن أصل الجنس الملايوي قد قدم من جنوب الصين.

هذا إذا لم يصح افتراض العكس وهو ان هذا الجنس الشبيه بالملايوي الموجود في الصين هو الذي قدم من بلاد الملايو في الأصل

واعتقد ان هذا افتراض بعيد.

وقد أخبرنا مرافقونا ان شر الثورة الثقافية التي هي في الحقيقة الفورة الشيوعية المتعصبة قد وصل إلى (كانتون) ولكن على هيئة أخف مما هي عليه في باقي الصين.

فلم يخربوا المعابد أو المساجد وإنما أحرقوا كتباً دينية قديمة للبوذيين وغيرهم والسبب في ذلك هو قرب المدينة من (هونج كونج) ثم من العالم الخارجي وكثرة المترددين عليها من الأجانب مما جعل المسؤولين عن الحكومة خلال تلك الحقبة الكريهة من الحكم الشيوعي في الصين يخشون من رد الفعل لدى الأجانب.

مسجد كانتون يقال إنه أول مسجد بني في الصين

ومن الملاحظ هنا كثرة سيارات الأجرة كما قلت. بحيث يرى المرء العشرات منها واقفة أو سائرة في الشارع الواحد ولاشك ان أكثر الذين يستعملونها هم الأجانب لأن المواطنين الصينيين ذوو دخول محدودة اللهم إلا إذا كان أحد منهم تصل إليهم بطريقة مباشرة، أو غير مباشرة بعض نقود الأجانب.

ومن الملاحظ هنا أيضاً كثرة الزحام وسيل المشاة والدراجات في الشوارع، كما في أكثر المدن الصينية إلا ان النظام هنا أقل، وطبيعة القوم أقل هدوءاً وإن كان الهدوء المسيطرعلى الناس في الشطر الخاص بالأجانب



أحد الزملاء داخل مسجد كانتون

ومعاملتهم لايزال هو الغالب. ومما يجدر ذكره ان سكان كانتون يبلغ عددهم ثلاثة ملايين نسمة.

شارع التاجر العربي:

لايكاد يخلو تاريخ مدينة كانتون في أي حقبة من الحقب عن ذكريات التعامل مع العرب أو مايدل على ذلك.

وقد ذكرنا بذلك الآن شارع وصل إليه الموكب اسمه شارع (تاجي) وقال الاخوة المرافقون وأيدهم غيرهم بعد ذلك: إن كلمة (تاجي) هنا محرفة عن الكلمة العربية (تاجر) وان المراد بالتاجي هنا هم العرب، فمعنى تسمية هذا الشارع هو (شارع العرب).

وقد اسموه بذلك لما كان للتجار القادمين من البلاد العربية من أهمية في تجارة الصين الخارجية في العصور القديمة.

والشارع لايزال فيه الحوانيت ولكن التجارة الحرة قد فارقته كما فارقه التجار العرب الذين لاشك أنهم انصهروا في البوتقة الصينية، وذابوا في هذا المحيط البشري الصيني العظيم أما أحفادهم من التجار العرب المغامرين فإنه لاتزال توجد منهم بقية تتاجر مع الصين وتصل إلى مدينة (كانتون) هذه كما كان أسلافهم يصلون ولكنهم لايسكنون في هذا الشارع وأمثاله، وإنما يقيمون في الفنادق الغالية


قاعة داخلية في مسجد كانتون

لأن أموالهم كثيرة والتجارة قد اصبحت عملاً يتسم بابتغاء الراحة. وتجار العرب المحدثون لايأتون من البحر وإنما يأتون من الجو، لذلك لاتكون لهم علاقة بهذا الشارع الذي لايبعد كثيراً عن شاطيء البحر أو النهر الذي تشبه مياهه مياه البحر. ومازال الإخوة المرافقون يقصون علينا قصة التجار من العرب القدماء الذين كانوا يأتون إلى كانتون من البحر وأنهم إذا رأوا منارة المسجد العالية قالوا وهم في البحر: لقد وصلنا الصين.

ولذلك سمي الشارع الذي عليه المسجد باسم (كوانتالو) أي: شارع المنارة من أجل وجود منارة المسجد فيه التي لم يكن نفعها يقتصر بطبيعة الحال على العرب وحدهم بل كان المسافرون في البحر من كل الأجناس يهتدون بها ويرونها من بعيد وهم في البحر فهي كانت بمثابة المنار للسفن إضافة إلى كونها مئذنة للمسجد الجامع الذي يقال: إنه أول مسجد بني في الصين.

أول مسجد في الصين:

نعود إلى العنوان السابق وذلك لأننا وصلنا إلى هذا المسجد التاريخي العظيم فوجدنا عليه لوحة بعربية واضحة لم تؤثر فيها القرون مكتوبة على مدخله الخارجي وهذا نصها:

«هذا أول مسجد في الصين بناه سيدنا وقاص رضي الله عنه، إذ دخل هذه الدار لاظهار الإسلام بأمر رسول الله ﷺ، ثم جدده المتأخرون مرة بعد مرة إلى الآن، حفظه الله تعالى من الآفات، في (الإحيات) وهو في الصين مبدأ الإسلام، ومنبع العلوم فينبغي على مسلمي الصين أن يزينوا ظاهره بالعمارة الحسنة. ويصلحوا باطنه بإقامة الجماعة، ووضع مدرسة خصوصاً على مسلمي هذا البلد،

فاعتبروا ياأولى الأبصار، اللهم انصرنا على أعداء الإسلام، آمين، الموصي سليمان بن عبدالكريم».

إن هذا النص ثمين لو كان عليه تاريخ وإن كانت الوقائع المذكورة في أوله مستقاة من الحكايات والأخبار المتناقلة ولاتستند إلى دليل تاريخي يصح الركون إليه.

ذلك بأنها تذكر أن هذا المسجد بناه (وقاص) بأمر الرسول ﷺ وظاهر هذا أن النبي ﷺ بعث إلى الصين صحابياً اسمه وقاص لينشر الإسلام في الصين. ونحن لا نعرف هذا في كتب السير. ولا في كتب التاريخ المعروفة.

إضافة إلى بعده عن التصور من الناحية العقلية البحتة ذلك لأنه كان في زمن البعثة بين الصين وبين البلاد العربية بلدان كثيرة عظيمة على غير دين الإسلام هي أولى بالدعوة كما كان النبي ﷺ قد فعل حين بعث برسائل إلى حكام البلدان القريبة من الجزيرة العربية مثل هرقل في الشام وكسرى في العراق وهوذة بن على الحنفي في البحرين.

ويكفي ان نشير هنا إلى ماهو بدهي في التاريخ وهو أنه حتى العراق الذي كانت تنطلق منه السفن إلى الصين بعد ظهور الإسلام وربما كان بعضها كذلك قبل ظهوره لم يكن قد دخله الإسلام بعد، إذ لم يفتح إلا في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وإنما الصحيح ان (وقاصاً) هذا كان داعية مسلماً ربما كان عربياً أو قادماً من البلاد العربية لنشر الإسلام في الصين وكان بعد البعثة النبوية بزمن بل بعد عهد الخلفاء الراشدين كما نتصور فجاء المتأخرون وزادوا في أمره حين رفعوا من قدره فقالوا: إنه مبعوث من الرسول ﷺ لإظهار الإسلام في الصين.

دخلنا إلى المسجد من بابه الخارجي الواقع على الشارع وهو الذي تعلوه هذه الكتابة العربية يراه كل من يمر به من هذا الحي المزدحم من المدينة فافضى بنا المدخل إلى جزء مسقوف غير ممتد فرأيت ما أعجبني مما لا أكاد أذكر أنني رأيت له مثيلاً من قبل لا في مساجد الصين ولا غيرها من البلدان.

ذلك بأنك من باب المسجد الخارجي هذا ترى ممراً طويلاً جداً تقطعه عقود راكبة عليه في بعض المواضع بعضها أجزاء من مرافق المسجد ثم يأتي المسجد الرئيسي الذي هو المصلى الرئيسي لا تكاد تراه لبعده وعلى أحد العقود أو الطيقان - جمع طاق - عبارة بالصينية فسرها لنا الإخوة المرافقون بما معناه: «أن الإسلام جاء من المغرب.. ورغم بداهة هذه الجملة. إذ ليس من المظنون أن يأتي الإسلام من الشرق من اليابان مثلاً أو مابعدها إلا أن لها أهمية خاصة. ذلك بأنها بخط امبراطور من أباطرة الصين اسمه (كوانغ شي) ذكروا أنه هو الامبراطور قبل الأخير الذي قامت الجمهورية في الصين على أنقاض حكمه. وذكروا أنه كتب هذه العبارة بمثابة التقدير للمسلمين، والاشارة إلى الاحترام الذي يكنه للدين الإسلامي. وإن تاريخ كتابتها منذ أربع وثمانين سنة.

ومما يجدر ذكره أن الجمهورية في الصين قاه ت قبل الشيوعية بزمن وكانت بزعامة (صن يات صن) المشهور.

وبعد هذا الطاق أو العقد سرنا في فناء مكشوف مع الممر نفسه الذي هو متصل باستقامة كاملة منذ أن دخلنا مع الباب الخارجي للمسجد. ثم وصلنا إلى عقد آخر مكتوب عليه بالصينية:

«الإسلام ملة إبراهيم حنيفا، وطريقة جديدة».

وهذا العقد يقوم على جانب منه جزء من الرواق الخارجي المسقوف للمسجد وفوق هذا الطاق برج غير مرتفع يسمى «برج رؤية الهلال. كانوا يصعدون عليه عندما يتراءون هلال شهر رمضان وشهر شوال.

قالوا وكانت رؤية الهلال منه ممكنة في العصور القديمة قبل ارتفاع الأبنية وتعدد طوابقها في هذا القسم من المدينة أما الآن فإنها قد سدت عليه الأفق ولابد في ترائي الهلال من الصعود إلى منارة المسجد العالية.

ومن هذا الرواق وصلنا إلى حديقة في المسجد جميلة مرتبة ويقع بعضها بين الرواق المسقوف المحيط بالمسجد وبين المصلى نفسه.

وقد رأيت في داخل هذا الرواق لوحة عربية جميلة كتبت عليها الآية الكريمة كتابة خاصة: ﴿**ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه**﴾.

ثم الفناء المكشوف للمسجد بعضه مبلط بمادة تشبه الأسمنت وبعده رواق لاصق بالمسجد فيه عدة لوحات وكتابات بالعربية والصينية وكلها كتابات إسلامية من ذلك لوح من الخشب مكتوب عليه بالصينية أركان الإسلام الخمسة. وعلى لوح آخر بالصينية أيضاً هذه العبارة التي تدل على عدم معرفة المسلمين بالتاريخ الدقيق لانتشار الإسلام في الصين وهي تقول كما أخبرونا: .. الإسلام جاء في أسرة تانغ، كم مرَّ بنا من عصور قديمة؟..

وعند مدخل المصلى صندوق للتبرعات كتب عليه هذه الجملة (صندوق النية) يريدون بذلك النية في التبرع أو نحو ذلك وتحتها كتبوا معناها بالانكليزية وفوقها كتابة بالصينية قالوا: إنها العبارة نفسها بهذه اللغة.

وفي مقدمة المسجد جزء ضيق منه بمثابة المحراب الواسع مكتوبة

على واجهته الآية الكريمة، ﴿**إن الدين عند الله الإسلام**. . ﴾ بالخط الصيني المتميز عن غيره من الخطوط العربية وفي داخل هذا الجزء المتقدم من المسجد محراب معتاد.

والتقطنا صوراً تذكارية ومعنا إمام المسجد (موسى يانغ تونغ تو) والحاج (محمد رشيد يانغ تانغ) الذي كان يرتدي الثوب العربي، وفوق رأسه قلنسوة. وعلى جانب المحراب كتبوا الآية الكريمة: ﴿ **الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور**﴾ إلى آخر الآية.

مدخل داخلي في مسجد
الاشتياق إلى النبي في كانتون

لمحات تاريخية:

قلنا إنهم يقولون: إن هذا المسجد هو أول مسجد بني في الصين كلها. ومع ان القرائن تشير إلى صحة ذلك أو على الأقل تشير إلى أن مدينة (كانتون) هي من أقدم المدن التي دخلها الإسلام في الصين وذلك من واقع كونها محطة لقوافل التجار القادمين من البلدان العربية والبلدان الإسلامية الشرقية فإن الجزم بالقول بذلك يحتاج إلى دليل. وهذا الدليل يحتاج إلى علماء يبرزونه ويسعون إلى تحقيقه.

ونحن هنا قوم من الزائرين غير المتفرغين. ولذلك ليس لنا إلا ان نذكر ما شاهدناه أو سمعناه.

فكان من ذلك ماذكروه من أن المسجد رمم - فيما يعرفون من أمره - أربع مرات آخرها كان عام ١٩٣٥م.

وليس هذا بالمهم وإنما المهم أنهم أرونا حجراً كان مقاماً في فناء المسجد عليه تاريخ نقشه في عام ١٣٥٠م أي منذ ستمائة وأربع وثلاثين سنة. ذكروا ان الغوغاء كسرته وحطمت تاريخه إبان الثورة الثقافية، وانهم الآن يسعون إلى الكتابة على حجر آخر مماثل له وإقامته في مكان الأول لأنهم يحفظون نص الكتابة الأصلية عندهم على أوراق. وسوف يضعونه في مكانه في شهر رمضان القادم ١٤٠٤هـ حيث يتكاثر رواد المسجد في رمضان.

وبمناسبة الحديث عن الرواد أخبرونا انه يحضر صلاة الجمعة منهم نحو ثلثمائة مصل. أما في أوقات الصلاة الأخرى المعتادة فلايتعدى العدد مابين عشرة إلى عشرين.

وخرجنا من المسجد الرئيسي أو المصلى الذي هو ليس بالكبير إلى التجول في أفنية واسعة تابعة له أكثرها مسقوف.

وتحت هذه الأفنية المسقوفة أشياء تسترعي الانتباه..

من ذلك سبورة عليها كتابة قديمة بالصينية. ومائدة خشبية ضخمة قديمة جداً مؤلفة من كراس ومنضدة بينها. وكراس حجرية قديمة، حول مائدة حجرية أيضاً وفوقها بناء كالمظلة على الطراز الصيني القديم.


شاهد قبر في المقبرة الاسلامية القديمة في كانتون

والكراسي ملساء شديدة الملاسة قالوا: إن

السبب في كونها كذلك هو قدمها، وكثرة الجلوس عليها على مدى القرون.

وقد كتبوا على المائدة الحجرية بالصينية مامعناه: «رجاء التوفيق للجميع».

وفي الفناء المكشوف شجرة عادية - نسبة إلى عاد بمعنى أنها قديمة جداً- ولها جذع ضخم قد خرج عن حوضها كثيراً قال المرافقون: إن عمرها يزيد على مائتي سنة، بل قال أحدهم: إن لها مئات السنين.

وعلى عمود أمام هذه الشجرة وهو أحد الأعمدة التي تحمل أحد الأفنية المسقوفة كتابة بالعربية هي الحديث الشريف (الصلاة عماد الدين فمن أقامها أقام دينه، ومن ضيعها فقد هدم الدين).

وعلى عمود آخر مجاور كتبوا: (المؤمن في المسجد كالسمك في الماء، والمنافق في المسجد كالطير في القفص).

وهكذا تتعدد الكتابات العربية حتى الزهريات التي في الأفنية مكتوبة عليها البسملة بالعربية، واللوحات في داخل المسجد والأفنية أكثرها بالعربية.

ويتضح من ذلك فضل الدين الإسلامي على العربية وأهلها.

نص أثري هام:

بعد ذلك اطلعنا اخوتنا على نص مهم جداً يبين تاريخ بناء هذا المسجد في العصور القديمة وإن لم يوضحْ متى بني المسجد لأول مرة وأهميته تنبع من كونه وجدت صورته واضحة محفوظة عند أحد المسؤولين الحكوميين، ثم اعترفت به الإدارة الحكومية وضمنته منشوراتها.

وهذا نصه:

إن أول مسجد للناس في هذا الأرض كان هذا المسجد المبارك المسمى بالعتيق والقديم المكنى بالجامع والشائع الملقب بمسجد الأصحاب وكان ذلك في تاريخ سنة أربعمائة من الهجرة النبوية بعدما مضى من تاريخه المذكور ثلثماية سنة ووسعه وعمره وجدده واسس هذا الطاق العالي والرواق الرفيع والباب الكريم والشباك الجديد وتممه في تاريخ سنة عشر وسبعمائة الهجرية طلباً لمرضاة الله تعالى أحمد بن محمد القدس المعروف بحاجي ركب الشيرازي غفر الله له ولمن .... بمحمد وآله.

مرافق المسجد:

في المسجد مكتبة أي خزانة للكتب في جهة الشمال منه، داخل فنائه وكذلك محلات للوضوء عديدة مما يدل على أن عدد المصلين في المسجد كان في القديم أكثر مما هو عليه الآن وأماكن الوضوء هذه نظيفة جداً أكثر نظافة من مثيلاتها في الصين ولاشك في أن السبب في ذلك حب المسلمين الصينيين للنظافة والطهارة أكثر من غيرهم من بقية السكان وفيها فوط وأباريق للمياه.

وقال لي الإخوة القائمون على المسجد: إن المسجد يحتاج إلى كل هذه الأشياء يوم الجمعة لأن العدد الذي يستعملها كثير.

وعن البحارة الذين كانوا يأتون للمسجد في الأزمنة القديمة أخبرونا أنهم قلواالآن أولا يكادون يوجدون لأن الأبنية الحديثة المتعددة الطوابق حالت بينهم وبين رؤية المنارة، ولكن الزوار والسياح والتجار من المسلمين يسأل بعضهم عن المسجد ويحضرون لصلاة الجمعة.

في مقر الجمعية الإسلامية :

بعد هذه الجولة الممتعة في هذا المسجد الذي هو في الحقيقة مركز إسلامي وليس مجرد مكان للصلاة لما يشتمل عليه من الأبنية المتعددة والمرافق الكثيرة انتقلنا إلى مقر الجمعية الإسلامية في المسجد نفسه في عدة غرف ملحقة بالمسجد منذ القدم.

فكانت جلسة للحديث بل المباحثات الرسمية مابين الوفد والجمعية الإسلامية لمنطقة كانتون على حفلة للشاي أقامتها الجمعية الإسلامية. حضرها (نور محمد مانونغ تا) نائب رئيس الجمعية فكان أول المتكلمين. استهل كلامه بقوله:

إن المسلمين في هذه المدينة العريقة (كانتون) يرحبون بكم، وان حضوركم هنا هو في حد ذاته مدعاة لسرورهم جميعاً.

ثم قدم الأعضاء المهمين في الجمعية من الحاضرين منهم محمد رشيد نائب رئيس الجمعية وعبدالله سالم، الأمين العام للجمعية الإسلامية في (كانتون) و(قاسم ني لي سانغ) نائب الأمين العام. و(نور محمد تاو كنغ تا) النائب الثاني للأمين العام و(تسنى سي تشي) موظف في إدارة الشؤون الدينية في المقاطعة.

وقال: إن في هذه المدينة مسجدين وانهما يحتاجان إلى بعض الأمور التي تجتهد الجمعية في توفيرها.

وقد رددت عليه بكلمة مناسبة شكرته على ترحيبه بالوفد وأخبرته فيما يتعلق بالمساجد أن رابطة العالم الإسلامي تقوم ببذل جهودها لترميم المساجد في أنحاء العالم ولا يحد من نشاطها في هذا الأمر الذي يجعل سائر الاخوة المسلمين يحسون به إلا كونها تعمل على مستوى العالم لأن المساجد كثيرة والعالم واسع، والاخوة المسلمون

يتكاثرون وحاجتهم إلى بناء المساجد أو ترميمها تتزايد- ولله الحمد - تبعاً لذلك.

وقلت: إننا مستعدون للتعاون مابين الجمعية الإسلامية وبين رابطة العالم الإسلامي على مايرضي الله تعالى وينفع المسلمين.

ثم قدمت إليهم أعضاء الوفد.

مسجد شوق إلى النبي:

تشعب الحديث مع هؤلاء الاخوة في المسجد وكان جزء منه عن المسجد هذا فأكدوا ما ذكروه من قبل وهو ان هذا المسجد هو أول مسجد بني في الصين غير ان دليلهم الذي قدموه أو تعليلهم لم يكن مقبولاً عندنا، وان كان قد أصبح عندهم من الأمور المسلم بها.

وكذلك النتيجة تدل على عدم دقتهم في الحكم على الأشياء التاريخية. قالوا: تاريخ هذا المسجد مضى عليه أكثر من ألف سنة.

وقالوا: أول بلد في الصين دخله الإسلام هو (كانتون) دخلها الإسلام من البحر في أوقات مبكرة وهي كانت مكشوفة من جهة البحر أمام التجار والبحارة الأجانب الذين كانوا يأتون من البحر وقد كان مجيء العرب للصين لأجل التجارة وقالوا: إن العرب التجار هؤلاء كانت لهم مكانة كبيرة في نفوس الصينيين من كفار ومسلمين، ومن حاكمين ومحكومين وان الصين بالذات كانت تعتني بهم. وهذا


مدخل مسجد الشوق إلى النبي في كانتون

صحيح غير ان الذي قالوه بعده ليس كذلك وهو قولهم: بني المسجد سعد بن أبي وقاص، وهو الذي بنى المنارة وهي من الحجر وكانت بمثابة (الفنار) الذي تهتدي به السفن في القديم.

لأنه من الطبيعي ان الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه الذي قاد معركة القادسية، ليس هو بالذي دخل إلى الصين وبنى هذا المسجد ومنارته.

وقالوا: إن هذا المسجد كان له اسم آخر اشتهر به في وقت من الأوقات وهو (شوق النبي) أو (الشوق إلى النبي) ويعرف الآن بالاسمين كليهما: «شوق النبي» و(مسجد المنار).

على رأس المنارة:

هذه المنارة المهمة التي نسبوها في حكاياتهم الشعبية إلى الصحابي الجليل (سعد بن ابي وقاص) جديرة بأن يتأملها المرء من الداخل والخارج. وقد فعلت ذلك وزدت عليه بأن صعدت إلى قمتها مع درج حجري ضيق في داخلها وبعيد العهد بالاستعمال لأن المؤذنين منهم مثل غيرهم قد استعاضوا بمكبرات الصوت عن الصعود إلى رأس المنارة.

ومن الغريب انه لكي يصعد المرء إلى المنارة لابد من ان ينزل في درج سفلي يصعد منه إلى أعلى وقد أرجعت سبب ذلك في ظني إلى ان الأرض الأصلية للمنارة كان مستواها نازلاً



منارة مسجد الشوق إلى النبي

واستمر كذلك رغم ان ماحولها قد ارتفع عن مستوى الأرض الأصلية.

أما شكل المنارة فهو مستدير وأسفلها أغلظ من أعلاها، وفيها ١٥٣ درجة والدرجة هنا هي التي يصعدها المرء بخطوة واحدة.

ومن رأس المنارة لم يكن المنظر أنيقاً بل كان معتاداً، لأن عمارات سكنية قد ارتفعت حول منطقة المسجد فحجبت النظر عن أن يذهب بعيداً.

ومن الغريب بل المحير أننا وجدنا في هذه المنارة التي لاتبدو غليظة جداً درجتين فواحدة للصعود وأخرى للهبوط، ولقد استعنت بصاحبي الذي صعد معي لرأس المنارة وهو الأستاذ إبراهيم الخزيم للتأكد من ذلك فتيقناه جميعاً.

إلى الضريح المزعوم لسعد بن أبي وقاص:

هكذا قالوا لنا جازمين: إلى ضريح سعد بن أبي وقاص نزوره ونسلم عليه فهو صاحب رسول الله ﷺ وأول من أدخل الإسلام إلى الصين.

وقد بينت لهم أن الأمر ليس كذلك بالنسبة إلى الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه كما سبق وأنني لم أشاهد الدليل على غير ذلك من أدلة ملموسة في الصين نفسها.

تركنا مسجد المنارة أو (الشوق إلى النبي) في العاشرة والنصف بعد ان أنفقنا فيه أكثر مما قدرناه من وقت ولكن ذلك لم يذهب سدى بل في تلقي معلومات ومشاهدة مواضع كثيرة في المسجد وماحوله.

فمررنا بشارع تجاري مهم اسمه (تشونغ تشان) فيه محلات تجارية كانت فاخرة وقد امتدت أمامها أروقة من أروقة المباني على غرار مانفعله الآن في مدننا بحيث تشترط البلديات عندنا في بعض الشوارع التجارية أن تكون لأبنيتها أروقة تقع فيها مداخل المحلات التجارية لكي تقي المارة والمتسوقين من أذى الشمس، ومن المطر إن نزل ولكن ليس فيه عقود كما في شوارعنا. وقد رأيت مثل ماعندنا من العقود في كاركاس عاصمة فنزويلا ولكن العقود في ذلك القسم منها هي كالأهلة وليست كالمحاريب.

هذا الشارع هو فاخر بالفعل بالنسبة إلى هذه المدينة الصينية التجارية. ولكنه في الواقع ليس فاخراً بالنسبة إلى المحلات التجارية في العالم في الوقت الحاضر بل بالنسبة إلى المحلات التجارية غير الفاخرة في بلادنا في الوقت الحاضر.

ولقد ذكرني مرآه بمنظر المحلات التجارية الفاخرة في المدن الهندية ولاشك بأن هذه المحلات والأبنية التي فوقها بل وهذا المظهر الجيد في هذا الشارع وأمثاله كله كان قبل الثورة الشيوعية، وإبان الحرية الاقتصادية.

ثم مررنا بأبنية جيدة وشوارع لا بأس بها بالنسبة إلى الأطرزة التي كانت معروفة في منتصف هذا القرن الميلادي.

ولكنها وقفت عن التطور بسبب مجيء الشيوعيين، وبقي عليهم ان يحافظوا عليها وإلا فإنهم لايستطيعون ان يبنوا مثلها فضلاً عن أن يبنوا أحسن منها.

سعة الشوارع مناسبة، وإن كانت بالعرف الحاضر لأمثالها قد أصبحت ضيقة.

ثم مررنا بشارع عام أوسع في وسط المدينة قد وقفت على أرصفته غير الفاخرة الدراجات الهوائية الكثيرة على هيئة صفوف متراصة منظمة لأنها هي الوسيلة الوحيدة للركوب التي يتاح لعموم الشعب الصيني أن يمتلكها.

وفي قسم من البلدة القديمة كانت هناك حديقة ظليلة، وقفنا عند بابها، وهي تبدو بأشجارها الملتفة وأعشابها الريانة كالغابات الإستوائية، ذلك أن مدينة (كانتون) حافلة بالمياه من الأمطار والأنهار.

ولذلك كانت هذه الحديقة ريانة الأعشاب، بل ذات أعشاب متشابكة تركبها أعشاب أعلى منها فأشجار قصيرة فأشجار أعلى منها حتى تشابكت فيها الأشجار والأعشاب.

وقد عرفنا بعد ذلك ان هذه الحديقة قديمة. وأنها حافلة بآثار العمارة القديمة ولذلك ابقوا عليها غفلاً أي من دون تهذيب أو تشذيب أو تركوها على حالة تقرب من ذلك.

سرنا مع ممر حجرى نخترق الحديقة التي كانت أشجارها الملتفة تغلق النظر وتحد من انطلاقه حتى لا يرى سواها. واستمر السير مع هذا الممر الحجري أي المرصوف بالحجارة، وليس بالأزفلت لأنه قديم لم يغير.

وبعد ذلك وصلنا فجأة إلى عدة أبنية قديمة كان منها بناء رئيسي يدخل مع باب خارجي على فناء مسقوف يفضي إلى جزء من



الأستاذ لقمان ماشان لي والشيخ صالح ان شي ون عند مدخل مسجد الشوق الى النبي

الحديقة تعبق منه روائح الزهور الشذية وفيه الضريح وقد كتبوا على بابه: «روضة أبي وقاص».

كما كتبوا عليه بالصينية مايلي: «نقطة أثرية هامة محفوظة من قبل الحكومة الشعبية لمقاطعة كانتون».

وأول الأدلة على عدم صحة نسبته إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وان كان الأمر يحتاج إلى أدلة- كلمة (روضة) التي استعملها المتأخرون من الأعاجم بمعنى قبر محترم أو (مقبرة) ربما كانوا أخذوها في الأصل من اللفظ غير الصحيح للحديث الصحيح: مابين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة. فرويت رواية غير صحيحة: «ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة».

فهذه اللفظة روضة بمعنى قبر أو مقبرة لم تكن مستعملة في الصدر الأول من الإسلام.

وثاني الأدلة أن اسم أبي وقاص المكتوب هنا يدل على أنه شخص آخر اسمه (أبووقاص) غير الصحابي الجليل (سعد بن أبي وقاص).

وأخبرني أحد الأخوة المرافقين من الصينيين أنه كان مكتوباً بالعربية على هذا المدخل: (هذا قبر خال النبي سعد بن أبي وقاص). يشيرون بذلك إلى خؤولة النبي ﷺ في بني زهرة الذين منهم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه. غير ان هذه العبارة أزيلت إبان الثورة الثقافية لأنها على واجهة المقبرة.

وفي الفناء المكشوف أشجار وزهور منوعة ومقاعد حجرية يجلس عليها وإن لم تكن كثيرة.

ثم وجدنا مقبرة معتادة من مقابر المسلمين والقبور فيها من جهة اليمين واليسار. وفي وسطها بناء كالغرفة الكبيرة على سطحها شرفات

عربية صميمة يلوح القدم عليها وعلى سائر بناء القبر.

والقبر في وسط هذه الغرفة قد رفع عن الأرض بنحو المتر وقد جلل بالستائر وعنده قوم من المسلمين عليهم مظهر الصينيين الجنوبيين، أو أهالي هونغ كونغ وقد صفوا صفين وهم يدعون حول القبر مما أثار امتعاضنا جميعاً وبخاصة اثنين من الأخوة أعضاء الوفد حيث شددوا النكير على رئيس الجمعية الإسلامية الذي كان يرافقنا مع بعض أعضاء الجمعية وقالا: إنكم المسؤولون عن هذه البدع التي تكون عند هذا القبر بل المنكرات العظيمة فلم يحر جواباً وإنما قال أحد الاخوة من المرافقين الصينيين: إننا لانعلم ماذا يفعل هؤلاء عند القبر فربما كانوا يدعون الله وقد رأيناهم بالفعل يرفعون أيديهم بالدعاء فقلنا: وهذا أيضاً بدعة فقال: وربما كانوا يقرأون القرآن قراءة مجردة.

وقد حاولوا أن يسألوهم عما يفعلونه لنبين لهم أن ذلك لايجوز، ولكنهم لم يرضوا ان يستمعوا، بل لم يرضوا بأن يردوا بكلمة واحدة وإنما اقتصروا على الإشارات التي تؤدي معنى نفي، قال الإخوة المرافقون: إنهم لايريدون أن يقاطعهم أحد.

وقد ايسنا بالفعل من أن يردوا علينا، ، مما زاد أيضاً من امتعاض بعض الاخوة من أعضاء الوفد.

حديث الشواهد:

المراد بالشواهد شواهد القبور التي رأيناها في هذه المقبرة. وقد كتبوا عليها كتابات كثيرة إذ كلها عليها كتابات لكن بعضها مطول. وبعضها مختصر ربما حسب أهمية صاحب القبر ومنزلته في الدنيا.

وجميع هذه الكتابات بالعربية وقد رأيت نقل نماذج منها لا لكوننا

نستحسن الكتابة على القبور، وانا لنورد نماذج حية، وإن كان أهلها أمواتاً على اسلوب الكتابة بالعربية عند أهل الصين في القديم. ومن الملاحظ أن القبور كلها قديمة والكتابة عليها كلها قديمة وان لم تكن بالغة القدم. ولم نلاحظ بينها قبوراً حديثة.

وهذا نص الكتابة على أحدها:

(صاحب القبر عالم السخي التقي حاج الصالح النصيح محمد شمس الدين الغاز خوي الشويعر غفر الله له وجعله من الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين).

واسلوب الكتابة لايحتاج إلى تعليق وإنما المهم ان صاحب القبر من قومية (خوي). وهي تكاد تكون أكبر القوميات أو المجموعات الإسلامية في الصين. وقد مر ذكرها.

والثاني: وصفه بالشويعر فهل هذا وصف وانه شاعر بالفعل صُغِّر من أجل صغر سنه، أو صغر قدره كما قال الحريري في ملحة الإعراب في باب التصغير.

وان ترد تصغير الاسم المحتقر   إما لتهوانٍ وإما لصغر

أم أنه مجرد اسم.

وإذا كان الافتراض الأول صحيحاً فهل هو شاعر بالعربية؟ أم بالصينية؟ بقي الأهم من ذلك كله في موضوع هذا النص وهو تاريخه فالصينيون لايؤرخون بالميلاد أو نحوه وإنما يؤرخون بالأسرة الحاكمة فيقولون إن فلاناً مات في عام كذا من حكم أسرة كذا وهم يعرفون تاريخ تلك الأسر الحاكمة ولكنهم يقارنونه بالتاريخ الميلادي أو الهجري.

وقد أخبرونا ان تاريخ كتابته في أسرة (تشينغ) وقال بعضهم: إنه منذ أكثر من مائة سنة وقال آخرون: بل هو أقدم من ذلك.

وهذا النص على شاهد آخر:

(صاحب هذا القبر عالم الفقيه الكريم حاج الواعظ المرشد محمد عمر القاشخو خوي عزره الله بالمرتبة العالية، والرحمة الدائمة، وجعل قلبه غرفات الجنة. وجعله مصاحباً أهاليه في الجنة ورائياً وجهه الأعظم).

وبعض شواهد القبور عليها كتابات مختصرة أو أدعية بالعربية ومنها قبر أخبرونا أن تاريخ كتابته يزيد قليلاً على مائتي سنة.

وآخر عليه دعاء بدعي يعني أنه لا أصل له في الشرع قالوا: ان كتابته ترجع إلى ١٢٠ سنة.

هذا والجو حار رطب وإن لم يكن في شدة حرارة جدة ورطوبتها في الصيف ومع ذلك فإن في هذه الرطوبة فائدة هي عدم اتساخ الحذاء لأن الغبار هنا قليل بخلافه في العاصمة (بكين) التي كان جوها عندما كنا فيها جافاً مغبراً تتسخ منه الأحذية. وقال لنا المسؤولون هنا: إن الثورة الثقافية التي امتدت إلى أكثر الأشياء القديمة في الصين لم تصل إلى هذه المقبرة ولم يعملوا فيها أي شيء أو يزيلوا أي شيء.

وشواهد أخرى:

قلنا: إن مدينة كانتون كانت من أوائل المدن الصينية التي دخلها الإسلام قبل غيرها، ولذلك كانت مقبرتها من أوائل مقابر المسلمين في الصين.

وقد اتضح ان بعض القبور قديمة جداً يرقى تاريخها إلى ثمانية قرون أو أكثر. ولكننا لم نرها إذ وسعت الحديقة التي بجانبها، وشملت تلك التوسعة جزءاً من المقبرة فضاعت بذلك معالم القبور، بل ضاعت القبور كلها، غير ان مصلحة الآثار الصينية احتفظت بشواهد القبور القديمة ورتبتها وضمتها إلى المتحف.

وقد اطلعنا على صور كتابتها وأردنا إثبات بعضها هنا للفائدة وبخاصة لمن لايعرفون، بل لايتصورون قدم وجود المسلمين في هذه البلاد.

ويتضح منها ان اللغة العربية هي التي كانت سائدة بين المسلمين وأن المسلمين يتعلمونها تعلماً لأمور دينهم، ويكتبون بها على قبورهم. وأكثر الكتابات على القبور فيها تواريخ امتدت من القرن السادس الهجري أي بعد المائة الخامسة إلى القرن الثامن الهجري أي مابعد السبعمائة.

ولاشك في أن وجود المسلمين لم يكن مفقوداً قبل ذلك التاريخ ولامنقطعاً بعده وإنما ذلك لغياب وجود الشواهد.

ومن الكتابات التي عليها تاريخ:

١- . . . هذا قبر حسين بن محمد الخلاطي رحمه الله توفي في شهر ربيع الآخر . . . ومات في سنة سبعة وستين وخمسماية . . . .

٢- البقاء لله حكم المنية في البرية جار ما هذه الدنيا بدار القرار هذا قبر منصور بن الحاجي القاسم الجاجرمي توفي في يوم الخميس الاحدى والعشرين من جمادي الآخر . . . . سنة ست وسبعين وستماية.

٣- بسم الله الرحمان الرحيم لا إله إلا الله محمد رسول الله لا إله

إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون.

٤- هذا الأجل الأكبر الأكرم شهيد حاج بن أعويك بن حاج المالقي وذلك كله سبع وعشرين من شهر شعبان سنة تسع وثمانون وستماية.

٥- من مات غريباً فقد مات شهيداً هذا لمشهد الشاب الأعز قرنطاً تكين ابن سلطان خان توفي في شهر تموز سنة ثمانية وتسعين وستماية.

٦- هذا قبر المرحومة الصالحة الراكعة الساجدة فاطمة بنت نبنا أحمد تغمدها الله بالرحمة والرضوان توفيت في الثالث عشر من شهر الله المبارك رمضان عظم الله بركته لشهور سنة سبعماية من الهجرة النبوية وصلى الله على محمد وآله أجمعين.

٧- قال الله تعالى كل نفس ذائقة الموت انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء الشيخ الأجل الكبير منبع الاحسان الحمد العفو ولي الكرمات الجزيلة الفائزة بالكل الجميلة شهامة الدام بالدين ابن داقاب بن اسفهسالار اليلاشاقوني أنار الله مرقده وطيب مشهده في أحسن العيد للأول من شهر ربيع الآخر عام إحدى وسبعماية من الهجرة النبوية والرحلة المصطفوية.

٨- . . . بكر بن . . . عشر صفر سنة . . . . ستماية غفر الله له ولوالديه.

٩- المتوفي الشهيد أمير سيد أجل طغانشاه بن سيد أجل عمر بن سيد أجل أميران بن أمير اسفهسالار در بكر في البخارى نوّر الله مضجعهم وجعل الجنة مثوبهم كانت وفاته في التاسع من شهر صفر سنة اثنان وسبعماية.

١٠- إنا لله وإنا إليه راجعون هذا قبر المرحوم المذنب الراجي إلى رحمة ربه وغفرانه نبينا محمد بن عبدالله يعرف. . . . توفي في نهار السبت من جمادي الآخر سنة أربعة وسبعماية.

١١- قال الله تعالى كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام كل نفس ذائقة الموت إنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور قال النبي عليه السلام من مات غريباً فقد مات شهيداً توفي المرحوم الراجي إلى رحمة الله وغفرانه الشيخ الفاضل للأكاراب عمر. . . . غفر الله له في شهر ربيع الآخر سنة ثالثة وسبعماية.

١٢- من مات غريباً فقد مات شهيداً صدق رسوله صاحب هذا القبر المتوفي السعيد الشهيد إلى رحمة الله تعالى حسين بن حاج العروس سير الله حفره في التاريخ ثلاث عشرين من شهر صفر سنة أربع وسبعمائة.

١٣- . . . توفي الشيخ المرحوم السعيد وصل إلى رحمة الله تعالى خواجة ثمال الدين بن محمد بن أصهب ابراهيم نور الله قبره في التاريخ الثالث عشرة من شهر محرم سنة عشر وسبعمائة.

١٤- . . . ابوبكر بن حسين . . . . تاريخ أوليط شهر ربيع الآخر سنة سبع عشرة وسبعماية.

١٥- هو الحي الباقي كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون قد توفيت أجرها السعيدة الشهيدة المرحومة المغفورة شيرين خاتون بنت حسين سولي نور الله قبرها وجعل الجنة مضجعها من الدار الفانية إلى الدار الباقية في الحادي والعشرين من شهر الله المبارك رمضان سنة احدى وعشرين وسبعماية من التاريخ الهجري النبوي المصطفوية

وصلى الله على محمد وعلى آله أجمعين..

١٦- . . . . وصل إلى رحمة الله تعالى لقبر نور أنسا ابن خواجه بلد الشاه ابن خواجه حاج حاربك خوارزمي نور الله قبره وجعل الجنة مضجعه من الدار الفانية إلى الدار الباقية في الاثنان والعشرين من شهر الله رمضان سنة اثنان وعشرين وسبعماية من التاريخ الهجرة النبوية المصطفوية صلى الله على محمد وآله أجمعين.

١٧- قال النبي عليه السلام من مات غريباً فقد مات شهيداً من أعرض عن الدنيا وصل إلى رحمة الله تعالى شمس الدين بن نور الدين بن اسحاقان شهر نساي في يوم الجمعة سبع وعشرين من شهر المحرم سنة خمس وعشرين وسبعمائة.

١٨- هو الحي الباقي هذا قبر الشهيد السعيد المرحوم وصل إلى رحمة الله تعالى محمد بن سعود نخش يوم الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة ست وعشرين وسبعمائة اللهم. . .

١٩- هذه قبرة الوالدة العزيزة المشهورة الصالحة فاطمة خاتون بنت على تكن الكوحاتي غفر الله برحمته ورضوانه من ست شهر ربيع أول في يوم الأحد سنة تسع عشرين وسبعماية من هجرة النبوية عليه الصلاة والسلام در هشتم ماه دوازده خطائي در سال نهگ.

٢٠- انتقل من دار الغرور إلى دار السرمدي واتصل إلى رحمة ربه الغيورة السعيدة الصالحة الساجدة الزائرة خديجة خاتون بنت للصدر المرحوم حوار معين الدين التهاني في تاريخ يوم الساهر من سرال سنة ست وثلاثين وسبعمائة.

٢١- قال الله تعالى ﴿وماجعلنا لبشر من قبلك الخلد أفان مت فهم الخالدون كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنةً وإلينا

ترجعون﴾ قال النبي ﷺ [إن أكرمكم عند الله أتقاكم]. . . . كانت في تاريخ الخامس من ربيع الأول سنة ثامن وثلاثين وسبعمائة.

٢٢- هو الباقي انتقل من الدنيا إلى العقبى واتصل إلى رحمة الله تعالى خواجة على بن عثمان الكيلاني تغمده الله بالغفران في الخامس من المحرم الواقع في ماه. . . . سنة تسع وخمسين وسبعمائة.

٢٣- انتقل من الدار الفانية إلى الدار الباقية واتصل إلى رحمة الله تعالى المرحوم السعيد الشهيد نعلوان بانان بن قاسم اصفهاني تغمده الله بالرحمة والرضوان واسكنه بحبوحة الجنان في سنة تسع وخمسين وسبعمائة.

٢٤- كل نفس ذائقة الموت انتقل من الدار الفانية إلى الدار الباقية الأبدية حسين اسماعيل الخالي في شهور سنة أربع وستين وسبعماية.

٢٥- هو الباقي انتقل من الدنيا إلى العقبى واتصل إلى رحمة الله تعالى حاجي خواجة بن حسا المردم يبكى الغى في التاريخ الخامس عشر من شوال سنة أربع وستين وسبعمائة.

٢٦- هو الباقي انتقل من الدنيا إلى العقبى بها الدين عمر ابن أحمد العامي التبريزي في التاريخ الثامن من شهر . . . . اربع وستين وسبعماية.

٢٧- توفى الأمير التوتقاسون أمير على بن حسن بن على الغروس غفر الله له ولوالديه يوم الجمعة في شهر رمضان سنة اثنين وسبعين وسبعماية.

٢٨- بسم الله الرحمان الرحيم كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام. توفيت الأمة الفقيرة فاطمة بنت موسى ابن على الموسى يوم السبت الثالث من المحرم من. . . .

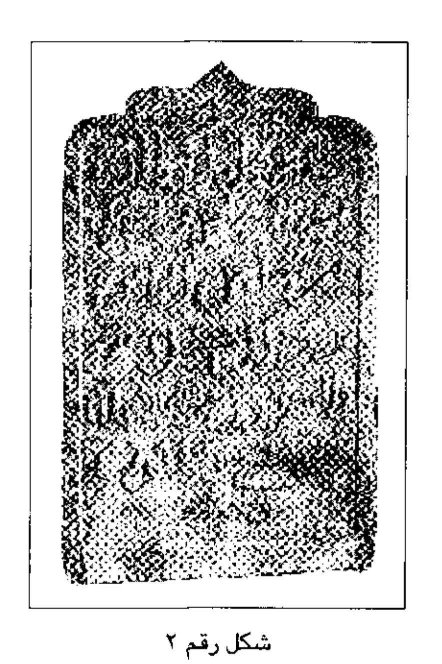
وقد كثرت هذه النقوش والنصوص المكتوبة بالعربية على شواهد القبور ويوحي أكثرها أنها لأقوام من إخواننا المسلمين غير العرب وذلك من الأسماء المذكورة فيها إلا ماكان من النص الأخير فربما كانت لأمرأة عربية.

وعلى أية حال فإننا نعتقد أنها نصوص مهمة تنبغي دراستها واستخلاص النتائج منها لمعرفة حال المسلمين الذين كانوا موجودين في الصين في تلك العصور ومعرفة علاقة الصين بالبلدان الإسلامية على ضوء ذلك.

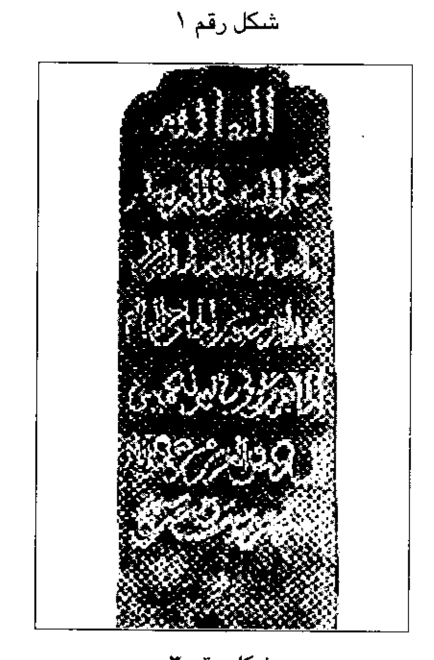
وهذه صور لبعض الشواهد والنصوص المؤرخة المكتوبة بالعربية في مقابر كانتون (قوانقتشو):



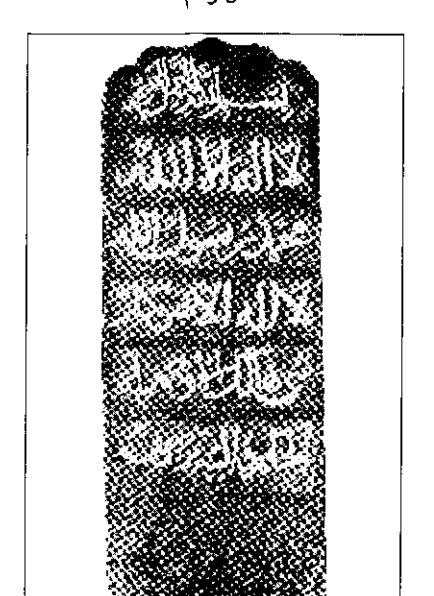
شكل رقم ١



شكل رقم ٢



شكل رقم ٣



شكل رقم ٤

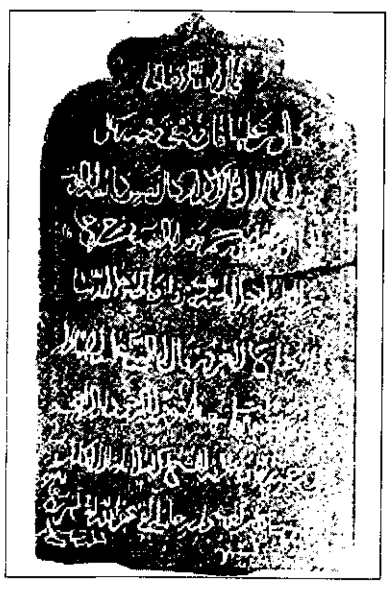
شكل رقم ٥



شكل رقم ٦



شكل رقم ٧

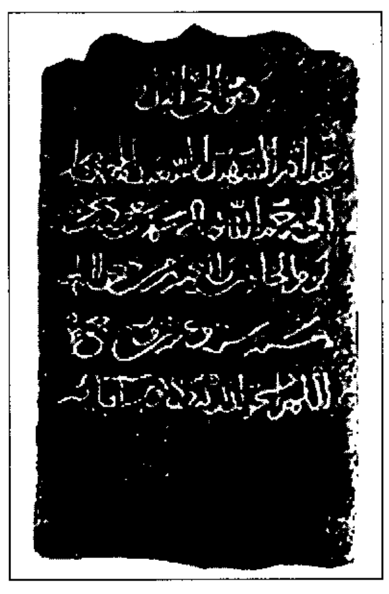


شكل رقم ٨

شكل رقم ٩



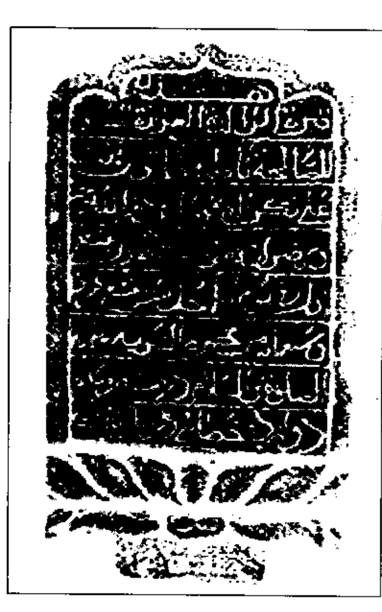
شكل رقم ١٠



شكل رقم ١١



شكل رقم ١٢



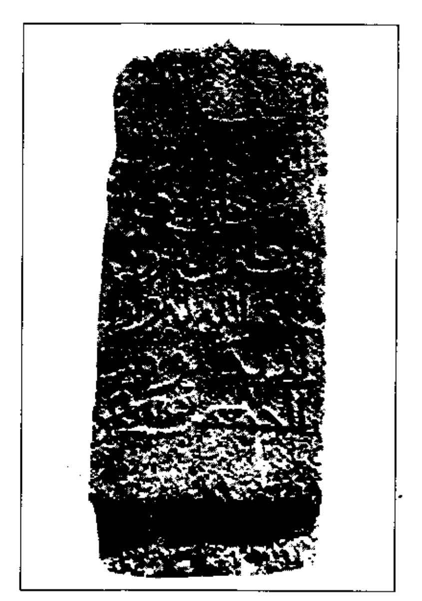
شكل رقم ١٣



شكل رقم ١٤



شكل رقم ١٥



شكل رقم ١٦

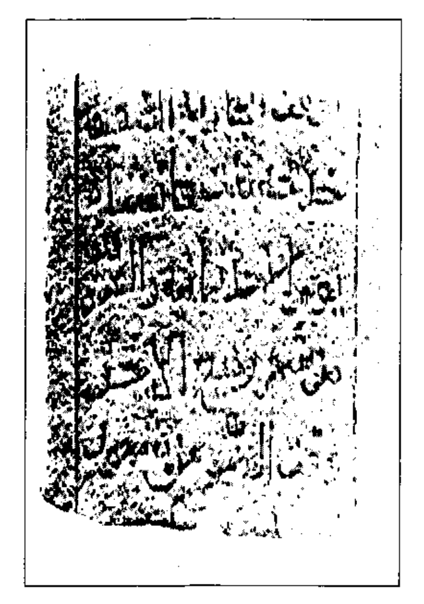
شكل رقم ١٧



شكل رقم ١٨



شكل رقم ١٩



شكل رقم ٢٠

شكل رقم ٢١



شكل رقم ٢٢



شكل رقم ٢٣



شكل رقم ٢٤

مسجد المعسكر الشرقي:

تركنا هذه المقبرة التي حفلت بما هو بدعي من البناء على القبور وتعظيمها بالدعاء عندها وتوجيه اليدين إليها في حال الدعاء لا إلى القبلة قاصدين مسجداً هو المسجد الثاني في مدينة كانتون وذكروا لنا أنه يسمي مسجد (تونغ يانغ) ومعناها: المعسكر الشرقي. وذلك أنه كان في جيش الامبراطور جنود مسلمون في هذا المعسكر الشرقي فبني هذا المسجد من أجلهم.

ولايوجد المعسكر الآن وإنما يوجد حي من أحياء كانتون التي تعتبر قديمة نوعاً ما أو متوسطة في قدمها فلا هي بالحي الحديث ولا بالقديم التاريخي مع أن الحداثة في الأحياء في المدن الصينية بعد الثورة الشيوعية هي نسبية، إذ لاتوجد أحياء حديثة أي ذات بيوت مبنية حديثاً، لأن الناس لايبنون البيوت فهم أفقر من ذلك، وإنما يقتصر بناء المساكن على الحكومة التي تبنيها على هيئة أبنية (عمارات) متعددة الطوابق ذات شقق تؤجرها بأجور ضئيلة على موظفيها وعمالها وذوي الحظ الحسن من الناس.

دخلنا إلى المسجد مع زقاق معتاد من الشارع العام في رأسه باب المسجد الخارجي مكتوباً عليه بالعربية: «المسجد لله تعالى» وتحتها معناها بالصينية.



داخل مسجد تونغ يانغ في كانتون

ثم أفضى المدخل إلى

فناء مكشوف غير واسع مبلط بالحجارة في جهة منه غرف كتب على إحداها: «إنا لله وإنا إليه راجعون» وأخبرونا ان هذه الغرفة تستعمل لتجهيز أموات المسلمين.

والمسجد غير واسع وهو من طابق واحد مبني بالخشب على الطراز الصيني التقليدي وفي محرابه كتبت الآية الكريمة: **﴿الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل﴾**.

وقد أخبرونا أنه لاتقام فيه الجمعة لقلة عدد الذين يحضرون، وإنما تصلي فيه الصلوات الخمس وأحدهم قال: بعض الصلوات الخمس مثل صلاة العصر التي يحضرها نحو عشرة مصلين.

يرجع تاريخ بناء المسجد إلى ماقبل ثلثمائة سنة وسنتين قال الاخوة ذلك بعد أن حسبوا تاريخ إحدى الأسر الحاكمة.

وأخبرونا أنه قد جرى تجديده وترميمه مؤخراً من تبرعات المسلمين من داخل الصين ومن هونج كونج مع انه كانت توجد مساكن موقوفة عليه ولكنهم لم يفصحوا لنا عما جرى لها.

العودة إلى الفندق:

خرجنا من الزقاق الذي يقع فيه المسجد وكانت السيارات واقفة في الجهة المقابلة من الشارع فظللنا فترة واقفين لكثرة الدراجات التي كانت تمر في الشارع رغم كون المرافقين يحاولون ان يوقفوا مرورها من أجلنا وذلك لأن هذه الساعة التي تقارب الثانية هي ساعة انتهاء الفترة الصباحية من العمل.

إلا أن الدراجات هنا على كثرتها هي أقل منها في بكين بالنظر إلى الفارق السكاني الكبير في حجم بكين التي هي أكبر وأكثر سكاناً من كانتون.

وعندما رأيت الأطفال بكثرة في أزقة هذا الحي تذكرت من وجودهم هكذا ومن أشكالهم على البعد كثيراً من البلاد التي يوجد فيها الجنس الملايوي الذي يشمل الأندونسيين والماليزيين والفلبينين والتايلنديين. وهم يختلفون عن سكان شمال الصين اختلافاً كبيراً كما أنهم يختلفون كلية عن سكان مقاطعة سينكانج أو تركستان الشرقية.

ولقد رأيت بعضهم معهم حزم صغيرة من الأسماك التي يذهبون بها إلى بيوتهم فلم أجد في طريقة حملها ولا في هيئاتهم وهم يحملونها وبخاصة عندما يمشون الهوينا مشياً قصير الخطى واحياناً يكون فيه جنوح خفيف ذات اليمين وذات الشمال مما شدني إلى ملاحظة الشبه العظيم بينهم وبين الجنس الملايوي المتقدم ذكره.

ولا عجب في ذلك لأن كثيراً من الباحثين يقولون: إن أهل الجنس الملايوي جاءوا في الأصل من جنوب الصين واعتقد ان هذا صحيح.

وعند العودة إلى الفندق رأيت ان السيارات الصغيرة والحافلات الصغيرة هنا أكثر منها في بكين فضلاً عن المدن الشمالية الأخرى ولاشك في ان سبب هذا هو سبب وجود سيارات الأجرة بكثرة في شوارع كانتون هذه لكونها مدينة سياحية تجارية يفد إليها عدد أكبر من السياح والتجار وهم يحملون نقوداً كثيرة ويحتاجون إلى هذه السيارات بخلاف المدن الصينية الأخرى فهي أقل منها في عدد السياح والتجار الذين يفدون إليها. وذلك بسبب تسهيل دخول هؤلاء من قبل الحكومة الصينية التي كانت تعطيهم سمات دخول محدودة إلى هذه المدينة ونحوها ولاتكون صالحة للذهاب إلى غيرها من المدن.

وكان الغداء في مطعم الفندق صينياً مخففاً لأنه غير رسمي.

وكانت المتعة في العودة إلى إطلالة من نافذة غرفتي في الفندق على اقتران المياه النهرية من تحتها ثم امتزاجها بحيث تبدو كالبحر العظيم. وقد ازدحمت بالقوارب على ظهرها كما تزدحم الشوارع بالسيارات في المدن الأخرى.

في متحف الحديقة:

كان البرنامج يتضمن فقرة بعنوان: زيارة حديقة(إيو تشيو). وكان وضع هذه الفقرة في البرنامج بعد الظهر مريحاً لي لأنه يأتي بعد يوم عمل غير ان إخوتي أعضاء الوفد آثروا عدم زيارة الحديقة وأن يستبدلوا بذلك جولة في أسواق هذه المدينة التي هي آخر مدينة صينية في زيارتنا هذه عسى أن يجدوا فيها مايستحق الشراء والإهداء.

ذهبت أنا مع الأخ المترجم (لقمان ماشان لي) وأحد الإخوة من الجمعية الإسلامية هنا .

دخلنا الحديقة في الثالثة والنصف ظهراً فرأينا طوائف من الناس من ذوي الملامح الصينية موجودين في الحديقة بكثرة ورأيناها واسعة فيها تلال وأماكن منخفضة بعضها فيها بحيرات طبيعية فقصدنا الأهم فيها وهو المتحف الذي يقع في بناء مرتفع على تلة عالية ويشرف منه على جزء كبير من المدينة وكان يشرف قبل ذلك على المدينة كلها والبحر من ورائها ولذلك كان اسم هذا البناء في القديم: «رؤية البحر». . قالوا: إن تاريخ إقامة البناء القديم كان في عام ١٣٨٠م وكان خمس طبقات من الخشب يبلغ ارتفاعه ٢٨ متراً وكله من الخشب الخالي من المسامير.

وهذه طريقة عند الصينيين للتأنق في البناء بالأخشاب عندهم في

القديم حيث كانوا لايضعون المسامير في الأبنية المهمة التي يعتنون ببنائها، وإنما يداخلون بينها بأجزاء صغيرة من بعض القطع تدخل في أماكن محفورة في قطع أخرى. إلا انه احترق في عام ١٩٢٨م وذهب كله فبنوه بناءه العالي ولكن من الأسمنت المسلح ومن ذلك التاريخ أصبح هذا المبني متحفاً وكان في السابق جزءاً من الحديقة ليس فيه معروضات لأنه هو نفسه كان يعتبر متحفاً لارتفاعه إلى مستوى خمسة طوابق وكونه يرى منه البحر.

وبعد الثورة الشيوعية ضم إلى الآثار الهامة في البلاد مع ان بناءه الحالي ليس قديماً. ومايزال اسم (رؤية البحر) باقياً رغم كون الذي فيه لايرى البحر الآن لوجود أبنية مستحدثة حالت بينه وبين البحر. بل حالت بينه وبين رؤية الجزء الأكبر من المدينة الذي كان يرى منه وأصبح المرء يرى من معالم المدينة إذا صعد أعلاه برجاً مهماً للمياه. وملعباً رياضياً كبيراً.

مدينة الوعل:

من أعظم التماثيل التي يقف عندها الناس هنا إثارة للاهتمام والتعليق عندهم تمثال لوعل وصغاره وذكروا ان السبب في ذلك أن القوت شح في سنة من السنوات في المدينة حتى كاد أهلها يموتون جوعاً إلا أن وعلاً جاءهم وصار يخرج إلى الخلاء فيحضر ثمار التوت من الأشجار البرية ويطعم الناس.

قالوا: ولذلك كانت مدينة كانتون تسمى «مدينة الوعل» في القديم. وبالنظر إلى ان هذه الحكاية بشكلها المجرد لاتصح روايتها فإنهم قد قالوا في القديم في زمن الروحيات وقبل الشيوعية إن ذلك

الوعل كان ملكاً جاءهم على هيئة وعل وعلى أية حال فإنهم نصبوا للوعل وصغاره تمثالاً أصبح الإطلاع عليه مهماً لمن يزور هذا المتحف.

وجدير بالذكر ان مدينة كانتون لايسميها أهلها بهذا الاسم على هذه الصيغة وإنما سموها (قوانقتشو) وهذا له نظائر كثيرة في الصين مثل (بيكنج) العاصمة بالانجليزية على حين ان أهلها ينطقون بها (بي جن). وأمثال ذلك في غير الصين كثيرة جداً مثل دمشق (داماسكس) بالانجليزية أو (داماس) بالفرنسية والقاهرة (كايرو) بالانجليزية، أو (لاكير) مع التعريف بالفرنسية. بل ان مدينة ميونخ في ألمانيا اسمها عند الألمان (منشن).

تركنا الوعل الخرافي. والخرافة عاشت ومازالت تعيش بين كثير من الشعوب إذا فقدت الرواية الصحيحة للتاريخ بحثاً عن الحقائق المجردة الملموسة هنا وكأنما كان منظمو المتحف يستجيبون لرغبتنا إذ وجدناهم عرضوا في الطابق الذي يلي الأول الذي فيه تمثال (الوعل) مخلفات أثرية قديمة أكثرها كانت مطمورة محفوظة في الأرض وكلها من منطقة (كانتون).

منها أوان نحاسية وأوان فخارية قديمة كتبوا عليها أنها صنعت في عام ٢٢٦ قبل الميلاد، وقالوا: إن ذلك يعني بداية العمارة في مدينة كانتون نفسها التي ترقى العمارة فيها إلى أكثر من ذلك التاريخ.

بداية اللغة الصينية:

لعل من أكثر الأشياء التي ذكروها فائدة للغريب وأكثرها امتاعاً له أنهم قد رسموا رسوماً بيانية في أقسام من المتحف لكثير من الأشياء تحتوي الايضاحات اللازمة لفهمها ومن ذلك ماذكروه عن تطور

الكتابة الصينية منذ ماقبل ميلاد المسيح عليه السلام بكثير حتى الوقت الحاضر وقد ظهر من ذلك تطور أشكال الكتابة عندهم ولا نقول الحروف لأنه ليس في اللغة الصينية حروف هجائية كالتي في اللغات الأخرى. وإنما هي الأشكال للمعاني أو الأشياء التي تدل عليها الكلمات.

وكانت اللغة الصينية في القديم تحوي شكلاً خاصاً لكل مسمى على حدة ولذلك شاع ماقيل من أنها كانت مؤلفة من أكثر من خمسين ألف حرف ويراد بذلك أكثر من خمسين ألف شكل من أشكال الكتابة.

ولكي نوضح الأمر نذكر شكلاً هنا رأيناه اليوم هذا الشكل هو في الأصل كتب أو رسم على هيئة الحصان أي انه أشبه مايكون برسم مجمل أي بدون تفاصيل أو لنقل برسم فج لشكل الحصان ويراد منه أن يدل على الحصان فإذا فرض أنك أردت ان تكتب مثلاً: أعطي الملك فلاناً (حصاناً) فإن الكلمة الأخيرة تكون على هيئة حصان.

هذه هي كتابة الكلمة أو الرسم المخصص للدلالة على الحصان فما هو لفظها؟ الجواب لفظها (ما) وهو مقطع واحد من المقاطع الكثيرة التي تتألف منها اللغة الصينية.

وإذا تركنا الحصان وشكله الذي تطور في الكتابة ولكنه لم يخرج عن كونه توجد فيه أربع أرجل كما توجد للحصان أربع قوائم فإنه لن يتركنا لماذا؟

لأننا إذا سألنا مثلاً عن شيء مستجد في الصين تماماً وليس له شكل أو رسم قديم موروث عن الأجداد فيها ولنقل مثلاً انه اسم (محمود) كيف يكتبونه؟ والجواب: إن الكتابة بالأشكال أو الرسوم

تسعفهم بذلك فيحولونه إلى ثلاثة مقاطع وهي (ما) يضعون لها شكل الحصان في الكتابة الأصلية القديمة الذي طوروه ولم يخرج عن الشكل الذي له أربعة أرجل هذا للمقطع الأول ثم يجعلون لبقية الكلمة وهو مود مقطعين آخرين أحدهما (مو) والثاني (دو) أو (دا).

وهكذا.

أرأيت كيف أن حروف الهجاء عندنا لاتقدر بثمن؟

جزيرة العرب آخر الدنيا:

من ألطف ما في هذا المتحف الذي رسموا فيه ماكان الصينيون القدماء، أو لنقل ماكان الصينيون في القديم يعرفونه أو يعتقدون به كيلا يشط بنا معنى كلمة القدماء إلى مرحلة موغلة في قديم التاريخ.

ومن ذلك على سبيل المثال مايتعلق بنا نحن العرب انهم رسموا خريطة للمواصلات في العالم القديم الذي كانوا يعرفونه فرسموا فيها الجزيرة العربية في آخر الدنيا!

وذلك أنها كانت بالفعل آخر ماكان الصينيون في القديم يعرفون ان السفن التي تأتي إليهم من ذلك العالم الغربي البعيد تصل إليه من تلك الجهة.

وهناك مخلفات محددة ونماذج كثيرة توضحها الرسوم البيانية أيضاً لما كان الصينيون القدماء يستعملونه من أدوات الحرث والزرع.

وحتى بيوت الفلاحين القدماء ولم نرها تختلف عن بيوت الفلاحين في هذه المنطقة في الوقت الحاضر إلا في كون البيوت القديمة تكون مدورة وأما هذه الحديثة فإنها تكون في الغالب مربعة وكلها

مقامة من الخشب المتوفر في بيئتهم المطيرة .

والواقع ان فكرة الرسوم الايضاحية مهمة جداً ينبغي تنفيذها في متاحفنا بمعني الانقتصر على النماذج الموجودة، وإنما نرسم لها رسوماً إيضاحية تشرحها وتوضح ماخفي من أمرها وتبرز التفصيلات التي لاتكون بارزة فيها .

السفينة العربية :

ومثلما كان موقع الجزيرة العربية بارزاً في هذا المتحف المهم في الخريطة التي أبرزتها آخر نقطة تصل إليها المواصلات مع الصين من جهة الغرب فإنهم أيضاً قد خصصوا رمزاً بارزاً لسفينة أسموها (السفينة العربية) وهي قادمة إلى كانتون .

وذلك لكي يرمزوا من ذلك إلى قوة العلاقات التجارية مع الصين عامة ومدينة (كانتون) بصفة خاصة التي تعتبر منفذ التجارة البحرية العربية إلى الصين .

وزادوا الأمر إيضاحاً برسم رسموه (لمسجد المنار) ومنارته الشامخة في ذلك الوقت وهذا كله من أجل إبراز العلاقة التي كانت قوية بين العرب المسلمين وأهل الصين . وقد عرضوا إلى جانب ذلك عملة ذهبية عربية . ونموذجاً لكرسي عربي قديم .

ومن الملفت للنظر أنه مع إبرازالعلاقات العربية الصينية هنا التي هي في الحقيقة علاقات مابين المسلمين والصينيين . ومن ذلك رسمهم لمسجد المنار ومأذنته انهم لم يبرزوا العلاقة مابين الأديان الأخرى والصين كالمسيحيين مثلاً الذين كان ينتظر أن يرسموا لهم كنيسة ولا لأي دين آخر .

وذلك حقيقة واقعة من كون الدين الرئيسي الوحيد الذي كان أهله يتعاونون مع الصين في الزمن الوسيط في العلاقات التجارية وغيرها هو الدين الإسلامي الحنيف.

وقال لي أحد الإخوة المرافقين ان الصلات مابين المسيحية وأهل الصين ترتبط في أذهان الصينيين بالاستعمار الأوروبي و(حرب الافيون) ومحاولة قهر الصينيين وذلك أمر غير محبوب وغير مرغوب فيه على حين ان العلاقات مع الإسلام ترتبط في أذهانهم بالتجارة والتعاون السلمي على مافيه المصلحة المشتركة.

أركان الأسر الحاكمة:

من القول الذي كررناه أكثر من مرة ان الصينيين يؤرخون بتاريخ الأسرة التي كانت تحكم بلادهم لذلك كانت عهود تلك الأسر ذات أهمية كبيرة من الناحية التاريخية.

ومن أجل ذلك خصصوا لكل أسرة حاكمة ركناً في هذا المتحف يتحدث عن تاريخها ويرسم إيضاحات بيانية عن أحوالها ويعرض بعض مخلفات عصرها إن وجدت.

ومن تلك المخلفات مخطوطات على هيئة رسائل ووثائق ونصوص كما انهم عرضوا فيها بخوراً من العنبر والعود.

وهناك ركن أقاموه لعرض المخلفات الحرفية قالوا: ان بعضها يرجع تاريخه إلى ثمانمائة سنة. وقد رسموا صورة فلاح صيني قديم بملابس طويلة واكمام تغطي اليدين كما هو مستعمل في بعض الملابس الصينية القديمة. ولاحظت ان هذه الملابس ليس لها جيوب.

وعرضوا بجانب هذه الصورة صورة لقطة وحشية مما نسميها في

بلادنا (التفه) وهي تسمية عربية قديمة، إذ كان العرب يقولون في أمثالهم: . . «أغنى من (التَّفَة) عن الرفة» والتفة هي السنور البري والرفه هو التبن. وذلك ان هذه القطة الوحشية لا تأكل إلا اللحم فهي من السباع المفترسة.

ولا أدري معنى مناسبة عرضها مع صورة الفلاح القديم إلا ان يكون ذلك لكونها موجودة عندهم في الريف بكثرة.

ولم ينسوا السفن فعرضوا نماذج مصغرة لسفن صينية قديمة بعضها - أي النماذج - مصنوع من العاج وبعضها من الخشب.

ركن الثقافة:

خصصوا أيضاً ركناً في المتحف مهماً للثقافة بعضها للثقافة في عهد أسرة من الأسر الحاكمة مثل أسرة مينغ التي كانت موجودة قبل ستمائة سنة.

وبعضها عام مثل ما يعرف بكيفية الطباعة عندهم والصينيون أول من عرفوا الطباعة من الشعوب وإن كان ذلك على طريقة مختلفة عما نعرفه نحن عنها الآن. ومنها أوراق مطبوعة قديماً وأظن أنها نماذج مستحدثة منها وليست طبيعية. مثل بعض الصور الخيالية لشخصيات تاريخية بارزة في تاريخ الصين.

ثم عرضوا أدوات فلكية قديمة ومعها ساعات جميلة مصنوعة في مدينة كانتون مابين عامي ١٧٣٦م - ١٧٩٥م.

مرحلة حرب الأفيون:

حرب الأفيون من الأحداث الشهيرة في تاريخ الصين الحديث.

وقد أوضحوا أحداث تلك الحرب في بيانات إيضاحية، ورسوم كاملة من عام ١٨٤٠م، إلى ١٨٤٩م . وقالوا: إن أجزاء من الصين في ذلك الوقت كانت مستعمرة، وان الصين تبدو نصف مستعمرة.

الفتيل الصينية :

الفتيل: بندق من البنادق القديمة جداً التي عرفناها بل هي أقدم أنواع البنادق وتسميتها بالفتيل عربية لا أصل لها في الاعجمية وذلك أنها تطلق بأشعال طرف الفتيل وهو خرقة مفتولة مشربة بالبارود تسير فيها النار حتى تصل إلى الذخيرة في البندق حيث يشتعل البارود وتطلق البندق.

ولها في الشعر العامي عندنا مكانة عظيمة لأنها ذكرت في الحروب التي كانت هي طابع الحياة العامة في تلك العهود.

وذكروا ان هذه الفتيل وجمعها عند بني قومنا (فتايل) هي مصنوعة في (كانتون) نفسها.

ومع ذلك لا أظن ان الصينيين افتخروا بصنعها بمقدار ما افتخر قومنا بحيازتها واستعمالها في الحروب فيما بينهم.

ولا أدري أمن المصادفة كونهم عرضوا بعد ذلك مباشرة رسوماً وبيانات توضح ثورة الفلاحين في الصين في أول هذا القرن الميلادي أم ان ذلك جاء مصادفة.

وإنما الشيء المؤكد انهم وهم يرسمون ويوضحون مراحل تاريخ بلادهم قد ذكروا المرحلة التي وصل فيها المسيحيون وعرفوهم فيها عن طريق إرساليات التنصير الذي قد يسميه بعض الناس بالتبشير و ذكروا ان المسيحيين جاءوا ومعهم الانجيل يعطونه الصينيين، ويأخذون باليد الأخرى عوضاً عنه الأرض!

صن يات صن وكانتون :

صن يات صن : هو الزعيم الصيني الشهير الذي يسمونه هنا (أبا الثورة) وبعضهم يسميه (أبا الجمهورية) لأنه الذي قاد البلاد للجمهورية.

وقد عرضوا الركن المتعلق بتاريخه يتوسطه تمثال صغير ، مع رسومات وبيانات تذكر عهده ولكن من دون ابراز وتبجيل.

ومن المعروف ان الشيوعيين الذين يحكمون الصين في الوقت الحاضر قد حاربوا الجمهوريين الذين يعتبرون أنفسهم أتباعاً لصن حرباً مريرة حتى انتزعوا الحكم منهم واضطرت بقيتهم الباقية القليلة إلى النزوح عن البر الصيني إلى جزيرة تايوان (فرموزا) فأسسوا فيها دولتهم بزعامة (تشان كاي تشك).

و(صن يات صن) هو أيضاً من بلدة غير بعيدة من (كانتون) وجهر بثورته في (كانتون).

لذلك احتفوا بعهده هنا.

ومن المعروف ان (صن يات صن) ولد في عام ١٨٦٦م وأسقط أسرة تشينغ في عام ١٩١١م وتوفي عام ١٩٢٥م وقد احتفت المدينة به حينما أقامت له تمثالاً كبيراً مرتفعاً ربما كان موجوداً قبل الشيوعية.

وقد رأيناه من الطابق العلوي في المتحف ضخماً شامخاً لأنه مقام على مكان مرتفع وبجانبه جهة اليسار قبة تذكارية صينية مسترخية وبقربه خزان للمياه كبير ذو قبة خضراء شبيهة بالقباب العربية.. فاجتمع للنظر قبتان مختلفتا الطراز والألوان.

جولة في الحديقة:

بعد الاستمتاع بزيارة هذا المتحف الذي هو في الحقيقة جيد ولكنه

دونماينبغي ان يكون في هذه المدينة الصينية التاريخية المهمة قمنا بجولة على الحديقة بالسيارة لأنها أوسع من ان نستطيع في وقتنا الذي حددناه ان نتمشى فيها على الأقدام.

وتجلى الذوق الرفيع وحسن الاختيار لمكان الحديقة عندما رأينا الروابي الخضر التي تحفل بها الحديقة والبحيرات الطبيعية الصغيرة التي تنتشر في الأماكن المنخفضة فيها. وهي كبيرة واسعة. وأخبرونا أنها دائمة الخضرة لأن مدينة كانتون لاتشهد برداً شديداً في الشتاء، ولذلك لايستعملون المدافيء فيها بخلاف وسط الصين البارد وشمالها الشديد البرودة في الشتاء.

وهذه الحديقة حسبما نوهوا به كانت حديقة خاصة في أصل إنشائها ثم جعلتها الحكومة الشيوعية عامة ووسعتها إلى ماهي عليه الآن.

ووصلنا إلى ركن في الحديقة يقابل الحديقة التي فيها مقبرة (أبي وقاص) وأخبرونا أيضاً ان بعض المقابر القديمة والتلال التي كانت خارجة عنها قد أدخلت فيها.

عودة إلى قلب المدينة:

وطلبت أن نعود إلى قلب المدينة لأعيد النظرات إليها وإن لم أعد النظر في حكمي عليها أنها ذات طابع خاص مخالف لبقية المدن الصينية وبخاصة في ظهور بعض الخصائص الرأسمالية كما يسمونها مثل كثرة سيارات الأجرة التي تجري في الشوارع وفيها من الحافلات التي تسير بالكهرباء (ترويلي باص) مثل شنغهاي وبكين وهي غير موجودة في أكثر المدن الرئيسية البعيدة عن عيون الأجانب.

حتى الملابس هنا هي غير موحدة بخلاف أكثر الصينيين الآخرين.

وعدنا إلى شارع (تاجي) التي هي الكلمة العربية (تاجر) حرفت على ألسنة الصينيين ومعناها في افهامهم (عربي)، لأن العربي (تاجر) أو هو التاجر كما هي عليه الحال في بلدان أمريكا الجنوبية حيث يعمل العرب الذين هم من أهل الشام الكبير الذي يشمل مايسمى الآن سوريا ولبنان والأردن وفلسطين كلهم يشتغلون بالتجارة، ويكاد يكون اسم عربي عندهم مرادفاً لاسم (تاجر). وإن كان بعض أبناء المهاجرين القدماء من العرب في أمريكا الجنوبية الذين ولدوا هناك وتعلموا اصبحوا من ذوي المناصب فعددهم قليل لاينفي صفة التجارة عن العرب بصفة عامة حتى الآن.

حفلة المسؤولين في المدينة:

جاء في البرنامج ذكر حفلة عشاء قال لنا الاخوة المرافقون ومنهم الأخ المترجم (لقمان ماشان لي) بأنها حفلة المسؤولين في الحكومة في مدينة كانتون، وقد عرفنا بعد ذلك أنها ستقيمها إدارة الشؤون الدينية في كانتون وهي إدارة حكومية كما سبق غير أنها ستدعو إليها كبار المسؤولين في المدينة.

وكانت في السادسة والربع من مساء هذا اليوم وفي احدى القاعات المتعددة في فندق (الأوزة البيضاء) وكان على رأس الحاضرين فيها رئيس حكومة مقاطعة كانتون الذي قال لي: إن عدد سكان المقاطعة يبلغ ستين مليون نسمة.

وحضرها كبار أعضاء الجمعية الإسلامية ومن الجانب الصيني الرسمي:

وانغ كانغ نائب رئيس المجلس الاستشاري لمقاطعة كانتون (كواندونغ)

تانغ واي مدير الإدارة والشؤون الدينية لمقاطعة كانتون.

جن دونغ نائب مدير الإدارة والشؤون الدينية لمقاطعة كانتون.

ليو جوي شا موظف في إدارة الشؤون الدينية لمدينة كانتون.

جنغ يو نائب رئيس إدارة شؤون القوميات لمدينة كانتون.

وتضمنت المناقشة بين الحاضرين بأن مدينة كانتون أحد الموانيء الرئيسية التي قدم إليها العرب الأوائل للتجارة في الصين ويبلغ سكان مدينة كانتون حالياً نحو ثلاثة ملايين نسمة منهم ٥٧٠٠ مسلم، أما سكان المقاطعة كلها فهم ٦٠ مليون نسمة ولايتجاوز عدد المسلمين فيها كلها عشرة آلاف شخص.

وقد ألقى نائب مدير الإدارة الدينية كلمة ترحيب بالوفد تمنى فيها تكرار زيارة الوفد لهذه المدينة التاريخية ذات الصلة القوية بالعرب التي تضم مسجد المنار.

فرددت عليه بكلمة مناسبة عما انطبع في أذهاننا عن هذه المدينة خلال زيارتنا التي هي في الحقيقة قصيرة لكن معرفتنا بمدينة (كانتون) طويلة قديمة حيث عرفناها من كتبنا العربية مثلما كان أهل هذه المدينة يعرفون البلاد العربية معرفة قديمة كما شاهدنا هذا في هذا الرسم الذي في المتحف اليوم والذي يبين الصلات التاريخية القديمة مابين كانتون خاصة والبلاد الصينية عامة وبين البلدان العربية وذكرت أنه قد لفت انتباهي الموقف الودي الذي أبرزه المتحف تجاه العرب والمسلمين خاصة في كثير من الرسومات والبيانات التاريخية فيه.

ولقد شعرنا ان ذلك الموقف الودي بل الشعور بالصداقة في القديم قد امتد إلى العصر الحالي، حيث كنا نشعر بذلك في كل مكان حللناه من أرض الصين خلال زيارتنا هذه.

ثم كان العشاء الذي لم يختلف عن عشاء أهل الشمال الصيني الذي زرناه في كونهم أحضروه أنواعاً منوعة قد كتبوا أسماءها بالصينية على قائمة وزعوها على المائدة وضمت أسماء اثني عشر نوعاً من الطعام، غير ان الاختلاف كان في الرئيسي من المأدبة إذ جاءوا بأصناف غريبة لم نرها هناك. وفيها الفطر (المشروم) والربيان (الجمبري) ونوع من الأسماك قالوا: إنه يعيش ما بين النهر والبحر أي في المياه المختلطة وأنهم أحضروه لتوه من الماء فكان حياً قبل الطبخ بمدة يسيرة مما جعله لذيذ الطعم لأنه لم يتعرض للتبريد أو الخزن.

ولقد فعلوا شيئاً اعتبروه مهما إذ نادوا على الطباخ وقالوا: إنه طباخ مسلم، وطلبوا منه ان يسلم علينا، وقد فعلوا ذلك لكي يجعلونا نطمئن إلى ان الطعام من طعام المسلمين رغم كون الذين أقاموا المأدبة من الرسميين الحكوميين غير المسلمين بطبيعة الحال.

ومن الملاحظ هنا ان مضيفات المائدة وعددهن كثير كن يأخذن أطباق المدعوين ويتولين ملأها بالطعام من الأواني الكبيرة التي كانوا يحضرونها مليئة بالطعام ويضعونها في وسط المائدة.

وهذا أمر لم يكن معمولاً به في الشمال، وإنما كانوا يتركون للآكلين ان يأخذوا بأنفسهم مايريدونه من إناء الطعام الكبير.

ومن المراعى هنا ان المضيفات يبدأن بملىء صحن الضيف الكبير أو ضيف الشرف وقد اعتبروني هنا ذلك الضيف ثم يملأن صحون الآخرين، والكل ممسك عن الأكل ينتظر ان يفرغن من افراغ الطعام في أطباق الآكلين حتى اذا اكتمل ذلك أشارت إحداهن بيديها كلتيهما وهي تنحني إشارة الأمر أو الاذن أو الاشعار ببدء الأكل فيبدأ الجميع وهكذا في كل صنف من أصناف الطعام مما جعل وقت المأدبة يمتد ويطول.

وهو امتداد استفدت منه إذ كان بمثابة الوسيلة السهلة للحصول على المعلومات عن حاضر هذه المقاطعة ومافيها.

ولم تختلف هذه المائدة عن موائد أهل الشمال في غرابة الأطباق بالنسبة إلينا فمن ذلك انهم أحضروا نصف قرعة مطبوخة هكذا في إناء كبير وأخذوا يفرقونها في صحون الآكلين وكذلك احضروا نوعاً من الخضار أسود يشبه الطحلب وهو الذي ينبت في الماء العذب الراكد. وأرز مقلي مع البيض ونوع من الحساء (الشربة) حلو الطعم جداً وهذا مالم نستسغه لأننا لم نتعود عليه لاسيما أنهم جاؤوا بها حارة جداً. ودجاج محشو بالفلفل غير الحار.

ولكنهم ختموا مائدتهم هذه بشيء معتاد لنا وهو الفاكهة جعلوها في آخر الطعام وليس في وسطه كما كان يفعل أهل الشمال.

وقد نوهوا بذلك فقالوا: إن طبخنا في الجنوب يختلف عن طبخ أهل الشمال.

ولكنني قلت لهم ماعرفته وجربته وهو ان طعامهم يشترك مع طعام أهل الشمال في كونه لذيذاً وافراً يدل على الكرم في التقديم، وعلى التعب في الإعداد.

يوم الجمعة: ١٠ شعبان ١٤٠٤هـ

هذا اليوم هو آخر أيام هذه الرحلة الصينية الممتعة التي رأينا خلالها من الأشياء الجديدة المفيدة في هذه البلاد العتيدة مالم نكن نطمع ولا في الخيال أن نصل إليه. ولقد ذكرت ذلك فحمدت الله تعالى وشكرته عليه.

وبدأ هذا اليوم بتناول الافطار في السادسة والنصف في الفندق وهو إفطار قد اختلط فيه كذلك ما هو للصين متمثلاً بالخادمات المؤدبات وبالطعام الصيني بما هو للغرب عامة، أو لأمريكا خاصة فمثلاً تقديم بعض الطعام والمشروب فيه على نوعين احدهما على الطريقة الصينية والآخر على الطريقة الغربية مثل الشاي الذي احضروه نوعين، والفرق بينهما ظاهر فالشاي الصيني لايقربه السكر ولايخلط به الحليب.

مغادرة الصين :

كان الخروج من فندق (الأوزة البيضاء) في السابعة والنصف من هذا الصباح لكي نسافر إلى (هونغ كونغ) بالقطار.

وقد تسلموا أمتعتنا ولم يفتشوها على العادة التي جروا عليها في معاملتنا كما تعامل به الوفود الرسمية.

وعندما وصلنا المحطة كان جمع المسافرين ومودعيهم كبيراً بل هائلاً إذ هذه المحطة تكاد تكون البوابة الرئيسية الوحيدة المفتوحة أمام السياح والمسافرين الذي يقدمون من هونغ كونغ ليروا الصين الشعبية ولكنهم في الحقيقة، لايرون منها إلا أول الدهليز القصير الذي ليس بالضرورة أن يكون ممثلاً للدار الواسعة.

فكانتون التي هي دهليز الصين تختلف في أشياء كثيرة عن بقية مدن الصين الشعبية وشعبها يختلف عن بقية الشعب الصيني بل الشعوب الصينية.

وفي المحطة كان توديع مؤثر من إخواننا المرافقين الصينيين حتى انفجر بعضهم بالبكاء ومنهم الأخ (لقمان ماشان لي) جزاه الله خيراً رغم كوننا قد اثقلنا عليه، وكنت أنا بالذات أكثر أعضاء الوفد إتعاباً له إذ كنت الرئيس فكان يجب عليه أن يكون بقربي وأن يترجم كل ماأقوله، وإن يترجم لي كل ما أسمعه، وأنا فضولي بطبعي وبصنعتي.

وتحرك القطار بدون المرافقين في الساعة الثامنة وكانوا ألحوا علينا أن يذهبوا معنا إلى هونغ كونغ فامتنعنا من ذلك وقلنا ان المسافة إلى هونغ كونغ لا تتعدى ساعتين وأربعين دقيقة و(هونغ كونغ) لغتها الرسمية هي الانجليزية ويكفي ما اتعبناهم به من قبل.

ووجدنا القطار جيد التأثيث والإدارة حتى انه يوجد فيه جهاز للتلفزة موضوع في كل عربة مما لم نره في القطارات الأخرى في داخل الصين وذلك لأن القطار يركبه الأجانب كثيراً إن لم يكن ركابه من الأجانب أكثر من الصينيين.

كما انه يصل إلى (هونغ كونغ) التي هي بمثابة مركز التحدي في التقدم المادي لهذه البلاد الشيوعية الجامدة. وقد دفع الصينيون أجرة القطار من (كانتون) إلى (هونغ كونغ) مثلما دفعوا أجور جميع تنقلاتنا داخل الصين بالقطارات والطائرات فضلاً عن المواكب الكبيرة من السيارات وكانت مقاعدنا في الدرجة الأولى من القطار.

وستكون المسافة ساعتين وأربعين دقيقة وهو مسافة ضئيلة جداً بالنسبة إلى أهل الصين الذين يركبون القطارات داخل الصين لمسافات طويلة جداً بعضها يستغرق أياماً وليالي. ولا عجب في ذلك إذا عرفنا ان (هونغ كونغ) هي جزء من الصين. هكذا كانت وهكذا ستكون في وقت قريب مظنون.

ومن الطريف في الأمر أننا أعطينا الإخوة المرافقين قبل تحرك القطار بقية النقود الصينية التي نحملها لأنها لاتنفع خارج الصين، وليست لها قيمة فيه.

وهي وإن كانت قليلة فإنها مهمة في داخل الصين لأن دخولهم محدودة، ورواتبهم ضئيلة.

إلى هونغ كونغ:

انطلق القطار في منطقة ريفية خضراء غنية بالمياه مشمولة كلها بالزراعة كأنها ريف شنغهاي الندي بل الروي.

وأكثر المزروعات التي نراها من القطار خضروات وأرز غارق في الماء وبعض حياض الأرز قد أخضرت فهو هنا يمكن أن يزرع بعضه ويحصد بعضه الآخر بسبب كون الطقس دفيئاً.

وقد لاحظنا كثرة مياه الصرف المتخلفة في الأرض على هيئة مستنقعات بعضها كبير يكاد يصل إلى ان يكون بحيرات صغيرة لاسيما والبط يسبح فيه ويأكل من الحشائش والطحالب النامية على جوانبه.

وأكثر الحيوانات التي ترى هنا هي الخنازير والأبقار.

وكما كانت فضلات المياه هنا كثيرة ظاهرة فإن فضلات الفحم الحجري المتخلفة بعد حرقه هنا موجودة بكثرة كما هو عليه الحال في شمال الصين. وهي على هيئة أكوام من الرماد الكريه المنظر.

ولم أرهم يعملون بهذه الفضلات الفحمية كما يعملون منها في الشمال قوالب تكون بمثابة اللبن الذي لا أدري ماذا يصنعون به.

وكان القطار يسير مسرعاً والنظر لا يرى في هذه المنطقة أي فراغ

فكلها خضراء كثيفة الخضرة، حتى تشبه في ذلك المناطق الاستوائية المطيرة ولا يرى المرء موقع قدم لم يستغل أو يزرع.

وذكرت بهذه المناسبة المناظر الرمادية الهامدة الخالية من الخضرة في أماكن شاسعة من شمال الصين. وحتى في مدينة بكين العاصمة التي لم نر فيها عوداً أخضر عندما وصلنا بسبب موت الأوراق والأشجار بعد فصل الشتاء البارد. فضلاً عن منطقة (سنكيانغ) ذات المناخ الشبيه بالصحراوي، إلا ان صحراويته يزيد منها كونها باردة بل متجمدة في الشتاء.

ولقد أقبل بائعون في القطار يدفعون عربات بأيديهم فيها المشروبات وأشياء من المأكولات الخفيفة إلا ان المفاجيء أنهم لايقبلون عملتهم الصينية في هذا القطار إلا ما كان منها خاصاً بالأجانب وهو الذي يكتب عليه بأنه بديل عن العمل الأجنبية وهو المقبول عندهم في الصين من الأجانب.

ومررنا بقرى ريفية بيوتها مبنية بالآجر وسقوفها مسنمة وذلك لكي تنزلق عنها مياه الأمطار التي تنزل غزيرة على هذه المنطقة.

وهي أحسن منظراً وآنق من بيوت الريفيين في شمال الصين التي هي بعيدة عن عيون الفضوليين الأجانب. والتي هي في الغالب تبنى من الطين هناك. ورأيت في إحدى هذه القرى الريفية سوقاً للفلاحين تكثر فيها ما اسميتها بحوانيت الاكتاف وهي الأوعية التي تحمل على كتف الشخص بواسطة عصا غليظة وتكون الأوعية مملوءة بالأغراض متدلية على طرفي العصا كما يكون عليه كفتا الميزان القديم.

وتستعمل في كثير من البلدان الاستوائية المختلفة التي لايستطيع الفلاحون فيها ان يجدوا وسيلة فردية ينقلون عليها أمتعتهم.

وقد رأيت هذه الحوانيت واردة إلى هذا السوق وصادرة منه، وأغلب الأوعية فيها مملوءة بإنتاج الفلاحين الذين حضروا إلى السوق لبيعه، وشراء سلع أخرى يحتاجونها.

وقد أمضى القطار الآن أكثر من الساعة والريف بهيج المنظر، في سهل متسع ليس فيه جبال ترى من داخل القطار.

واستمر المنظر كذلك حتى رأينا بعض التلال الخضر ومن بعدها ظهرت معالم (كولون) إحدى قسمي (هونغ كونغ) من ناحية الادارة.

ولم يقف القطار طيلة السفر بل كان سيره مستمراً وكنا نظن أنه سيقف عند الحدود مابين (كانتون) وكولون.

ولذلك لم نعرف أننا قد وصلنا إلى (هونغ كونغ) وفارقنا أرض الصين الشعبية إلا عندما رأينا عمارات أي أبنية حديثة كثيرة بهيجة قد ركبت فيها أجهزة تكييف الهواء وقد طليت (العمارات) بطلاء حديث بهيج فعرفنا أن هذا لايكون في الصين.

وشيء آخر لفت أنظارنا فعرفنا أننا قد خرجنا من الصين من دون أن ينبهنا أحد إلى ذلك. الا وهو وجود أسوار من شباك الحديد على بعض الأراضي أو البيوت وقد ركبتها الزهور البهيجة فقلنا إن أهل الصين قد شغلوا عن تزيين أسوار بيوتهم بما هو أهم وهو تحصيل القوت إذا كان لهم بيوت وإلا فإن البيوت التي تكون على هيئة دارات (فيلات) في الصين ويسكنها الأفراد نادرة أو غير موجودة أما هنا فإنها ظاهرة ظهور (العمارات) العالية المزخرفة.

كما ان جوانب الطريق المرفوعة هنا عن الأرض تتدرج فيها الخضرة مع تدرج الجوانب بنظام بديع مما لايوجد في الصين التي تعتبر - ان طوعا أو كرها- أن هذه الأشياء من كماليات العيش الرغيد التي لايجوز ان يتطلع إليها الشعب المجيد الذي ينبغي أن يتبع الإشتراكية

التي تجيز للحكومة مالاتجيزه للشعب العنيد .

وحتى أشجار الموز النامية هنا هي أكثر خضرة، وأكثر ازدهاراً لأن الصينيين يعنون بزراعة القوت أكثر ممايعتنون بزراعة الفاكهة .

وكثرت السيارات الأنيقة، وأخذت الملابس الغالية تصافح العيون . والشوارع المزينة المترفة تدخل إلى نوافذ القطار .

وشعرنا . . . شعرنا بأننا عندما خرجنا من الصين ووصلنا هونج كونج دخلنا إلى القرن العشرين . !

ملحق :

بقينا في هونج كونج يومين ونصفا تجولنا فيها على صغرها واتصلنا بالإخوة المسؤولين فيها عن المساجد والمراكز الإسلامية، ولمسنا من أخلاق أهلها ومعاملتهم للغريب ما جعلنا نعيد نظراً فيما كتبناه من مقارنتها بالصين الشعبية .

فالواقع ان الحياة فيها هي عصرية حديثة والمظاهر فيها هي مدنية أكثر من الصين غير أن الأخلاق فيها والمعاملة من أهلها متأخرة عن الصين وأهل الصين بقرون، فهي معاملة مادية مجردة . تركض وراء المادة ولاتقيم لغيرها وزناً، فتجد كل من عاملك ينتظر أن يكسب منك وكل من ساءلته وجدته حريصاً على ذلك، لايسعى لغيره إلا من ندر .

والأمن فيها غير مستتب وعصابات الجريمة موجودة .

وخلاصة القول أن فيها رذائل المدنية الغربية وجزءاً من فضائلها لأنها هي المسيطرة عليها .

صدر من هذه السلسلة

٦١-	بين علم آدم والعلم الحديث	**الأستاذ محمد شهاب الدين الندوي**
٦٢-	المجتمع الاسلامي وحقوق الانسان	**د. محمد الصادق عفيفي**
٦٣-	من التراث الاقتصادي للمسلمين [٢]	**الدكتور رفعت العوضي**
٦٤-	تصحيح مفاهيم حول التوكل والجهاد	**الأستاذ عبد الرحمن حسن حبنكة**
٦٥-	لماذا وكيف أسلمت [١]	**الشهيد أحمد سامي عبد الله**
٦٦-	أصلح الأديان عقيدة وشريعة	**الأستاذ عبد الغفور عطار**
٦٧-	العدل والتسامح الاسلامي	**الأستاذ أحمد المخزنجي**
٦٨-	القرآن كتاب أحكمت آياته [٤]	**الأستاذ أحمد محمد جمال**
٦٩-	الحريات والحقوق الاسلامية	**محمد رجاء حنفي عبد المتجلي**
٧٠-	الانسان الروح والعقل والنفس	**د. نبيه عبد الرحمن عثمان**
٧١-	كتاب موقف الجمهوريين من السنة النبوية	**الدكتور شوقي بشير**
٧٢-	الاسلام وغزو الفضاء	**الشيخ محمد سويد**
٧٣-	تأملات قرآنية	**الدكتورة عصمة الدين كركر**
٧٤-	الماسونية سرطان الأمم	**الأستاذ أبو إسلام أحمد عبد الله**
٧٥-	المرأة بين الجاهلية والاسلام	**الأستاذ سعد صادق محمد**
٧٦-	استخلاف آدم عليه السلام	**الدكتور على محمد نصر**
٧٧-	نظرات في قصص القرآن [٢]	**محمد قطب عبد العال**
٧٨-	لماذا وكيف أسلمت [٢]	**الشهيد أحمد سامي عبد الله**
٧٩-	كيف نُدَرِّس القرآن لأبنائنا	**الأستاذ سراج محمد وزان**
٨٠-	الدعوة والدعاة .. مسؤولية وتاريخ	**الشيخ أبو الحسن الندوي**
٨١-	كيف بدأ الخلق	**الأستاذ عيسى العرباوي**
٨٢-	خطوات على طريق الدعوة [الجزء الأول]	**الأستاذ أحمد محمد جمال**
٨٣-	المرأة المسلمة بين نظرتين	**الأستاذ صالح محمد جمال**
٨٤-	المبادىء الاجتماعية في الاسلام	**محمد رجاء حنفي عبد المتجلى**
٨٥-	التآمر الصهيوني الصليبي على الاسلام	**د. ابراهيم حمدان علي**
٨٦-	الحقوق المتقابلة	**د. عبد الله محمد سعيد**
٨٧-	من حديث القرآن على الانسان	**د. على محمد حسن العماري**
٨٨-	نور من القرآن في طريق الدعوة والدعاة	**محمد الحسين أبو سم**
٨٩-	أسلوب جديد في حرب الاسلام	**جمعان عايض الزهراني**
٩٠-	القضاء في الاسلام	**سليمان محمد العيضي**



في جنوب الصين

حديث عن المسلمين
في ماضيهم وحاضرهم

بقلم :

محمد بن ناصر العبودي

السنة الثانية عشرة
ربيع الآخر ١٤١٤هـ - العدد ١٣٦

١٢١- الاسلام هو الحل ـــــــــــ القاضي الشيخ محمد سوي
١٢٢- نظرات في قصص القرآن ـــــــــــ الأستاذ محمد قطب عبد العا
١٢٣- من حصاد الفكر الاسلامي ـــــــــــ د. محمد محي الدين سال
١٢٤- خواطر اسلامية ـــــــــــ الأستاذ ساري محمد الزهراني
١٢٥- الاسلام ومكافحة المخدرات ـــــــــــ الأستاذ اسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي
١٢٦- دروس تربوية نبوية ـــــــــــ الأستاذ صالح أبو عراد الشهري
١٢٧- الشباب المسلم بين تجربة الماضي وآفاق المستقبل د. عبد الحليم عويس
١٢٨- من سمات الأدب الإسلامي ـــــــــــ د. مصطفى عبد الواحد
١٢٩- خطوات على طريق الدعوة [الجزء الأول] ـــ الأستاذ أحمد محمد جمال
١٣٠- خطوات على طريق الدعوة [الجزء الثاني] ـــ الأستاذ أحمد محمد جمال
١٣١- المسجد البابري قضية لا تنسى ـــــــــــ عبد الباسط عز الدين
١٣٢- التدريس في مدرسة النبوة ـــــــــــ د. سراج عبد العزيز الوزان
١٣٣- الإعلام الإسلامي ووسائل الإتصال الحديثة الأستاذ ابراهيم إسماعيل
١٣٤- تسخير العلم والعمل لمجد الإسلام ـــــــــــ د. حسن محمد باجودة
١٣٥- منهاج الداعية ـــــــــــ الأستاذ أحمد أبو زيد
١٣٦- في جنوب الصين ـــــــــــ الشيخ محمد بن ناصر العبودي
١٣٧- التنمية والبيئة دراسة مقارنة ـــــــــــ د. شوقي أحمد دنيا
١٣٨- الشريعة الإسلامية شريعة العدل والفضل د. محمود محمد بابللي



بسم الله الرحمن الرحيم



المقدمة

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم ، الذي إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون. والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد : فقد قدر لي ان أزور الصين في عام ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م على رأس وفد من رابطة العالم الإسلامي مؤلف من ستة أشخاص استجابة لدعوة كريمة من الجمعية الإسلامية الصينية وهي الجمعية الإسلامية الوحيدة في الصين.

فسافرنا إلى أنحاء عديدة من المقاطعات الصينية وكتبت أوراقاً ومذكرات عما شاهدته أو استنتجته مما شاهدته هناك بلغت من الحجم حداً لايتحمله كتاب واحد فكان أن أصبحت الكتب عن تلك الرحلة ثلاثة:

أولها وهو أكبرها كتاب: « داخل اسوار الصين» . وقدطبع في مجلدين اثنين.

وثانيها: « كتاب في مهد الترك » . . ويتحدث عن مقاطعة تشنجاك التي كانت تعرف - عالمياً - بمقاطعة سينكيانغ ، واسمها في كتبنا العربية التاريخية تركستان الشرقية . .

ثالثها كتاب: « في جنوب الصين » . . وهو هذا الكتاب.

ويتضمن الحديث عن زيارة مدينة شنغهاي كبرى مدن الصين ثم منطقة (تونغ يانغ) التي تبعد بـ ٤٥ كيلومتراً عن مدينة شنغهاي.

ومدينة(قوانغتشو) المعروفة عالمياً بمدينة كانتون وفيها أول مسجد بني في الصين حسبما يقوله الصينيون وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله.

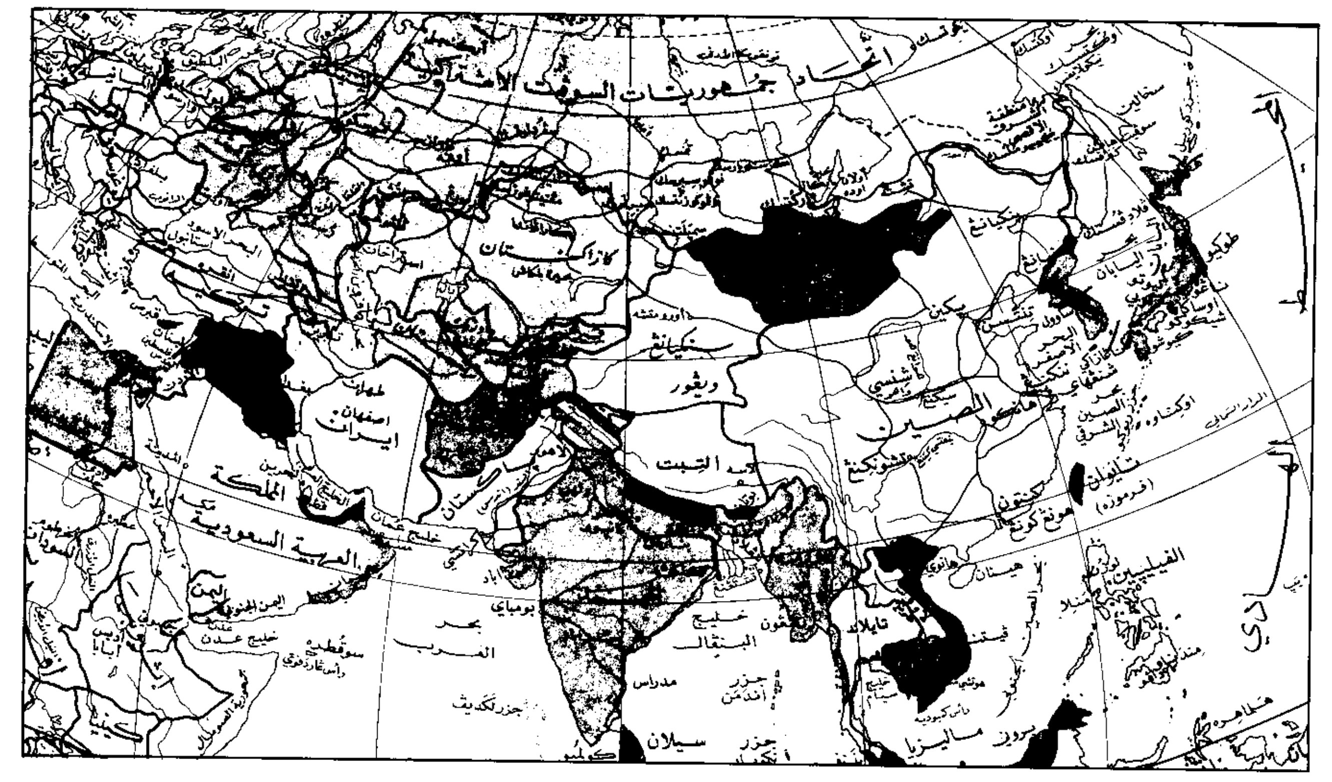
هذا وقد تكلمت في مقدمة كتاب: «داخل اسوار الصين». عن أحوال مهمة من أحوال الصين بعامة وعن احوال المسلمين خاصة.

لذلك سأشرع مباشرة في يوميات الرحلة في جنوب الصين.

ومن الله التوفيق.

المؤلف

محمد بن ناصر العبودي


جمهوريات السوفيت الاشتراكية
كازاكستان
الصين
التبت
ويغور
بكين
شنسي
تيانجين
سيكيانغ
هانكو
كانتون
هونغ كونغ
تايوان
(فرموزه)
بحر الصين الشرقي
أوكيناوه
بحر اليابان
اليابان
طوكيو
أوساكا
ناغويا
شيكوكو
كيوشو
سخالين
بحر الصين
هينان
هانوي
تايلاند
ماليزيا
بورنيو
الفيليبين
مانيلا
منداناو
الهند
بومباي
بحر العرب
خليج البنغال
مدراس
جزر أندمن
جزر كدكديف
سيلان
كولمبو
إيران
اصفهان
المملكة العربية السعودية
مكة
المدينة
خليج عمان
اليمن
اليمن الجنوبية
عدن
خليج عدن
سوقطرة
رأس غاردفوي
جمهورية الصومال
أديس أبابا
البحر الأسود
استانبول
أنقرة
تركيا
قبرص
الإسكندرية
السودان
كينيا
الخليج العربي
البحرين
المحيط الهادي
سيول
شنغهاي
البحر الأصفر

خريطة الصين



يوم الإثنين ١٤٠٤/٨/٧هـ - ١٩٨٤/٥/٨م

من لانجو إلى شنغهاي

بعد وداع حار من الاخوة المسلمين، ومن الصينيين الرسميين المجاملين في مطار لانجو عاصمة مقاطعة كانسو، قامت الطائرة في الساعة السابعة والدقيقة الأربعين متأخرة أربعين دقيقة عن الموعد الذي كانوا قد حددوه من قبل. وهي طائرة نفاثة صغيرة تابعة للمؤسسة الصينية الوحيدة التي تسير الطائرات على الخطوط الداخلية. وغني عن القول إنها حكومية فكل شيء مهم هنا مملوك للدولة.

فارقت الطائرة أرض المطار بسرعة. وذلك بالنسبة لما اعتدنا عليه في رحلات الأيام السالفة في الصين إذ كان أكثر سفرنا على طائرات مروحية بطيئة.

وعندما استوت في الجو كان المنظر المتجدد الذي لايمل الناظر تأمله هو منظر أكوام التلال الطينية العجيبة الموجودة في هذه المقاطعة التي هي من اعجب المناظر التي رأيتها في العالم.

واعلنوا أن المسافة إلى مدينة شانغهاي هي ألف وثمانمائة كيلومتر ستقطعها الطائرة في ساعتين وثلث.

ثم ارتفعت الطائرة في الجو مفارقة منطقة التلال ففقدت متعة مشاهدتها، وأجلت بصري داخل الطائرة لأجدها صغيرة لايزيد عدد المقاعد فيها عن ثمانين مقعداً وأركبونا فيما اسموه الدرجة الأولى فيها ومعنا اثنان غيرنا إلا أنني أعتقد أنها مصممة لتكون كلها درجة سياحية واحدة إذ لم أكد أجد فرقاً بين مقاعدها.

أما الأشياء التي استلفتت نظري فمنها أن الركاب في الدرجة

السياحية كان عددهم قليلاً لأن هذه الطائرة صغيرة وهي تسافر بين مدينتين كبيرتين أحداهما أكبر مدينة في الصين على الاطلاق وقيل في وقت من الأوقات إنها أكبر مدينة في العالم وهي (شنغهاي) وسكانها يقدرون بأحد عشر مليوناً من النفوس، والثانية هي عاصمة مقاطعة مهمة وهي (لانجو) التي تضم مليوني نسمة. وعقدت في نفسي مقارنة بين ما عليه حالة الانتقال بالطائرات في مسقط رأسي منطقة القصيم وتذكرت أن أربع طائرات في اليوم تغادر مطار القصيم إلى الرياض وبالعكس وهي أكبر من هذه الطائرة الصينية ومع ذلك تكون كلها في الغالب ممتلئة بالمسافرين مع انه لاتوجد نسبة بين سكان القصيم أو الرياض وبين سكان احدى هاتين المدينتين.

واستنتجت ان سبب قلة ركاب الطائرات في الصين هو تدني الدخول وعدم قدرة السواد الأعظم من الشعب على الحصول على قيمة تذكرة في الطائرة لأن قيمة التذكرة على هذه الطائرة التي نحن عليها الآن من لانجو إلى شنغهاي تعادل راتب العامل غير الفني أو الموظف الصغير في الدولة لمدة أربعة أشهر فهي إذاً من الناحية القياسية تساوي اثني عشر ألف ريال سعودي بالنظر إلى ان راتب العامل أو الموظف الصغير عندنا هو ثلاثة آلاف ريال في الشهر. لأن النقود تقاس - بطبيعة الحال - بقيمتها بالنسبة إلى جهد الإنسان الحقيقي الذي كثيراً مايتخذ العامل غير الفني مثلاً له لأن الفئات الأخرى من الشعب غير العمال تختلف درجات معرفتهم، وبالتالي تتفاوت دخولهم.

وقد سألت أحد الاخوة المرافقين عن السبب في قلة ركاب الطائرات في هذه البلاد فقال: انه أولاً بسبب غلاء أجرة الطائرة بالنسبة إلى رواتب الناس ودخولهم الحقيقية. وثانياً: لكون الحكومة قد منعت طوائف كبيرة من الناس من السفر بالطائرات بعد الحوادث

التي جرت من اختطاف الطائرات والذهاب بها إلى كوريا الجنوبية أو جزيرة تايوان ، لذلك قصرت الاذن بالسفر بالطائرة على طوائف معينة من كبار الموظفين الذين قد يكونون قادرين بسبب مناصبهم أو بسبب دخولهم المرتفعة على السفر بالطائرات معللة ذلك بأن الموظفين الصغار لايمكنهم توفير قيمة السفر بالطائرات من دخولهم الخاصة وانهم إذا فعلوا ذلك دل على أنهم قد حصلوا على نقود من جهة غير شرعية .

وهذا تعليل مقبول من جهة العقل وقد لاحظت أثناء أسفاري في الهند قلة استعمال الطائرات بسبب فقر العامة من الناس وذكرت ذلك في كتبي : «الرحلات الهندية» ولكن هناك فرقاً بين فقر الهند وفقر الصين، فالفقر في الهند، يتخبط فيه الأكثرية من الشعب، وتصل شدته في بعض الطوائف إلى درجة الإدقاع الشديد أو درجة الجوع المتناهي على حين توجد في البلاد طوائف غنية وإن كانت قليلة نسبياً وطوائف هي أقرب إلى الغنى، أو هي أبعد عن الفقر لكونها متوسطة الحال .

أما الفقر في الصين فإنه يتساوى فيه الجميع فهو لايصل إلى درجة الادقاع والجوع، ولكنه لايصل إلى درجة التوسط في الحال .

كان الجو صحواً في معظم الرحلة ولم نفارق العمارة والأراضي المزروعة تحتنا ، وان كانت الأرض تبدو تحتنا في بعض الأحيان هضابا جبلية بينها وديان عامرة بالزراعة .

وقرب الوصول إلى (شنغهاي) قلت الجبال وكثرت عمارة الأرض، وظهر نهر صغير يجري بين هضاب حمر . ثم صرنا نرى النهر العظيم (يانغ سي) وهو الثاني من نهرين عظيمين في الصين والآخر هو النهر الأصفر .

وها نحن الآن نشاهد نهر (يانغ سي) من الطائرة مفعماً بالمياه الحمراء التي تكاد نجزم بأنها مياه الفيضانات، كما كثرت بعد ذلك رؤية القنوات العديدة التي شقوها من هذا النهر تحمل المياه إلى أماكن بعيدة عن مجراه لتزدهر فيها الزراعة.

ثم كثرت رؤية القرى وتجمعات المنازل في الأرياف كثرة ملفتة للنظر، واشتدت كثافة الخضرة في الأرض. وظهرت سلسلة من البحيرات عليها المنازل وسط خضرة زراعية مطبقة حتى لايرى الرائي موضع شبر في الأرض غير مزروع وقد أصبحت الأرض سهولاً منسقة تمتد فيها قنوات المياه الطويلة المتعددة. وتنتشر فيها البيوت ذات السقوف المسنمة لأن المنطقة تنزل عليها أمطار غزيرة في بعض فصول السنة.

إلا أنه يلاحظ أن سقوف المنازل سود، أو رمادية اللون في منظر غير بهيج.

مدينة شنغهاي
كبرى مدن الصين

في مطار شنغهاي

حطت الطائرة في مطار شنغهاي في العاشرة تماماً ضحى، وقد ظهر الفرق واضحاً في الجو مابين الشمال البارد والجنوب المعتدل فكانت الحشائش والأعشاب ريانة نامية حول مدارج المطار تزينها زهور ربيعية صفر.

ولم أر المطار كبيراً إذا قيس بضخامة المدينة وكثرة سكانها غير ان الأمر في الصين هو كما ذكرت من قبل يتعلق بالحالة المالية للسكان الذين لايستطيعون بأكثريتهم استعمال الطائرات بسبب قلة دخولهم.

ولم نجد في المطار أحداً من المستقبلين على خلاف العادة لدى الصينيين الذين لمسنا منهم حرصهم على ان يحيطوا ضيوفهم بالحفاوة البالغة وبخاصة مايتعلق بالجمعية الإسلامية التي هي جمعية معترف بها في الدولة مع ان الاخوة في لانجو ذكروا لنا انهم أبرقوا بسفرنا إلى فرع الجمعية الإسلامية في شنغهاي وكذلك أرسل المعنيون بأمرنا في الدولة مثل وزارة شؤون الأديان إلى نظرائهم في شنغهاي.

وقد لبثنا فترة من الوقت في انتظار وصول امتعتنا من الطائرة، ثم عندما وصلت بعد لأي أحاط بها الموظفون ومنعوا الركاب من تسلم امتعتهم حتى يصفوها، ويرتبوها حسب زعمهم وربما كانوا ينتظرون أحد الموظفين المهمين وكان معنا في الطائرة بعض الأجانب الذين يدل مظهرهم على أنهم من الأوربيين.

ولاحظنا من تصرفاتهم مع الركاب، ومع بعضهم بعضاً أنهم أقل مجاملة من الصينيين الشماليين، وأقل نضارة في الوجوه وجمالاً في الصور.

ثم حضر رئيس الجمعية الإسلامية في شنغهاي ومعه موكب السيارات المعتاد والمخصص للوفد واعتذر بأن موعد وصول الطائرة المقرر كما أبلغهم المطار به هو الحادية عشرة إلا أنها وصلت في العاشرة على غير المتوقع لأن المعتاد أن تنزل في مدينة (شي آن) ولكنها لم تنزل فيها .

وقد جاء لاستقبال الوفد في المطار :

الشيخ ابراهيم مارينغ ينغ رئيس الجمعية الإسلامية لمدينة شنغهاي .

الشيخ محمد سليم نائب رئيس الجمعية ، الشيخ محمود عبد الأحد نائب رئيس الجمعية ، الشيخ محمد يوسف شادون خوا إمام مسجد يوشو لونغ ، الشيخ داود ماشينغ امام مسجد فويولو .



أعضاء الجمعية الإسلامية في شنغهاي يرحبون بالمؤلف



مجموعة من المصلين في مسجد شنغهاي تستمع إلى خطبة عيد الفطر المبارك

في مدينة شنغهاي

سار الموكب المكون من سبع سيارات من المطار فأفضى به الطريق مباشرة إلى ضاحية مخضرة بل زاهية الخضرة ليس فيها من قشف الشتاء أو آثار البرد شيء على عكس ماكان عليه الحال في المقاطعات التي جئنا منها في شمال الصين، فقال لنا الاخوة المرافقون من أهل (شنغهاي) : إن هذا عندنا هو الربيع لقد كان قدومكم في الربيع وهواحسن فصول السنة في هذه المنطقة.

وكل مارأيناه لأول مرة في هذه الضاحية يدل على الخصب ووفرة المياه ومن ذلك مستنقعات صغيرة قد نمت على وجهها أعشاب المياه أي التي تنبت على وجه الماء عوضاً عن الأرض الجرداء.

وعندما توغلت السيارات في ضواحي المدينة اتضح ان كل مارأيناه هنا هو قديم، وإن كان جيداً بالنسبة للقديم وذلك من البيوت والميادين التي صارت الآن ضيقة بالمقارنة بالميادين الفسيحة الحديثة.

وحتى الشوارع فإنها تبدو جيدة التخطيط إلا أنها ضيقة بالنسبة لشوارع المدن الحديثة المزدهرة اقتصادياً.

ومن الأمثلة على ذلك ان المسافة مابين المطار والفندق الذي سننزل فيه في وسط المدينة تبلغ خمسة عشر كيلومترا، ولكن ظللنا نسير مدة قبل الوصول بسبب ضيق الشوارع داخل المدينة مع وجود كثافة عظيمة في مرور الدراجات والراجلين وكذلك وجود دراجات كثيرة وسيارات أكثر من الموجودة في المدن التي رأيناها في شمال الصين وبخاصة كثرة الحافلات الضخمة فيها. إلا أنها تعد قليلة بل نادرة بالمقارنة مع عدد سكان المدينة الذي يبلغ أحدعشر مليوناً من النفوس.

غير ان المدينة قد كادت تقف عن النمو بعد الثورة الشيوعية لأن

رأس المال الخاص قد ذهب أو هرب، والمبادرات الفردية أصبحت معدومة وصار كل شيء يعتمد على المشروعات الحكّومية التي كانت تعتمد المشروعات الجماعية التي مهما كثرت لاتصل إلا إلى عدد محدود من الناس، ومن لون سياسي خاص هو الذي يكون مع الحكومة، أو لا يعارض الحكومة- على الأقل-.

ونزلنا في فندق (جيانغ جانغ) وأسرع الاخوة المرافقون بقولهم: انه الفندق الذي نزل فيه الرئيس الأمريكي ريغان عندما كان في زيارة للصين قبل أيام.

قالوا ذلك رغم كوننا لم نر فيه مايستدعي التنويه به ما عدا أثاثه ورياشه فهو في مستوى فنادق الدرجة الأولى وأما مصاعده وابهاؤه فإنها في مستوى الدرجة الثانية.

وكنت أريد أن أسألهم عن تأسيسه أكان في عهد الرأسمالية أم في عهد الشيوعية، وان كان هذا السؤال قد يثير حساسية زائدة للقوم، إذ كثير من الأماكن السياحية الموجودة في البلاد هي موجودة قبل الشيوعية وينوهون على أنها كانت ملكاً خاصاً قبل الثورة ثم أصبحت ملكاً عاماً للشعب بعد الثورة لأنهم يسمون الشيوعية بالثورة وقل أن سمعتهم يذكرون الشيوعية باسمها أو باسم الاشتراكية.

وقد جاء الجواب عن أصل هذا الفندق من دون توقع فقد سألتهم عن معنى كلمة (جيانغ جانغ) التي سمى بها الفندق؟ فقالوا: إنها من اسم منطقة في الصين فيها نهر اسمه (جيانغ جانغ) ومؤسس هذا الفندق هو من أهل تلك المنطقة، سماه على اسم ذلك النهر، والآن الفندق هو حكومي مثل غيره من الفنادق.

فاتضح انه كان ملكاً لأحدهم قبل الشيوعية ثم صادره الشيوعيون فيما صادروه من عقارات وممتلكات.

ووجدناهم وضعوا في الغرف تحية النزيل المحتفى به عادة وهي

سلة كبيرة من الفاكهة تحتوي على تفاح وبرتقال وهناك الأباريق (الزمزميات) المليئة بالماء الحار وأكياس الشاي مابين أحمر وأخضر لكي يصنعه النزيل بنفسه كالعادة إذا لم يكن الوقت وقت وجود الخدم، ومن أجل توفير العمل والوقت على الضيوف والعمال. وماء معدني محفوظ في علب معدنية.

وكان وقت الغداء قد أزف، وقد وكلوا العناية بالطابق الذي أنا وبعض الرفاق فيه إلى فتاة صينية طويلة ، بالنسبة إلى غيرها من الصينيات وهي قصيرة أو متوسطة بالنسبة إلى العربيات ثم ان التقاطيع الصينية المتميزة هي أقل في وجهها ظهوراً، من سائر الصينيات وبخاصة في جنوب الصين.

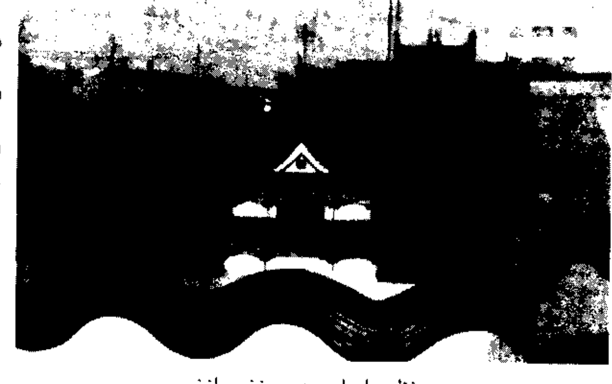
وهي إلى ذلك تعرف الانكليزية ولا تعرف شيئاً من الحياء، بل تسرع إلى الحديث مع الضيوف من باب الإكرام أو الإحترام كما تزعم.

وقد قدمت لنا الطباخ قبل أن تقدم الطعام فهي التي تشرف على تقديم الأكل لتعرفنا انه مسلم يقوم بالطبخ للضيوف من المسلمين.

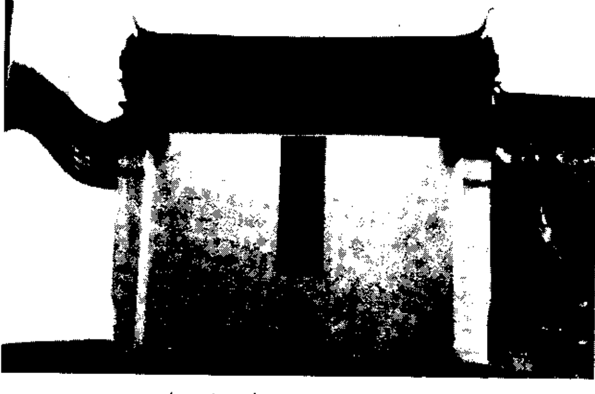
جولة على مساجد شنغهاي

لم يكن في البرنامج وقت للراحة بعد الغداء حيث كانت الفقرة التالية جولة على مساجد شنغهاي في الساعة الثانية ظهراً.

وقد صحبنا في هذه الجولة غير الرفاق الذين كانوا معنا طول الرحلة رئيس الجمعية الإسلامية في شنغهاي الأخ (إبراهيم مارينغ ينغ) فركب معي في السيارة وهو يعرف قدراً من العربية لا بأس به. كما اصطحب الموكب شاب ذكر ان اسمه (صالح جي فان سو) قال إنه يعرف العربية وانه تعلمها في مبدأ أمره في معهد اللغات الأجنبية في شنغهاي وعمل في العراق لبعض الوقت وتبين لنا ان اسم (صالح) الذي ذكره في أول لقاء إنما هو اسم مصلحي - ان صح التعبير - فهو غير مسلم واسم صالح من أسماء المسلمين التي لايتسمى بها غيرهم ولكنه فعل ذلك تقرباً من الزوار المسلمين



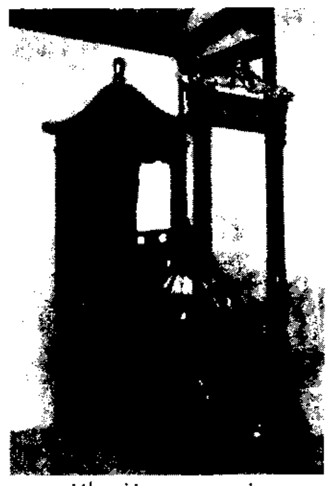
منظر عام لمسجد سونغ جيانغ



مدخل مسجد سونغ جيانغ بشنغهاي

ولكي يكون له اسم مألوف لهم ، خفيف على ألسنتهم.

وقد تبين لنا شيء أهم من ذلك وهو انه لايتقن العربية وبخاصة إذا كان المطلوب منه ان يترجم ترجمة فورية. وكنا قد قلنا لأخينا الشيخ (لقمان ماشان لي) إنه آن له ان يستريح من عناء الترجمة بعض الوقت مثلما قلنا له ذلك عندما أحضر أهل (نن تشوان) مترجماً ذكروا انه يعرف العربية غير أننا عرفنا أن الأخ (لقمان) لايمكن الاستعاضة عنه بهذا وأمثاله من الذين لا خبرة لديهم بالترجمة ولايتقنون العربية التي كان الأخ لقمان قد تعلمها ثم اتقنها بدافع ديني، لأنها لغة القرآن الكريم وهو رجل متدين كما عرفت بحكم صحبتي له.


منبر مسجد سونغ جيانغ


محراب مسجد سونغ جيانغ

كانت شوارع (شنغهاي) مكتظة بالناس الذين أكثرهم من الراجلين إضافة إلى زحام الحافلات والسيارات الحكومية الأخرى.

وأول الانطباع عنهم في مجال المقارنة بينهم وبين مواطنيهم في شمال الصين ان هؤلاء القوم من سكان (شنغهاي) أقل التزاماً بالتقاليد الموروثة، وربما قيل أكثر تحرراً في اللباس وطريقة السلوك عدا مجالاً واحداً وهو المجال الاقتصادي فهم فيه مثل غيرهم لأن القوانين الشيوعية صارمة في هذا المجال.

كما لا يظهر على وجوههم الذبول الذي رأيناه


قبة مسجد سونغ جيانغ

بارزاً في وجوه مواطنيهم في شمال الصين بسبب طيب الجو عندهم بالنسبة إلى أولئك .

مسجد بستان الخوخ :

كانت الوقفة الأولى عند مسجد (تشاو تاو يان) ذكروا انه سمي على اسم الشارع الذي يقع عليه وان معنى الاسم هو (بستان الخوخ الصغير) .

وجدناه مسجداً جميل البناء، بهي المنظر، ذا ملحقات منها دهليز يدخل معه من الشارع فيصل الداخل إلى باب المصلى الرئيسي الذي هو فخم ذو قبة أشبه ما تكون بالقباب العربية، وإذا لم يدخل في المصلى الرئيسي وواصل سيره فإنه يصل إلى فناء واسع ذي حديقة نضرة وتتفرع منه ممرات تفتح عليها غرف متعددة. مما يدل على عظم النفقة التي انفقت على إنشائه .

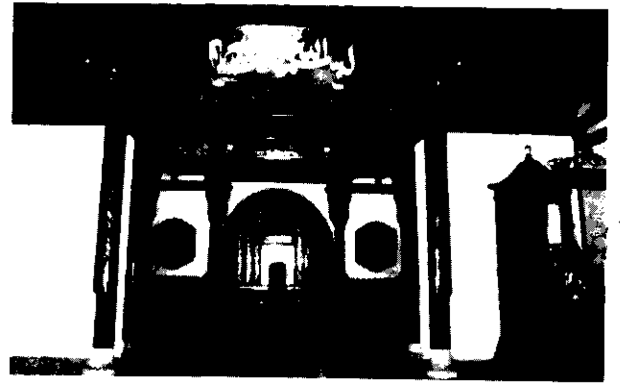
الخلفاء :

قال لنا المرافقون: إلى الخلفاء، فلم أفهم ذلك لأول وهلة، بل أجفلت منه فأكثر الأشياء في هذه البلاد وبخاصة أحوال المسلمين وسيطرة الشيوعية فيها يجعلنا أحوج مانكون إلى ان نذكر الخلفاء ونتعزى بسيرهم ولكن مااللصين وللخلفاء؟ .

قالوا: سنذهب الآن إلى غرفة من عدة غرف ملحقة بالمسجد يدرس فيها الأئمة ويريدون أئمة المساجد- فنحن قد بدأنا ذلك منذ عهد قريب لأن أئمة المساجد المتعلمين يموتون ولا نجد من يحل محلهم. فقلت: احسنتم في هذا الفهم وهذا التعليل. والمهم ان تحسنوا العلم والتعليم، وهنا كنا قد وصلنا إلى قسم فيه عدة غرف ولكن جميع

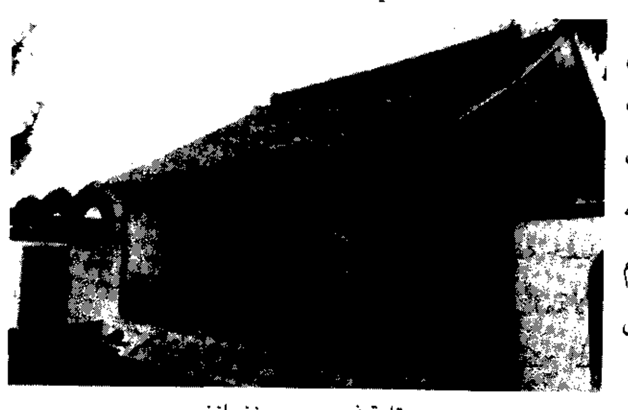
الطلاب فيه هم في غرفة واحدة لأن عددهم قليل لايزيد على سبعة دارسين هم الذين يدرسون في الفصل الأول. وأخبرونا ان من شروط الالتحاق بالدورة الحصول على الشهادة المتوسطة والخدمة في أحد المساجد أو إحدى المؤسسات الدينية لمدة سنتين، واخبرونا ان هذه هي أول دورة تقام.

وجدنا الامام - أي إمام المسجد - محمد داود يلقي على طلبته درساً اسموه مختارات من الآيات القرآنية وقد كتبوها على السبورة وهي : ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل** ﴾ و ﴿ **أطيعوا الله واطيعوا الرسول واحذروا** ﴾ ويفسرها المدرس لهم بالصينية حيث كتب ترجمة معانيها بالصينية في أسفل السبورة.



مدخل أمامي للمصلى في مسجد سونغ يانغ

ثم دخلنا الفصل الثاني وفيه ثلاثة طلاب فقط تلا أحد الطلبة آيات قرآنية فلم تكن تلاوته متقنة وبخاصة عدم إخراج الحروف من مخارجها الصحيحة.



قاعة في مسجد سونغ يانغ

وقد أخبرونا ان هذا المبنى كان في الأصل مدرسة إسلامية ملحقة بالمسجد ولكنها اغلقت لسنوات طويلة - ولم يقولوا بعد الحكم الشيوعي - ولكنهم قالوا انها افتتحت قريباً.

ورأيتهم يريدون ان يقولوا إننا انتهينا من الجولة فسألتهم: وأين هم الخلفاء الذين ذكرتم اننا سنذهب إليهم فقالوا والبعض منهم فهم ان الأمر التبس عليّ: إنهم الذين كنا عندهم الآن، إننا نسمي أئمة المساجد بالخلفاء!

ثم قالوا يحدثوننا عن بناء هذا المسجد، ونحن ذاهبون إلى قاعة استقبال عند المدخل: لقد بني (مسجد تشاو تاو يان) هذا قبل ستين سنة وقد أصابه ضرر بالغ أثناء الثورة الثقافية ولكن المسلمين جمعوا النقود فيما بينهم وأصلحوه.

وقد قام على بنائه بل بناه أخ مسلم اسمه (محمد علاء الدين) بعد ان حج في عام ١٩٣٧م وهو من قومية خوي وقد أخذ يجمع التبرعات من المسلمين حتى أتمه.

قالوا: وكان عدد المسلمين عند بناء المسجد كثيراً في هذه الحارة، ولكنهم أثناء الحرب الصينية اليابانية تفرقوا، ولم يذكروا لنا السبب في ذلك، والآن لا يوجد تجمع للمسلمين بل هم موزعون في أنحاء مدينة (شنغهاي).

قالوا: وتولى ابن المؤسس واسمه محمد أيضاً إمامة هذا المسجد حتى مات، وبعد ذلك تولى الامامة حفيده (محمد سليم) هذا الحاضر معنا، والظاهر انه واحد من عدة أئمةلأن من عادة الصينيين الإكثار من الأئمة للمساجد حتى وان لم يكن المسجد كبيراً. أما هذا المسجد فإنه كبير وهو رئيسي يرتاده عدد من المسلمين في الجمع وهو الذي

تصلى فيه صلاة العيدين في الوقت الحاضر.

وذكروا أنه في عام ١٩٨١م كان المسجد الوحيد الذي تقام فيه الصلاة، لأن الحكومة كانت قد استولت على المساجد في عهد عصابة الأربعة والآن بلغ عدد المساجد التي تقام فيها الصلاة في مدينة شنغهاي ثلاثة وهناك ثلاثة مساجد أخرى أعيدت لأصحابها المسلمين ويجري الآن إصلاحها واعدادها لإقامة الصلوات فيها.

صورة تذكارية مع الحاج ابراهيم مارينغ ينغ رئيس الجمعية الصينية في مدينة شنغهاي في فناء المسجد

حفلة الجمعية الإسلامية :

الجمعية الإسلامية الصينية هي الجهة الوحيدة المعترف بها رسمياً والمصرح لها بالعمل في الميدان الإسلامي في جمهورية الصين الشعبية ومقرها الرئيسي في العاصمة (بكين) ورئيسها هو الأخ محمد على وانغ وهو وزير في حكومة الصين. ولهذه الجمعية فروع في المقاطعات والمحافظات والأقاليم وفي سائر أنحاء الصين.

ونحن ضيوف على الجمعية الإسلامية وأرسلت معنا مرافقين من كبار موظفيها لمصاحبتنا في رحلتنا هذه كلها وقد أمرت مع ذلك الجمعيات الإسلامية الفرعية أن تعنى باستقبالنا وشرح مايحتاج المسلمون إليه في الأقليم الذي يكون فيه فرع الجمعية وقد أقام فرع الجمعية الإسلامية مأدبة خفيفة مما يسمى بعض الناس مثله عندنا مأدبة الشاي، وبخاصة إذا كان وقته ليس وقت عشاء أو غداء.

أقاموا الحفلة في قاعة استقبال واسعة ملحقة بهذا المسجد العظيم (تشاو تاو يان) (مسجد بستان الخوخ) فوجدناهم قد وضعوا الأطباق الكثيرة على مائدة كبيرة فيها ، منها ما اعتدنا على رؤيته في شمال الصين من فاكهة طازجة أو مجففة: ونقول- جمع نقل- كالجوز والفول السوداني ورأينا فيها مالم تسبق لنا رؤيته في شمال الصين وهو البرتقال الذي لم أره أبداً في الشمال وكذلك البطيخ الأخضر الذي لم نره إلا على مائدة الغداء في هذا اليوم.

نهض رئيس الجمعية الإسلامية هنا الأخ (إبراهيم مارينغ ينغ) فألقى كلمة ارتجالية باللغة الصينية وترجمها صالح - غير الصالح- قال فيها من بين ماقاله: مع تفتح زهور الربيع كان قدوم وفدكم الكريم انه يدل على الصداقة بين الشعبين الصيني والسعودي إننا لنرجو ان تتطور هذه الصداقة وتنمو على الأيام.

وقال: لقد شاهدناكم في التلفاز وأنتم تتنقلون في أقاليم بلادنا فاشتاق أهل شنغهاي لرؤيتكم وصاروا ينتظرون وصولكم ليرحبوا بكم.

إن الحاضرين من الجانب الصيني هنا هم أعضاء الجمعية الإسلامية والمسؤولون عن المساجد في شنغهاي إنني أرحب بكم باسمهم وباسم المسلمين في (شنغهاي) الذين يبلغ عددهم أربعة وأربعين ألف مسلم،و إنني أشكر رابطة العالم الإسلامي على استضافتها لي عندما أديت فريضة الحج عام ١٩٧٩م.

وقال: إن مدينتنا (شنغهاي) هي مدينة صناعية وهي ميناء مهم جداً في الصين. ولها علاقات تجارية مع مائة وستين دولة، ويبلغ عدد سكانها اثني عشر مليوناً كانوا قبل التحرير- يريد قبل الثورة

الشيوعية- يعيشون في بؤس وشقاء ومتأخرين في الثقافة، وبعد التحرير سعدوا وتقدموا كثيرا لعناية الحكومة - ولم يذكر كيفية الشقاء، قبل الشيوعية وماهية السعادة بعدها بطبيعة الحال- لكنه أورد مثالاً على عناية الدولة بقوله قبل التحرير كان في كل جمعة أمام باب المسجد متسولون كثير والآن لايوجد.

والحقيقة أنني لم أشاهد متسولين في الصين، ولاشك أن حزم الحكومة في ذلك هو سبب من أسباب كثيرة قد يكون منها ان أكثر الناس لم يعد عندهم مايعطونه للمستجدين والسائلين لأنهم أنفسهم قد اصبحوا من الفقراء المعدمين إضافة إلى كون الحكومة قد أوجدت ملاجيء ودوراً للعجزة متعددة.



رئيس الجمعية الإسلامية ابراهيم مارينغ يعرض على المؤلف لوحة من الجمعية

ثم واصل الأخ (إبراهيم) كلامه قائلاً: يوجد الآن في مدينة (شنغهاي) ثلاثة مساجد مفتوحة ونستعد لفتح ثلاثة مساجد أخرى منها مسجد يعود تاريخ بنائه إلى ستمائة سنة وهو الآن



بعض الطلاب العرب مع رئيس الجمعية الإسلامية ابراهيم مارينغ

تحت الصيانة والترميم. والمساجد المفتوحة تؤدى فيها الصلوات الخمس يومياً.

وبعد الاجتماع الثالث لمؤتمر الحزب - يريد الشيوعي - الوطني أي على مستوى الوطن أكدت الحكومة سياسة حرية الأديان والنشاط الديني مضمون من الحكومة قانونياً.

ثم قال: ونحن نهتم الآن بمدرسة العلوم الإسلامية - يريد التي رأيناها قبل قليل- ونثبت دعوة الإسلام في نفوس المسلمين ونحن نشكر رئيس الوفد- يقصدني- على إخباره بتقديم الكتب الإسلامية وإنني أثق أنكم إذا زرتم شنغهاي مرة ثانية فإنكم ستجدون عدد الطلاب أكثر مما هو عليه الآن.

وقال- يخاطبني- إنكم تعرفون أحوال المسلمين في جميع أنحاء العالم ونحن محتاجون إلى نصائحكم في هذا الموضوع.

فرددت عليه بكلمة ضافية ركزت فيها على ماذكره حول حرية الديانة إذ لاحظت ان الثناء على الحكومة أو إظهار ما أعلنته من نوايا تجاه المسلمين لم يرد في كلمات كثير من الخطباء في الاقاليم التي زرناها، وربما كان مرجع ذلك إلى أن وقوع شنغهاي في موقع قريب من العالم غير الشيوعي واتصال الناس بأهلها جعل الحكومة تجد من الضروري التأكيد على الدعاية لها عند الناس.

وقلت وأنا أعلم ان كل مايقال هنا سينقل إلى المسؤولين في الدولة: إننا سررنا لما أخبرتمونا به من ضمان الحرية الدينية بالقانون، ومن حسن معاملة المسلمين وأرجو ان تثقوا ان أية معاملة حسنة يلقاها المسلمون في هذه البلاد سيكون لها صداها الحسن في العالم الإسلامي لأن المؤمنين إخوة ونحن نتتبع ماتكون عليه أوضاع اخواننا المسلمين

فنشكر من يساعدهم، ونحاول الوقوف في وجه من يعاندهم.

وبينت لهم ماتستطيع أن تقدمه رابطة العالم الإسلامي للإخوة المسلمين في العالم.

قدم رئيس الجمعية الإسلامية هدايا للوفد وهي علب يدوية وخصني بلوحة منقوشة قال ان فيها أربعين ألف غرزة، وكتبت كلمة مناسبة في سجل الزيارات.



مدخل ثانٍ لمسجد سونغ يانغ

ثم دار نقاش جيد بين الوفد وبين الحاضرين تناول بعض الشؤون الإسلامية وتبين انهم كانوا بحاجة إلى مثل هذه الجلسات ليناقشوا فيها أمور دينهم بعد الانفراج النسبي الأخير في الصين الشعبية.

إلى مسجد آخر:

عندما خرجنا من المسجد وجدنا جماهير غفيرة من الناس قد وقفوا أمام المسجد ينتظرون خروج الضيوف ليروهم. وأخبرنا اخواننا ان الموكب بسياراته السبع الجديدة هو الذي لفت انظار الناس إلى وجود وفد زائر.

كان الشارع الذي فيه مدخل المسجد قديما وغير واسع فضاق بالناس حتى تدخل رجال الشرطة بدفعهم للافساح للمرور.

وصلنا للمسجد الثاني من مساجد (شنغهاي) واسمه (مسجد خويولو) إضافة إلى حي (خويو)



مسجد تايوانغ في شنغهاي

الذي يقع فيه.

وهو قديم مبني على الطراز الصيني بخلاف الذي قبله فهو مبني على الطراز العربي.

وهذا واقع في القسم القديم من مدينة (شنغهاي). وبني - في ماقالوه لنا- قبل أكثر من مائة سنة. وحدد أحدهم تاريخ بنائه في عام ١٨٧٠م.

وبناؤه بالخشب الصيني القوي الذي كانت تبنى منه المباني ذات الأهمية مثل قصور الملوك ومنازل كبار الوجهاء والأثرياء.



مدخل جامع تايوانغ

ثم جاء إلينا إمامه الأخ (محمد داود ما شينغ) فقال انه لم يصب بضرر من الثورة الثقافية ولكنهم جددوه منذ وقت قريب، وهذا يدل على انه قد أصيب بضرر وقال: ان المسلمين الذين جمعوا الأموال لتجديده ساعدتهم الحكومة على ذلك، أما بناؤه الأول فذكر انه كان في عام ١٨٧٠م.

وقال: إن راتب امامه ومؤذنه يأتيهم من الجمعية الإسلامية في (شنغهاي) وانه يمتليء بالمصلين لصلاة الجمعة بحيث يبلغ عددهم مابين اربعمائة إلى خمسمائة.

وأما في أوقات الصلاة الخمس فعدد المصلين قليل، وذلك لتباعد بيوت المسلمين عنه.



المؤلف أمام مسجد نويولو في شنغهاي

ثم ذكر ان عدد المصلين في صلاة الفجر أكثر من المصلين في الأوقات الأخرى وذلك لعدم انشغال الناس في الفجر إذ يصلي في هذا المسجد في الصباح مابين أربعين إلى خمسين.

وقد أسرعت أريد التجول في هذا الحي القديم الذي يقع فيه المسجد وكانوا أخبرونا أنه أقدم أحياء (شنغهاي) وماهم بحاجة إلى قول ذلك لأن حالة البيوت والأزقة ولا أقول الشوارع تشهد بذلك فضلاً عن الحوانيت الضيقة ذات المداخل التي قد يحتاج الداخل معها في بعض الأحيان ان يطأطئ رأسه بسبب ارتفاع أرض الزقاق على مدى السنين.

وقد لاحظت ان طراز البيوت القديمة لا يختلف كثيراً عن أطرزة البيوت المبنيةمؤخراً في الحارة. و التي يصيبها حر الصيف وتكثر الرواشين فيها - جمع روشان- وهي النوافذ ذات الشقوق من الخشب التي يرى من يكون بداخلها الناس ولايرونه إلا في الليل إذا كان عنده نور. وهي بيوت صغيرة جداً بدليل تقارب ابوابها حتى تخال البيوت في بعض المواضع قبل ان تتأملها حوانيت. على ان أكثر هذه البيوت مبنية من الآجر أو مطلية بالأسمنت وذلك لكون المنطقة مطيرة.

مسجد ياشوي لونغ:

واسمه من اسم الحي الذي يقع فيه أيضاً. توجهنا إليه مع شوارع ضيقة في وسط المدينة. ومع ذلك ترى فيها لمحات من الشبه فيما بينها وبين الأحياء القديمة في المدن العربية مثل القاهرة وبخاصة مايتعلق بالساحات التي هي الميادين الصغيرة.

والناس هنا أقل وجاهة من أهالي شمال الصين، وتظهر فيهم

خصائص الوجوه الصينية أكثر ولهم الأشكال الصينية التي يتميز بها الذين يعيشون في بلدان جنوب آسيا الشرقي مثل ماليزيا وتايلند أقرب من أهل الشمال.

ذكروا ان البناء الحالي للمسجد كان قبل ستين سنة وان المسلمين اشتركت مجموعة منهم في بنائه في ذلك الوقت بمعنى انه لم يقم على بنيانه شخص واحد وكان عندما بنوه أول مرة صغيراً ثم وسع بعد ذلك وإلا فإنه كان موجوداً قبل ذلك بزمن.

إمام المسجد (محمد يوسف ساسوي وا) ذكر ان عدد الذين يؤدون صلاة الجمعة في المسجد يبلغ نحو مائة وفي الصلوات الأخرى في حدود الثلاثين.

وقال: إن هذا المسجد سيزال مع الحي الذي هو فيه لأنه قديم وغير صالح للسكن كما قيل لنا. ثم تكلم الامام فقال: نرحب بوفد رابطة العالم الإسلامي وكنا نود لو اجتمع المسلمون هنا كلهم ليحيوكم، ولكنهم منتشرون في أنحاء المدينة. والمهم انه إذا بني المسجد في مكان جديد فإن المسلمين سيحاولون السكنى بالقرب منه، لأن المسلم يحب ان يسكن بالقرب من اخوانه وقال: إنه إذا أزيل الحي مع المسجد فإن بيوتاً من بيوت المسلمين في الحي ستزال أيضاً ولذلك سيبحثون لهم عن أماكن قريبة من المسجد.



في فصل تدريب الأئمة في جامع تايوانغ في شنغهاي

وذكر ان الحكومة ستعوض المسلمين عن المسجد كما انها ستدفع تعويضاً لأهل البيوت التي ستهدم في الحي إذا كان أهلها يملكونها حتى المستأجرون تعطيهم الحكومة تعويضاً مناسباً، وذكر ان أكثر المسلمين في هذا الحي هم من العمال.

وبعد هذا الكلام المشتمل على ثناء مبطن للحكومة كما هي العادة هنا في مدينة شنغهاي مما لم نجده في شمال الصين أو مما لا يسارع المسلمون إلى قوله هناك.

ابتدأ في الأمر الجدي فقال: إننا الآن نجمع النقود لبناء المسجد الجديد الذي سننتقل إليه. وقد جمعنا من الاخوة المسلمين حتى الآن عشرين ألف ين والحاجة ماسة إلى اربعمائة ألف تقريباً. لأن المسجد الجديد سيكون أكبر من هذا أربعة أضعاف.

وكان حديثنا مع الامام على فنجان من الشاي الخفيف المر كالعادة قدمه للوفد وذكر أنهم سيبدؤون بالعمل في المسجد الجديد في السنة القادمة وقد حرصت عل استجلاء أمر هذا المسجد وتصويره قبل هدمه وإزالته فوجدت فيه لوحات عديدة كلها عربية إسلامية ومكتوب على بابه الداخلي الآية الكريمة: ﴿وان المساجد لله فلاتدعوا مع الله أحدا﴾، بخط واضح. كما رأينا تاريخ بنائه في عام ١٩١٤م.



عند باب المسجد الذي سيهدم في شنغهاي

وعلّق أحد الاخوة من المسلمين الحاضرين من أهل الحي فقال: إنه يوجد في هذا الحي وما هو

قريب منه عدد من المسلمين يبلغ نحو ألف وستمائة وأربعين نسمة . وان بعضهم سينتقلون مع المسجد إذا نقل إلى مكان آخر .

ثم غادرنا هذا الحي القديم فوجدنا جماهير مجمهرة من الناس من رجال ونساء وأطفال قد تجمهروا حول المكان وامتدت صفوفهم مع امتداد الشارع الضيق الذي يقع فيه المسجد انتظاراً لرؤية الزوار الذين قد هيء لهم كل هذا الموكب من السيارات وأكثرهم من غير المسلمين ورأيناهم يحيون وحتى الأطفال الذين على أيدي أهاليهم رأينا أهاليهم يرفعون أيدي الأطفال بالتحية ، وأما الكبار فإنهم يقولون كلمة سألت المترجمين عن معناها فقالوا : إنهم يقولون : مرحبا ، مرحباً .

في القديم والحديث :

توجد أحياء قديمة ذات طابع مميز في مدينة (شنغهاي) ولكن لاتوجد بها أحياء جديدة واسعة ذات طابع معين تشتمل على الحوانيت المتنوعة والدارات (الفيلات) أو المنازل الخاصة الفاخرة وإنما الجديد فيها هو أبنية متعددة الطوابق (عمارات) تبنيها الحكومة لتؤجرها شققاً على موظفيها وعمالها .

ولذلك يمكن أن يقال بشيء من عدم الدقة : ان مدينة شنغهاي تنقسم الاحياء فيها من قديم إلى حديث غير جديد أو لنقل انه القديم الحديث لأن الأحياء الجديدة التي تقام في مدن الاقطار الحرة اقتصادياً إنما يقوم على

الحي القديم في شنغهاي

إنشائها الأفراد والشركات المؤلفة من مساهمين أفراد وهذه غير موجودة في الصين. مع ان مدينة (شنغهاي) قبل استيلاء الشيوعية عليها كانت فيها أحياء جديدة راقية فبقيت على حالها ماتزال تلك الأحياء جيدة إلا ان مقاييس الجودة في أحياء المدن الراقية الحرة التي انشئت منذ عهد قريب قبل عشر سنوات أو خمس سنوات قد تجاوزت مقاييس الحاجة إلى الجمال في التخطيط فأصبح المطلوب ان تكون الشوارع أوسع لكي تفي بالحاجة لاستيعاب آلاف السيارات الحديثة وصارت الميادين أرحب من أجل الوفاء بما يحتاج إليه الناس في الوقت الحاضر من انسياب في المرور مع وجود حدائق أو ساحات خضراء كافية في تلك الميادين وأمثالها. إلى جانب مواقف السيارات التي يحتاجها السكان الذين تحيط منازلهم بالميدان. .

سرنا في الشوارع الرئيسية من مدينة (شنغهاي) وقد امتلأت بالدراجات والمشاة لأن هذه الساعة هي ساعة انصراف الناس من أعمالهم اليومية فهي الخامسة والربع وقابلنا أفواج المشاة في شارع (نانكين) وكأنهم الأمواج المنسابة وهم يسيرون على الأرصفة الجيدة.

ورأينا حانوتاً كبيراً مكتوباً عليه باللغة العربية: (الدكان الإسلامي للحلوى والفطائر) وهو حكومي مشهور واقع في شارع نانكين هذا الذي رأينا الزحام فيه على أشده لأنه شارع تجاري ومع ذلك لاتزال تسير فيه حافلات الركاب الكهربائية التي يسميها المصريون (ترولِّي باص) وهذه العربات الكهربائية موجودة في شوارع عديدة من المدينة. وأرصفة الشارع جيدة الرصف وواسعة وهو مشجر بأشجار الظل ولكن لم أر فيه مقاهي كثيرة من مقاهي الرصيف التي تكثر عادة في مثيلاته من الشوارع التجارية الرئيسية في المدن الحرة كشارع (الشانزلزيه) في باريس. وانما رأيت (مقهاة) واحدة في الداخل

وليس على الرصيف من كراسيها أو روادها أحد.

ويمتلىء الشارع بالعمارات الجديدة ذوات الطوابق المتعددة وكلها ليست جديدة البناء لأن العمارات الجديدة تبنيها الحكومة في ضواحي المدينة على أراض خالية أو في أمكنة أحياء قديمة ذات بيوت من طابق واحد تزيلها وتبنيً عليها (بنايات) ذات شقق سكنية تستوعب أكثر مما تستوعبه البيوت الانفرادية الخاصة من السكان.

وحتى الأزقة المتفرعة من هذا الشارع المهم (نانكين) هي جيدة المظهر ذات أرصفة بعضها مبلط بالأسمنت لأنه أقوى من البلاط المعتاد.

وأما الجمهور فإنه الجنس الصيني الخالص- إن لم يكن في هذا القول سذاجة في التعبير- وأريد بذلك الجمهور الذي تتجلى فيه الخصائص الجسدية الصينية المعروفة ويكاد المرء يحس بأن الناس هنا على وجه العموم تميل قاماتهم إلى القصر بالنسبة إلى أهل بكين الخلص مثلاً.

وأكثر مفارق الطرق هنا عليها الجنود يسيرون السيارات بإشارات من أيديهم وليس فيها إشارات مرور ضوئية وإنما تكون هذه الاشارات وهي موجودة ظاهرة في المفارق الرئيسية وعلى الشوارع الكثيفة الحركة.

ويلاحظ المرء كثرة في ركاب الحافلات الذين يراهم قد تجمعوا في محطات الحافلات المعتادة والكهربائية ولكن الزحام المؤذي غير موجود هنا ومظهر الحافلات نفسها هنا جيد والتراكض على ركوبها غير موجود.

ومررنا أيضاً بميدان الشعب في قلب المدينة وهو واسع جداً يستعمل جزء منه للاستعراضات وللتجمعات الجماهيرية ويقع عليه مجلس نواب الشعب.

يوم الثلاثاء: ١٤٠٤/٨/٧هـ - ١٩٨٤/٥/٨م

معرض الصناعات

يتضمن برنامج الوفد هذا اليوم عدة فقرات ليس من بينها فقرة تتعلق بأمور إسلامية وذلك لضعف النشاط الإسلامي في المدينة بسبب قلة عدد المسلمين بالنسبة إلى كثرة سكانهاولكونها تعتبر موطناً من مواطن الاحتكاك الثقافي الذي تخشى منه الحكومة الصينية على مذهبها الشيوعي.

وأولى الفقرات كانت زيارة معرض صناعات (شنغهاي) فشنغهاي اشتهرت بأنها مدينة صناعية، وكونها كذلك أمر تستغله الحكومة. وتريد له الذيوع والانتشار لأن التجارة كلها بيدها لذا تحرص على إبراز ماتستطيع أن تنتجه شنغهاي من صناعات وبخاصة ماكان منها صالحاً للتصدير، ولذلك تجعل زيارة هذا المعرض في برنامج زيارة الوفود الأجنبية.

والمعرض بناء واسع مؤلف من عدة طبقات ولايتسع للنماذج الحقيقية من المصنوعات الكبيرة ولذلك وجدناهم عرضوا نماذج مصغرة منها من ذلك بواخر كبيرة لأغراض مختلفة من أغراض النقل البحري ، ومحركات للسفن تعمل بالديزل، ومعدات لأجزاء السفن الكبيرة وقطع من قطع التغيير للسفن وكلها صنع



معرض الصناعات في شنغهاي

شنغهاي.

ثم رأينا ركناً فيه مواد البناء ومنه أنواع مختلفة من البلاط الذي يستعمل لأغراض مختلفة مثل بلاط السطح وبلاط الحمام وقماش من ألياف زجاجية لكسوة الحيطان الداخلية وأنواع من الزجاج.

وفي القسم أو الركن المتعلق بذلك موظفة مسؤولة عنه تبادر بشرح كل مايتعلق به للزائرين إذا كانوا من الضيوف أو من المحتفى بهم.

ثم انتقلنا إلى ركن آخر فيه محركات توليد الكهرباء ومولدات كهربائية صغيرة وكبيرة وآلات خرط الحديد واللحام، ومحركات تعمل بالديزل للسيارات.

ثم كان الذهاب إلى قسم للملابس والمنسوجات والأحذية وآخر للآلات الموسيقية والأدوات الكتابية.

وتعددت الأركان والمعروضات. أما الأسعار فإنها غالية من ذلك غسالة متوسطة كتبوا عليها سعرها ٣٣٨ يناً.

وهناك أشياء تلفت النظر لحداثتها، أو غرابتها من ذلك قسم للأنسجة الصناعية من المواد غير الطبيعية كالأنسجة التي تدخل اللدائن في تركيبها وقد صنعوا من هذه المواد الصناعية غير الطبيعية أشياء أخرى غير الملابس كالأثاثات المنزلية.

ثم قاعة كبيرة مميزة خصصوها لصناعة صينية أصيلة، بل عريقة الأصالة في الصين وهي الأقمشة والمنسوجات الحريرية من طبيعي وصناعي.

ورأيتهم كتبوا على دراجات هوائية من دراجاتهم سعر الكبيرة منها هو ١٨٠ يناً والصغيرة ١٥٠ يناً، أما الدراجة النارية فإن الخفيفة

الصغيرة منها سعرها سبعمائة ين .

وهناك ساعات ومصورات - آلات تصوير - من صناعتهم وكلها أغلى سعراً من مثيلاتها اليابانية وأقل جودة .

ويجب أن لا ننسى ان (الين) الواحد وهو العملة الصينية يساوي خمسة وأربعين سنتاً من الدولار الأمريكي بالصرف الرسمي وفي السوق الحرة التي تمنعها الحكومة يساوي ٣٣ سنتاً .

والواقع ان الصناعات المعروضة هنا والتي قالوا انها كلها من مصنوعات شنغهاي هي كثيرة ومتنوعة وجودتها لابأس بها ولكنها دون ماكنت ظننتها عليه بناء على ما في ذهني من عراقة الصين في الصناعة ومن رخص اليد العاملة في الصين ،وقول الحكومة الصينية بأنها طورت الصناعة في الصين بل ادعت أنها أحدثت ثورة صناعية يصعب على الصين تحقيقها في أزمان طويلة بدونها .

محطة التلفزة :

والفقرة الثانية من زيارات هذا اليوم هي لمحطة التلفزة ذهبنا إليها في التاسعة والنصف وهي خاصة بمدينة (شنغهاي) فوجدنا في الاستقبال مدير المحطة ونائبه وقد أمرتهم السلطات الحكومية أن يكونوا في استقبال وفدنا .

وفي قاعة استقبال جيدة الأثاث بل ان أثاثها كله على طراز أوروبي ليس فيه من الأثاث الصيني شيء قدم المدير الشاي الصيني المعتاد ورحب بالوفد وقال : أنشئت هذه المحطة في عام ١٩٥٧م بعد إنشاء محطة بكين فهي كانت المحطة الثانية .

وفي البداية كان عدد الموظفين فيها ثلاثين والآن فيها ثلاث قنوات كلها ملونة. ثم قال : إن أرياف (شنغهاي) فيها أجهزة تلفزيونية كثيرة حتى الفلاحين لديهم أجهزة ملونة لأنهم أغنياء.

وهذا مشكوك فيه فالفلاحون ليسوا أغنياء إلى درجة انهم يشترون التلفاز الملون وهذا أمر معروف للجميع ولكن الأمر الشائع المعروف ان الفلاحين هم الآن أحسن حالاً على وجه العموم- من الموظفين والعمال الذين يسكنون في المدن وتلتهم وسائط النقل دخولهم القليلة لأن الفلاح يوفر ذلك على نفسه لكونه يسكن في منزل له بدون أجرة وليس عليه التزامات كالتي يلتزم بها سكان المدن.

ثم قال مدير محطة التلفزة: إن (التلفاز) هو صديق الفلاحين، وكذلك التلفزة للتوعية الإسلامية لأن الجمعية الإسلامية تأتي في المناسبات بناء على طلب من رئيس الجمعية الإسلامية فقد أذاعوا في العام الماضي طواف الحج.

ثم قدم المدير هدايا رمزية هي دفاتر ومحافظ جلدية صغيرة.

برج شنغهاي:

أرسل مدير محطة التلفزة معنا نائبه في إدارة المحطة ففتح لنا برج التلفزة الذي يسميه بعضهم برج شنغهاي لارتفاعه الذي ذكروا انه يصل إلى ٢١٠ أمتار ولكنهم قالوا: إننا سنصعد ١٢٦ متراً فقط. وكان يرافقنا رئيس الجمعية الإسلامية وعدد من موظفي المحطة والمرافقين. دخلنا مصعداً متوسط السعة والجودة أوصلنا إلى المكان المطلوب من البرج في ٦ ثوان كما قالوا لأنه سريع ولايقف دون الهدف.

ولقد كان لهذا الصعود مايبرره من استجلاء منظر مدينة شنغهاي وبخاصة القسم العصري منها ولانقول الجديد لما سبق.

وقد كان المنظر بديعاً لأن البرج يتوسط ذلك القسم العصري من المدينة ومنه ترى أبنية لها قيمتها منها فندقنا الذي نسكن فيه (جيانغ جانغ) وكنت أرى هذا البرج من نافذته ولكنني لم أدر ماهو في أول الأمر، وفندقاً آخر أتموا بناءه قبل سنتين اسمه (فندق شنغهاي). وميدان الشعب وكان قبل ذلك ميدانا لسباق الخيل في عهد الانجليز، و(البرلمان) أو مجلس نواب الشعب والمكتبة العامة، ودار عرض الألعاب البهلوانية (الاكروبات) وهذا الفن مما يشتهر به الصينيون، بل يكادون يفوقون غيرهم فيه.

وأكثر البيوت العامة التي يراها المرء من هنا بيوت كانت فاخرة وكان يملكها رجال أثرياء، ووجهاء، في العهود السالفة وليس فيها عمارات كثيرة متعددة الطوابق إلا قليلا، إلا أن المرء يبصر على البعد عمارات سكنية عالية وهي جديدة بنتها الدولة.

وبخصوص السيارات التي تجوب شوارع هذا القسم العصري وسط المدينة فإن الذي يسمع أبواقها يظنها كثيرة العدد غير ان الذي يراها من هذا البرج يرى أنها ليست كثيرة، وإنما اطلاق أبواق السيارات أمر شائع في الصين، لأن الشوارع قديمة التخطيط والمارة كثير، والسيارات هي من صنع وطني غير حرة الحركة أو غير بالغة المرونة في الحركة.

وترى من هذا البرج نهراً يسمونه نهر (شوتشو) وهو فرع لنهر (وانغ بو) الذي هو متفرع من نهر (يانغ تسي) العظيم.

مأدبة المجلس الاستشاري:

يتضمن برنامج الوفد تناول طعام الغداء على مأدبة نائب رئيس المجلس الاستشاري واسمه (جانغ تشين جونغ). وموعده في الثانية عشرة وهو الموعد الرسمي للغداء في الصين وبخاصة في المآدب الرسمية في العادة .

وصلنا إلى مكان الحفلة فإذا به أشبه مايكون بالقصر الفخم من قصور أوروبا إلا انه في قلب المدينة وقد أخبرنا انه كان (النادي الفرنسي) إبان الحكم الاستعماري على مدينة شنغهاي.

فاستقبلنا نائب رئيس المجلس الاستشاري وهو صيني أصيل كبير السن من قومية (خان) التي هي القومية الرئيسية في الصين ومن غير المسلمين وكان نائباً لرئيس حكومة شنغهاي مدة عشرين سنةووجدنا مصوري التلفزة والصحافة حاضرين بآلاتهم فصوروا الاستقبال بل صوروا الحركة في المأدبة كلها وقد بثوها من التلفاز في مساء هذا اليوم. وحضر المائدة عدد من رجالات الدولة في المدينة منهم (ماني سانغ) نائب رئيس شؤون القوميات وهو مسلم والمسؤول عن إدارة الشؤون الدينية غير مسلم.



نائب رئيس المجلس الاستشاري في شنغهاي وعلي يمينه المؤلف وعلى يساره المترجم الأستاذ لقمان ماشان لي

تحدث مضيفنا عن العلاقات المتينة مابين الصين والبلدان العربية في التاريخ القديم، وألمح إلى

ان شعب الصين يتطلع إلى إعادة تلك العلاقات إلى سابق ماكانت عليه، بل إلى أقوى من ذلك، وبخاصة ان هناك الآن علاقات حميمة بالصين مع عدد من البلدان العربية.

وقد رددت عليه بكلمة ضافية ركزت فيها على ماعرفناه في كتبنا العربية التاريخية من تسامح الصينيين مع المسلمين وتقديرهم لهم، وتمكينهم من بناء مساجدهم، وأداء شعائرهم بكل حرية، وألمحت إلى ان ما حدث في الصين إبان الثورة الثقافية يعتبر بمثابة النغمة الشاذة في سير الثقافة الصينية وفي نظام الحياة التقليدية وعلاقات الصينيين بغيرهم من ذوي الأديان والثقافات الأخرى.

والرجل وهو المحنك الكبير السن يدلي بإحصاءات عن المسلمين في الصين ومهد لذلك بأن قال: نحن نحترم المسلمين ففيهم مثقفون أكثر من غيرهم بالنسبة إلى عددهم، فمثلاً هناك ألفان وسبعمائة جامعي في شنغهاي من المسلمين.

وذكر ان نسبة تمثيل المسلمين في المؤسسات الرسمية الصينية تزيدعلى نسبتهم العددية بالضعف فمثلاً هناك اثنا عشر نائباً مسلماً من ٩٧٧ من غير المسلمين. بل ان نسبة تمثيل المسلمين هي لكل عشرة آلاف شخص اثنان على حين ان هذه النسبة للصينيين غير المسلمين هي نائب واحد لكل اثني عشر ألفاً.

وذكر ان مجلس الوزراء المركزي فيه سبعون وزيراً منهم ثمانية من المسلمين. وكذلك القول في نواب الحي تكون نسبة تمثيل المسلمين دائماً أكثر من عددهم.

وقد استمر حديثه عن المسلمين وهو حديث شيق إلا انه يرد عليه انه لايتكلم مع شخص يعرف دقائق هذه الأمور حتى يتيقن ان كل

ماقاله صحيح، ويرد عليه أيضاً ان الحكومة الصينية الشيوعية لا تصنف الناس حسب أديانهم ولكن حسب قومياتهم ولذلك قللت من عدد المسلمين لأنها لا تدخل في حسابها لهم إلا القوميات المسلمة الخالصة للمسلمين أما الأقليات المسلمة من القوميات الأخرى فإنها لم تحسبها من المسلمين، كأقلية التبت ومنشوريا. كما أن الأقليات في المدن والأرياف البعيدة التي لاتنسب إلى قوميات معينة لم يتناولها حسابهم أيضاً.

إلا أن حديث الرجل كان مفيداً لأنه تناول أموراً كثيرة من أمور الصين. وكان حديثاً طريفاً شيقاً كما كان طعامه صينياً شهياً رأينا فيه عجائب من الأطعمة الصينية لم نرها في المآدب السابقة رغم إكثارنا من حضورها من ذلك انهم أحضروا اللحم موضوعاً في سلة من الحصير تبين أنها سلة تؤكل إذ هي من البطاطس.

وجاءوا بطبق فيه العصافير وقالوا - ولا أدري صدق قولهم- إنها مذبوحة على الطريقة الإسلامية وحلوى من العدس على هيئة (آيس كريم)، وبقية أواني الطعام كانت على هيئة فواكه!

إلى حديقة يي يانغ :

تحرك الموكب في الثالثة ظهراً مخترقاً وسط المدينة القديمة ذات البيوت الضيقة بدليل ان الناس ينشرون ملابسهم المغسولة على الشرفات التي حفلت بالملابس المنشورة.

وكان الزحام بالغاً في هذه الشوارع الضيقة. حتى كانت سياراتنا تشق طريقها بصعوبة حتى وصلنا زقاقاً أضيق من غيره لايتسع إلا لسيارة واحدة وبصعوبة بالغة وهو الذي يفضي إلى الحديقة التي نقصدها.

وذلك لأن هذه الحديقة قديمة وكانت قائمة منذ قرون عندما كانت كل (شنغهاي) هي هذه المدينة القديمة.

فقد ذكروا ان هذه الحديقة كانت ملكاً خاصاً لأحد الأشخاص البارزين من الصينيين وفي عام ١٩٥٦م صادرتها الحكومة الشيوعية فصارت ملكاً عاماً من أملاك الدولة وفي عام ١٩٦٠م فتحت للجمهور.

أما تاريخها القديم فقد ذكروا انه يرقى إلى ماقبل أربعمائة سنة بقليل.

استقبلتنا مديرة الحديقة واسمها (ني سونغ سي) وهي صينية أصيلة بمعنى ان الخصائص الصينية كلها واضحة على وجهها ومظهرها، وهي في المتوسط من عمرها وذلك لأن المسؤولين في الدولة أخبروها بقدومنا كما هي العادة مع وفود الزائرين من الأجانب. رحبت مديرة الحديقة بضيوفها وهي تظهر الاهتمام وبدأت مديحاً متواصلاً للحكومة كما سمعناها بل كما كررت ذلك على أسماعنا.

قالت: إن مساحة الحديقة تزيد قليلاً على عشرين ألف متر، وإنشاؤها أول مرة استغرق خمس عشرة سنة، وذلك انها ليست حديقة فقط، بل هي قصر وأماكن تحكي الجبال ومواضع تحكي الوديان وكل ذلك مصنوع لأنها واقعة في المدينة القديمة من شنغهاي واسمها (ييى يانغ) ذكروا ان معنى كلمة (ييى) وهي بيائين أي ياء واحدة مكررة طاعة الأم والأب، وسبب تسميتها بذلك هو التذكير بطاعة الأبوين التي هي من التقاليد الصينية العريقة.

ثم بدأت الجولة في الحديقة بصحبة المديرة التي كانت تشرح كل

شيء وعند رؤية معبد بوذي صغير رأيناه مغلقاً لم نسأل عن السبب لأنه مفهوم لنا وهو معاداة الشيوعية للأديان وارتكازها على الالحاد وبخاصة بالنسبة إلى الأماكن التي هي تابعة للدولة.

أكثر مايلاحظه المرء في هذه الحديقة حتى بدون ان يلفت نظره إلى ذلك أحد كثرة النقوش الصينية المنوعة المنقوشة بألوان صارخة وفقاً للفن الصيني المعروف في هذا المجال.

ثم أرتنا قاعة واسعة لها مداخلها واعمدتها في داخلها وسقفها مقبب على الطريقة الصينية، وقالت: إن هذه القاعة مبنية من الخشب ولكن العجيب أنه ليس فيها مسمار واحد وإنما أدخلوا بعضها في بعض بطريقة فنية حتى اصبحت على ماهي عليه وهي قديمة البناء، سألت المديرة عن السبب في كونها سلمت على مدى قرون من الحريق رغم كونها من الخشب والخشب بطبيعته إذا طال عهده صار أكثر عرضة للحريق فأجابت: ذلك لكونها بنيت بعقول والعقل الكادح جعلها تسلم من الحريق. وقالت: إنها إذا أخذ منها جزء سقطت كلها ويمكن أن تنقل كلها أما بعضها فلا يمكن نقله.

هكذا قالت وهم يستعملون كلمة (كادح) هنا للجماعات التي قالوا ان الشيوعية قامت من أجل نصرتهم، مع العلم بأنها بنيت- في الحقيقة- قبل الشيوعية بقرون ولكنها تقصد ان الذين بنوها لأهلها الأغنياء كانوا من العمال الكادحين. وهذا التنويه بهذه الأمور يكمل مالاحظناه هنا في مدينة شنغهاي ولم نلاحظه في المدن التي زرناها قبلها وهو الثناء على الحكومة أو ذكر ماقامت به للعمال والفلاحين- وقد قدمت شيئاً من ذكر ذلك.

جبل اصطناعي :

بعد منظر هذه القاعة الكبيرة الخشبية التي أقيمت من غير مسامير كان لنا منظر جبل اصطناعي لم يكن في مكانه جبل ولا حجارة قبل ان يقيموه وقد نقلوا إليه الصخور الكبيرة وركبوا بعضها على بعض حتى بدت للناظر صخوراً كبيرة طبيعية مع انها تستعصي على امكانات الناس في ذلك العصر الذي بنوه فيه وهو ماقبل أربعمائة سنة كما قالت المديرة.

وقد جعلوه وعراً يصعب الصعود إلى قمته، امعانا منهم في إظهاره بمظهر الجبل الحقيقي، ولما أبديت استغرابي من قدم تاريخه ذكرت ان تمثالي أسدين منصوبين على باب الحديقة ورأيناهما عند الدخول قد صنعا قبل ستمائة سنة.

ثم صعدوا بنا إلى غرفة خاصة لها نافذة تطل على منظر خاص به لاتتيسر رؤيته من غير هذه النافذة وكذلك لايسمحون بالاطلالة من هذه النافذة إلا لكبار الزوار.

والشجرة المعمرة :

وأرتنا الدليلة شجرة لها ثمر أبيض وقالت: هذه الشجرة عمرها أكثر من أربعمائة سنة غرسها والد المالك الأول للحديقة ولم أر في هذه الشجرة مايلفت النظر ولا يظن من يراها فيها طول العمر.

وإنما المنظر المخيف الملفت للنظر هو لخمسة تنانين- جمع تنين- عظيمة ضخمة بنيت بأحجام كبيرة من الطين والآجر وصبغت بصباغ أسود وهي تحتاج إلى الترميم والتعهد في كل بضعة من السنين.

ومعلوم ان التنين هو رمز الصين وهو عندهم حيوان خرافي،

وعند أسلافنا العرب هو الحية العظيمة والشيء الذي لاحظته وله معنى خاص ان في الحديقة مراحيض (دورات مياه) ومقهى مخصصة للأجانب ولايجوز للصينيين ان يدخلوها والأجانب يراد بهم زوار الحديقة من غير الصينيين ولو لم يكونوا من ضيوف الحكومة أو المؤسسات التابعة لها، وإنما الأجانب من السياح والتجار وغيرهم عندما يأتون تكون جيوبهم عامرة بالعملة الصعبة التي تستحق أن يحرص عليها. ويستحقون من أجلها أن تخصص لهم (دورات مياه) خاصة ومقهاة كذلك.

وقد شربنا الشاي وعصير الفاكهة في هذه المقهاة ضيافة من المديرة.

ومن أطرف ما عملوه أنهم أقاموا في داخل الحديقة أنموذجاً مصغرا للحديقة كلها بكافة معالمها حتى الجبل الاصطناعي أقاموا في مكانه من الحديقة جبلاً صغيراً صورنا عنده، وذكروا من خرافاتهم ان من يقف في هذا المكان ويفكر في شيء فإنه يتحقق له ماأراد. وهذا هراء لأن الذي لاشك فيه ان كثيراً من الصينيين بل ان أكثر الصينيين ليسوا من الشيوعيين ولايريدون الشيوعية ولاشك في ان بعضهم قد جاء هنا وفكر في ان تتخلص البلاد من الشيوعية ولم يتحقق له ذلك.

وفي نهاية الجولة ودعتنا المديرة بانحناءة اصطناعية مع ابتسامة صفراء، ولا أدري لم شعرت بذلك على خلاف ما شعرت به عندما يبتسم لي ويصافحني أفراد من عامة الشعب الصيني الذي هو شعب مؤدب مهذب.

ممنوع دخول الصينيين والكلاب :

عفواً فهذه العبارة هي نقل أمين لعبارة كانت موجودة على حديقة وصلنا إليها بعد أن تركنا حديقة (يبي يانغ)، وقد أزيلت هذه الجملة من الحديقة قبل نحو ٥٨ عاماً ولكن الناس لايزالون يذكرونها وبخاصة المسؤولين الحكوميين لكي يوضحوا لأبناء مدينة شنغهاي أنهم كانوا مستعمرين ومحتقرين من الأجانب قبل تحرير المدينة.

واسم الحديقة (هوان بو) وكانت حكراً على المستعمرين الأوربيين دون الصينيين. وكان الانجليز على وجه الخصوص هم الذين كانوا قد كتبوا تلك العبارة على مداخل هذه المدينة التي تمنع دخول الصينيين ودخول كلاب الأوربيين إلى الحديقة وقد رفعت تلك اللافتات في عام ١٩٢٨م.

وهي ليست واسعة إلا انها فاخرة أو كانت كذلك وليس في مبانيها ولا فيما حولها شيء يوحي بالأصالة الصينية و هي مبنية على الطراز الصيني مع أنها ليست كالحديقة التي قبلها التي هي حديقة ومتحف وإنما هذه حديقة ذات أشجار باسقة وزهور متسقة.

وتقع في موقع جميل من ضفة نهر (سوجيو) ويفصلها عن مياه النهرجدار عريض يمكن الوقوف عليه أو الجلوس على مقاعد عنده فيتمتع المرء برؤية الحديقة وينقل بصره منها إلى هذا الخضم الضخم من مياه النهر الذي يقع عليه ميناء شنغهاي الكبير.

وهذا النهر رغم كونه ليس مشهوراً فإن مياهه هائلة الكثرة والاتساع في هذه النقطة التي يقع فيها ميناء مدينة شنغهاي التي كانت أكبر مدينة صناعية وتجارية في الصين كلها. لأنها أكبر مدن الصين على الاطلاق.

وتمتد مياه هذا النهر مسافة ٢٨ كيلومترا فتختلط بمياه نهر (يانغ سي) العظيم.

وإذا أبصر المرء هذا الميناء الضخم الذي يعد واقعاً في مياه نهرية لم يكد يصدق ذلك بل قد يظن انه في مياه بحرية مع ان مياه النهر هذه لاتصل إلى البحر إلا بعد ثمانين كيلومترا وهذا الميناء النهري هو أكبر ميناء في الصين ويبلغ عمق الماء فيه تسعة أمتار وتسعة أعشار المتر وطاقته للصادر والوارد تسعون مليون طن في السنة.

ويلفت النظر هنا منظر بعض العشاق - وهو منظر غير لائق بطبيعة الحال - فيما بين المدينة والنهر وهو منظر قلما يراه المرء في مدن الصين الأخرى فشنغهاي كان لها وضع خاص ولايزال هذا من رواسبه وبخاصة أنها تستقبل زواراً كثراً من ذوي الأصل الصيني المنتشرين في العالم.

وقد بنوا فيها سطوحاً صغيرة كي يتمكن المتفرجون من استجلاء المنطقة ومن أهم المناظر التي يراها المرء من هذه السطوح التقاء النهرين اللذين تكون مياههما هذه المياه التي أقيم عليها ميناء شنغهاي وهما نهر (سوجيو) ونهر (هوانغ بو). وتبلغ مساحة الحديقة ثلاثين مو وهو وحدة القياس للمساحات المسطحة في الصين و(المو) الواحد يساوي هكتارين.

وذكروا ان هذه الحديقة انشئت في عام ١٨٨٥م.

وعندما رأيت كثرة الناس في شوارع شنغهاي وفي هذا الميناء النهري عرفت السبب الذي حمل الحكومة الصينية على تحديد النسل في الصين وليس هذا بطبيعة الحال استحساناً لما فعلوه وإنما التماساً لمعرفة سبب التحديد فقد اجتمعت في ذهني مناظر كثرة الناس في المدن والبلدان التي مررت بها في الصين حتى الآن وانضاف إليها منظرهم في هذا الأصيل حتى كاد المرء لايجد له ممراً بينهم لأنهم في مثل هذه الساعة يخرجون إلى المنتزه في هذه المدينة وعلى شاطيء النهر وبخاصة في مثل هذا الفصل الربيعي وفي مدينة شنغهاي نفسها التي تفوق غيرها من

المدن الكبيرة في الصين في الطقس ويفوق أهلها غيرهم من سكان المدن الكبيرة في الملبس والمأكل فيها يظهر للمتأمل المستعجل مثلي أو هذا هو مايتبادر من مظاهر الناس ومناظرهم الخارجية. ماعدا شيئاً واحداً ذكروه لنا وهو السكن فإن الضيق هنا عام شامل للسكان في جميع المدن الصينية الكبيرة.

إلا أن الذي قد يعزى بعضهم بالنسبة إلى مايعرفه من تدني الدخل الفردي في الصين ان أجور المساكن رخيصة جداً إذا قورنت بالمدن الكبيرة في خارج الصين.

ورأيت طوائف من الذين ينتظرون الحافلات بعضهم كانواجالسين وبعضهم ظلوا واقفين والحافلات كثيرة وأجرتها رخيصة ولكن الناس كثير جداً.

ومع ذلك فإن النظام هنا هو السائد فلاتزاحم ولا أحداث مستكرهة أوخصام بين الناس أو تشاحن عند الركوب أو المرور.

وبعد قضاء وقت ممتع في هذه الحديقة وعلى ضفاف النهر الذي كان نهرين قبيل وصوله إلى منطقة الميناء عدنا إلى الفندق مع طريق شق القلب التجاري لمدينة (شنغهاي) الذي كان فاخراً حتى شبهه بعضهم ببعض أسواق باريس وهو كان مثل القلب التجاري للقاهرة في ذلك الوقت أما الآن فلم يبق إلا المظاهر القديمة في أبواب الحوانيت والأرصفة وأما المتاجر فقد أصبحت كلها حكومية وأصبح العاملون فيها موظفين للدولة وصارت السلع كلها مما تبيعه الدولة فقلت محتوياتها، وذهب رونقها وصارت مثل (عزيز قوم ذل) و(تلك الأيام نداولها بين الناس) صدق الله العظيم.

ولم يبق في برنامج الليلة إلا حضور حفلة (بهلوانات الاكروبات)

ولكننا لم نرغب الذهاب إليها.

ومدينة شنغهاي هي - كما قلنا - كبرى مدن الصين ذات المدن الكبيرة وكادت تكون في وقت من الأوقات أكبر مدينة في العالم.

وليس مايهمني إيضاحه هنا هو تاريخ هذه المدينة القديم بخاصة أو تاريخ الصين بصفة عامة لأن كتابي هذا هو كتاب مشاهدات وملاحظات قصدت منه، أن أطلع القاريء الكريم على مارأيته أو سمعت به في الصين.

ويندرج فيما يهمني من أمر مدينة شنغهاي معرفة معنى اسمها وكيفية النطق به.

أما النطق به فهو بشين صحيحة كالشين في كلمة «شيء» العربية وتنطق مفتوحة ثم نون بعدها غين عربية صحيحة كالغين في كلمة (غير) العربية وليس كما ينطق بها بعض العرب بأنها بجيم مصرية فذلك إلى كونه غير صحيح في النطق فإنه ينقلها من مكانها الواقع في جنوب الصين غير بعيد من ساحلها الجنوبي إلى مكان ناء عن ذلك المكان في الشمال الغربي من الصين ويخرجها من كونها مدينةً واحدة إلى كونها مقاطعة ذات مدن ونواح.

ذلك بأن كلمة شنغهاي التي تنطق فيها الغين جيماً مصرية وتنطق الشين في أولها معطشة كالحرف الذي يكون في أول الإسم (تشارلز) أو تشرشل- مثلاً- تدل على مقاطعة أخرى من مقاطعات الصين وهي مقاطعة واقعة في الشمال الغربي. وفيها مسلمون، ومساجد عديدة، ولكن لم تتيسر لنا زيارتها. وإن كان الحرف الأول من اسمها مكسوراً بخلاف مدينة شنغهاي التي هو فيها مفتوح ولهذا السبب لابد من التنبه إلى التلفظ بالغين في اسم هذه المدينة الكبيرة وأنها غين حقيقية وأما

معنى مدينة (شنغهاي) فإن المعنى الحرفي له (فوق البحر) فشانغ تعني فوق و(هاي) تعني البحر » وهي في الحقيقة فوق البحر بمعنى أنها مرتفعة عنه وغير بعيدة منه ولكنها على خضم مياه النهر كما سبق.

ومدينة شنغهاي إحدى كبريات المدن في العالم، سكانها ١١مليون نسمة يشغل ثلثهم ما مساحته ١٥٠ كم مربعاً من اجمالي مساحة المدينة غير ان مساحتها الكلية ٦١٠٠ كم مربع بما في ذلك الضواحي وعشر محافظات ريفية.

وإدارة البلدية فيها تشبه تماماً ما في المقاطعات وتخضع مباشرة للحكومة المركزية.

وفي المجال الاقتصادي، تأتي شنغهاي الأولى بين المدن الصينية، إذ تقدم ثمن حجم الانتاج الاجمالي في الصناعة الوطنية، وسدس عائدات الدولة يأتي من شنغهاي، وثلث مايصدر منها يصنع فيها. ولما كانت شنغهاي مدينة كبيرة تعج بالملايين. فقد علق مواطن شنغهاني مسن قائلاً: «بإمكانك ان ترى في شنغهاي كل المدن الصينية متجمعة في مدينة واحدة». فالراغبون في دراسة الصين، ماضيها وحاضرها، يجدون الكثير من قاعات المطالعة ومتاحف الفنون الجميلة. وبامكان المرء ان يرى كافة أنواع الحرف والصناعات اليدوية والأثريات والتحف في المحلات التجارية بالإضافة إلى الأطعمة الصينية الشهيرة. ففي المدينة ٦٠٠ مطعم تقدم كل أنواع مايقدمه المطبخ الصيني.

النهــران :

تدين شنغهاي في نشأتها ونهوضها إلى نهرين، الأول نهر ووسونغ والمعروف باسم نهير سوتشو الذي يربط المدينة بالقناة العظيمة وهي

مجرى مائي من الشمال إلى الجنوب. والثاني نهر هوانغ بو الذي يعتبر منفذ المدينة إلى المحيط الهاديء وهو يلتقي بنهر اليانغتسي على بعد ٢٨كم من المدينة. كانت مدينة تشينغبو، الواقعة حالياً في القسم الغربي من شنغهاي ميناء مزدهراً في عهد أسرة تانغ (٦١٨-٩٠٧م).

تشكلت الدلتا التي تقوم عليها المدينة الكبيرة والتي تشكل نتوءاً بارزاً في البحر منذ أواسط القرن العاشر. ولما نمت الدلتا وكبرت لم يعد نهير سوتشو يصب مباشرة في المحيط الهاديء بل في هوانغ بو حيث صار الأخير أهم النهرين. ونمت شنغهاي وامتدت على ضفة هوانغ بو الغربية.

وتصور إحدى اللفائف العائدة إلى عام ١٥٥٣م مدينة شنغهاي على أنها كانت مدينة متوسطة الحجم. وتبين لفافة أخرى تعود إلى القرن الثامن عشر أنها كانت ميناء للتجارة الخارجية مزدهراً.

جعلت المعاهدات غير المتكافئة التي فرضت على الصين بعد حرب الأفيون في عام ١٨٤٠ مدينة شنغهاي مفتوحة للمغامرين الأجانب الذين أكل قلوبهم الجشع والطمع وبالأخص تجار الأفيون، وفي الفترة مابين ١٨٤٥م و١٩١٤م، استولى المستعمرون الغربيون على مامساحته ٤٠٠٠ هكتار من الأراضي الزراعية حول شنغهاي ووضعوها تحت سلطتهم بحجة «الاستيطان» وبحلول عام ١٩٣٠م كانت الدول الأجنبية الاستعمارية تحكم المناطق الأجنبية في داخل المدينة. ولقد تمتعوا بمكانة تجاوزت الحدود، بمعنى أنهم ومؤسساتهم لم يخضعوا للقانون الصيني، في حين اقتلع الفلاحون الصينيون من ديارهم واخرجوا منها.

دخول الإسلام إلى شنغهاي :

في أيام أسرتي تانغ وسونغ الملكيتين توافد التجار المسلمون من بلاد العرب والبلاد الفارسية إلى قوانغتشو وفوجيان بحراً وربما وصل بعضهم إلى شنغهاي التي كانت تابعة لمحافظة هواتينغ التي وصفها أحد السجلات التاريخية بأنها «محافظة ضخمة مشهورة بسهولة مواصلاتها براً وبحراً في ساحل جنوب الصين الشرقي، يتسابق إليها كبار الأثرياء والتجار العرب والفرس».

ومع تطور الصيد وصناعة الملح صارت المحافظة بالتدريج مجمعا من التجار العرب والفرس ومعرضاً للمواد المختلفة والبضائع الزاخرة.

ومنذ أسرة يوان (١٢٧١-١٣٦٨) تدفق حسب السجلات التاريخية عدد كبير من المسلمين إلى شنغهاي التي كانت مثل كثير من الموانيء في الجنوب الشرقي وصارت غاصة بالأعيان من المغول وأهل الشام ورجال الدين والتجار الأوروبيين والآسيويين.

وفي عام ١٢٧٧م زحف المغول إلى جنوب نهر اليانغتسي وقد جاءوا بكثير من أهل الشام فطاب لهم المقام.


مقبرة اسلامية في شنغهاي

وفي عام ١٢٩٥م عين رجل من أهل الشام اسمه ناصر الدين في منصب مرموق في المحافظة فجاء ومعه ٣٠ ألف شخص من قبيلته.

وفيما بين عام ١٣٤١ وعام ١٣٦٧م بنى مسجد

في المحافظة يصلي فيه أهل الشام كما يزوره التجار الآسيويون والأوربيون، وظهر بجانبه مقبرة إسلامية واسعة. وبهذا يمكن القول ان الإسلام دخل شنغهاي في تلك الفترة.

المسلمون في شنغهاي:

في عهد أسرة مينغ وأسرة تشينغ، استقر المسلمون من البلدان الخارجية في مدينة شنغهاي. فقد اكتشف في قبر قديم قطعة مستديرة دقيقة من اليشم منحوت عليها «لا إله إلا الله محمد رسول الله» باللغة العربية. كان بعض المسلمين يعلقونها على صدورهم.

وفي عام ١٨٤٠م جاء تجار مسلمون بخيل إلى شنغهاي من الشمال الشرقي حيث استقروا لترويض الخيول خدمة للمشترين الأجانب وبنوا مسجداً بعد زمن قصير.

وفي عام ١٨٥٠ غادر مسلمو نانكين إلى شنغهاي هروباً من الحروب والفتن واختاروا منطقة في جنوبي المدينة للاستقرار فيها وبنوا فيها مسجداً، وبعد ١١ سنة من ذلك ظهرت أول مقبرة للمسلمين في مدينة شنغهاي.

نظام التعليم:

كان الاسلوب القديم لدراسة التعاليم الإسلامية متمثلاً في التلاوة بالمسجد والنسخ والحفظ بالبيت. ومنذ القرن التاسع عشر ظهر في شنغهاي نظامان للتعليم الإسلامي أحدهما تتبعه المساجد التي تقبل عدداً من التلاميذ لدراسة «القرآن» الكريم و«الحديث النبوي» على يد الائمة واللغة العربية والفارسية درسهم الأساسي. والنظام

الثاني ساد المدارس الإسلامية التي انشئت في بكين وشنغهاي وشاندونغ في حركة اصلاح نظام التعليم الإسلامي بالصين. وقد ولدت مدرسة التعليم الإسلامي بشنغهاي عام ١٩٢٨ لاعداد أئمة بارعين في اللغة العربية والصينية. فلم تقتصر على دروس الدين الإسلامي فحسب بل اشتملت على المعارف الثقافية والعلوم الأساسية أيضاً، فأزالت بهذا قصور النظام الأول وقد أرسلت ستة من طلبتها إلى الجامعة الأزهرية منهم محمد مكين الذي أصبح استاذاً مشهوراً في جامعة بكين.

وفي عام ١٩١٤ اقيمت الأكاديمية الإسلامية الصينية في شنغهاي ولها أثر عظيم في ترجمة معاني «القرآن الكريم» إلى الصينية وإدارة مدارس اللغة العربية ومدارس التعليم الإسلامي وإصلاح التعليم الديني. وفي عام ١٩٢٩ انشئت جمعية الإسلام الصينية في شنغهاي لإعداد الأئمة وإدارة المدارس.

ومع إصلاح وتطوير التعليم الإسلامي نشرت في شنغهاي كتب عن تعاليم الإسلام وتاريخه ومواد تدريسية للغة العربية وأكثر من ١٠ صحف ومجلات كما أقيمت (٢٠) مدرسة متوسطة وابتدائية إسلامية ومنذ عام ١٩٦٢م وفرع شنغهاي للجمعية الإسلامية الصينية يساعد الحكومة في تنفيذ سياسة مساواة القوميات وحرية



النساء يصلين صلاة العيد في مسجد تايوانغ بشنغهاي

الاعتقـاد الدينـي ويستنهض المسلمين على البناء الاقتصادي ويبلغ الحكومة آراءهم وطلباتهم وينظم رجال الدين في الدراسة السياسية والبحوث العلمية للتعاليم الإسلامية والمعلومات التاريخية ويقيم الاحتفالات الدينية ويبادل الاتصالات الودية مع المسلمين في بلدان العالم لزيادة التفاهم وتعزيز الصداقة.

إلى محافظة تونغ يانغ:

والقصد من زيارتها رؤية مسجد تاريخي قديم فيها وهو مسجد خربه الشيوعيون في زمن (ماو تسي تونغ) حين حولوه إلى مصنع واستعاده المسلمون منهم قبل فترة قصيرة ولكنهم استعادوه وهو يكاد يكون خراباً يباباً إلا بقايا من قسم فيه بني على الطراز العربي. كما أخبرونا.

ويبعد عن مدينة شنغهاي بخمسة واربعين كيلومتراً.

غادر الموكب فندقنا في (شنغهاي) في الساعة الثامنة صباحاً تتقدمه السيارة الرسمية كالمعتاد ويتألف من عدد من السيارات. واخترق شوارع المدينة التي قل فيها المارة لأنهم قد بدأوا أعمالهم في هذه الساعة من الصباح. وأما السيارات وبخاصة الحافلات فإنها كثيرة نسبياً. ومررنا بمنطقة سكنية جيدة.



وفد الرابطة في مسجد تونغ يانغ

مثلها في ذلك مثل أكثر الضواحي في المدينة وهي على جودتها تكاد تكون مهملة من الترميم أو الاصلاح، لأن الفقر أو رقة الحال هو الغالب على الجميع في الصين. إضافة إلى ان بعض المساكن قد استولت عليها الحكومة من أهلها إذا كانوا يملكون غيرها أو توفي عنها مالكها ولاذرية له.

رمز الصداقة بين العرب والصين:

كان معي في السيارة الأخ رئيس الجمعية الإسلامية في منطقة شنغهاي الحاج (إبراهيم مارينغ ينغ) فكان يحدثني من أمر هذا المسجد ماحدثني بمثله غيره أو بما يقرب من ذلك عن تاريخه. قال: لقد بني هذا المسجد قبل ستمائة سنة في بداية تشكل قومية (خوي) التي تعني المسلمين القدماء الذين يتكلمون الصينية وينتمون بأصولهم إلى العرب والترك والفرس ولكنهم انصهروا في جماعة واحدة يتزاوج أفرادها فيما بينهم. ويشملهم اسم واحد هو اسم (خوي) الذي قلت: إنه ربما كان مشتقاً من كلمة الأخوة العربية وان الكلمة هي كلمة (أخوي) بمعنى مؤاخٍ.

وقال: إن هذا المسجد هو من أقدم المساجد في المناطق الجنوبية في الصين. وفي ذلك الزمن كان المسلمون كثرة في منطقة (تونغ يانغ) التي يقع فيها المسجد.

ولذلك اتفقوا على ان الذي بنى المسجد هو شخص اسمه العربي (نصر الدين) كان بمثابة القائد للمسلمين في هذه المنطقة، وله اسم آخر هو (بالو فاج) قيل إن هذا الاسم من اللغة المغولية، وقيل غير ذلك.

وكما اختلفوا في أصل اسمه اختلفوا في أصله فمن قائل: إنه عربي الأصل ومن أولئك رفيقنا الحاج إبراهيم مارينغ ينغ.

ولكن الشيء الذي لم يختلفوا فيه قولهم: إن هذا المسجد بني ليكون رمزاً للصداقة مابين العرب والصينيين لأن بعضه مبني على الطراز العربي مثل مسجد مشهور في الشام لم يعرفوا اسمه، وبعضه على طراز صيني تقليدي.

وعلى أية حال سوف أصف ما أرى في المسجد عندما أراه.

وجاملنا الأخ الحاج إبراهيم مارينغ رئيس الجمعية الإسلامية في شنغهاي فقال: وها نحن نراك الآن تزور الصين، وتزور هذا المسجد بالذات الذي هو رمز للصداقة مابين العرب والصينيين فستكون زيارتك والوفد المرافق لك عاملاً جديداً على تعزيز الصداقة مابين العرب وأهل الصين.

فقلت له: إنه يسرني ان يكون الأمر كما ذكرته فالصداقة مع أهل الصين أمر مهم ينبغي الحرص عليه. غير ان مجيئنا هنا هو لتعزيز العلاقة مابين المسلمين في العالم الذين تمثلهم رابطة العالم الإسلامي وبين المسلمين في الصين.

في ريف شنغهاي:

أمضينا نصف ساعة وسياراتنا تسير في داخل مدينة شنغهاي الكبيرة ثم خرجنا إلى الريف وطبيعي أن هذه الدقائق الثلاثين ليست هي كل مايلزم المرء لاختراق المدينة ولكنها التي أوصلتنا من فندقنا إلى خارجها.

وجدنا ريف شنغهاي أخضر خضرة مطبقة ولا أثر فيه للبرد أو الجفاف أو لشيء مما يقرب من ذلك. كما هي عليه الحال في شمال الصين.

وأخبرونا ان الخضرة هذه تدوم في أكثر شهور السنة.

ورأينا مساكن الفلاحين في الريف هنا أحسن حالاً منها في شمال الصين لأنها هنا تبنى في الغالب من الأخشاب أو من الآجر وسقوفها مسنمة وقال الأخ الحاج إبراهيم: إن مساكن الفلاحين هنا جيدة، وليست كما هي عليه الحال في مساكن المدينة التي هي ضيقة بطبيعتها.

وقال: إنك في الريف تكاد تعرف عدد الأسرة وكثرة الأطفال وقلتهم من شكل البيت ومن إتساعه وضيقه، وذلك أنهم كلما زاد عدد أفراد الأسرة وسعوا مساحة البيت بخلاف المدينة فإن الأسرة يزيد عددها ولكن لاسبيل لها إلى توسيع مسكنها أو زيادة غرفه.

فقلت له ولكن إذا طبقت حكومة الصين قانونها الحالي الذي يحدد الانجاب بطفل واحد للأسرة الواحدة فإنه لن يكون هناك فرق كبير بين أعداد الأسر في الصين فقال: هذا صحيح.

وسار الموكب في هذا الريف الأخضر وأكثر ماتقع عليه العين فيه بهيج ما عدا منظر البيوت التي هي كلها ذات مظهر رمادي بسبب افتقارها إلى تجديد طلائها.

وقد تقول: ماالسبب في ذلك؟ فأقول لك ماسبق أن قلته بالإشارة أو بصريح العبارة: إنه ماقاله المثل العربي القديم: حال الجريض، دون القريض... وقد أخبرونا ان الناس الآن بدأوا يخرجون للريف للسكنى فيه إذا تيسر لهم ذلك.

وقد سألني بعضهم في عديد من المناسبات عن شوارع الرياض،

هل هي تضيق بالناس وبالسيارات فأخبرتهم ان الناس لدينا ليسوا بالكثرة التي هم عليها في مدن الصين بطبيعة الحال والسيارات كثيرة عندنا إلى حد لايستطيعون تصوره بسبب قلتها في بلادهم. . ولكن الشوارع الرئيسية في الرياض واسعة جداً ثم ذكرت لهم سعة بعضها وان عرضها يصل إلى ثمانين متراً مثل الشارع القريب من بيت لي جديد هناك فيعجبون من ذلك ولا يكادون يصدقون، ولم أخبرهم بما لدينا من السيارات لئلا يظنوا ان ذلك من باب التباهي أو التفاخر، وربما لايفهمون إذا ذكرت لهم أنني أفعل ذلك من باب التحدث بنعمة الله- وهم يعجبون من وجود ضواح في مدننا تصل إليها المرافق العامة بسرعة كالكهرباء والماء والهاتف.

أرض الأنهار والقنوات:

يصح وصف هذا الريف في هذه المنطقة بأنه أرض المياه لما يوجد فيه من الأنهار والقنوات والمياه التي قل ان يوجد لها مثيل في غير الأقطار الاستوائية.

وذلك كله وفق تنظيم شامل كامل بحيث صارت هذه القنوات اشبه ماتكون بالشبكة الكاملة التي تستمد مياهها من الأنهار وماتفرع منها، ولاتتأثر بتأخر الأمطار.

وبعض القنوات من السعة وكثرة المياه، بحيث تسير فيها القوارب التي تحمل الأثقال فضلاً عن قوارب الركوب الصغيرة.

ومن العجب أنني رأيت قناة أخرى تسير فيها السفن وقد أخبرونا أنهم قد شقوها من نهر (هوانغ بو).

ومع ذلك فإنهم لم يكتفوا بالقنوات التي شقوها في الأرض، وإنما

اسالوا منها المياه في أنابيب تحت الأرض لتصل إلى المزارع الصغيرة البعيدة عنها والأرض كلها مزروعة بحيث لا تكاد ترى بقعة خالية من الزرع ولو كانت صغيرة.

وذلك كله في منظر أخضر بهيج لا أثر فيه للبرد أو الجفاف إلا انك واجد مايكدر هذا المنظر من شقاء الآدميين من ذلك أنني رأيت أناساً يمتطون الدراجات الهوائية ويحملون وراءهم أشياءهم الثقيلة وهم لايكادون يستطيعون إدارة عجلات الدراجة لثقلها.

ورأيت فلاحاً يجر عربة يدوية محملة وتساعده أمرأته على ذلك بدفع العربة من الخلف.

أما الطريق فإنه ازفلتي لايتسع لأكثر من سيارتين متقابلتين وحالته جيدة ما عدا بعض المواضع فيه التي تحتاج إلى ترميم.

والزراعة المحلية هنا مختلطة فهناك القمح الذي رأيناه قد أخرج سنبله وذلك وقت متأخر عن هذه المرحلة من عمر القمح في بلادنا بأكثر من شهر.

كما رأيناهم قد بدأوا في زراعة الأرز، وان كان أكثره يزرع عندهم بعد حصاد القمح.

واخترق الطريق نهراً فسألتهم عن اسمه؟ فقالوا: إنهم لايعرفون له اسماً وإنما هو نهر صغير لايستحق منهم ان يبحثوا عن اسمه مع انه أكبر من نهر بردى في دمشق عندما يمتلىء بمياه الأمطار بكثير، غير ان كثرة الأنهار والمياه عندهم جعلتهم لايهتمون بأمثاله الاهتمام الذي يكون بمثله في البلاد الجافة أو غير المطيرة. وعلى ذكر المزروعات فقد سألتهم عن الطعام الرئيسي للناس هنا؟ فقالوا: إنه الأرز، بخلاف أهل الشمال فإن الطعام الرئيسي عندهم هو القمح.

ومن مظاهر اعتدال الجو هنا ان المزارع المحمية وهي بيوت من اللدائن نادرة جداً بخلاف ماعليه الأمر في الشمال حيث انها هي المظهر المميز للمزروعات وبخاصة منها الخضروات والأرز في أول نباته لتقيه من تأثير البرد الشديد في الربيع.

ومن المناظر البهيجة هنا منظر زهور برية أو ان شئت قلت: وحشية بمعنى أنها نابتة من دون استزراع وبعضها أصفر، وبعضها أرجواني. وهي تنبت على حواشي الأحواض في الحقول، وذلك لأننا الآن في أواخر فصل الربيع في هذه المنطقة.

وسار الموكب يتخطى القنوات الكبيرة ونراها يمنة ويسرة كما نرى القنوات الصغيرة المفعمة بالمياه منتشرة في كل اتجاه، وقد كان عجبي يزداد من كثرة هذه القنوات ومن اتساع بعضها حتى إنني كنت أرى المراكب تسير فيها وهي محملة بالأشياء الثقيلة مثل الفحم الحجري والطين الذي لا أدري الغرض من حمله.

في مدينة تونغ يانغ:

مدينة (تونغ يانغ) هي مركز محافظة مسماة باسمها عندما وصلنا إلى حدود هذه المحافظة استقبلتنا سيارتان رسميتان من الادارة المحلية الحكومية في المحافظة من باب التكريم وتقدمتا الموكب.

وفي ريف هذه المحافظة يلاحظ المرء عدم وجود المنازل الطينية الموجودة في شمال الصين ربما كان ذلك بسبب الرطوبة وكثرة المياه.

ومن المناظر التي تكررت منظر الجواميس المربوطة في جذوع الأشجار الضخمة الموجودة على الطريق.

ودخلنا مدينة (تونغ يانغ) مع شارع رئيسي تحف به (عمارات)

سكنية حكومية متعددة الطوابق، جيدة المظهر، وشارعها الرئيسي هذا واسع منظم.

ثم عطف الموكب جهة اليمين من الشارع الرئيسي حيث وصلنا إلى مبنى المحافظة وقد استقبل الوفد في قاعة الضيافة في المدينة:

١- سنغ يوسن - رئيس المجلس الاستشاري لمحافظة تونغ يانغ.

٢- السيد على مي فانغ جي نائب رئيس المجلس الاستشاري للمحافظة.

٣- السيد محمد على سانغ يوفونغ عضو المجلس الاستشاري للمحافظة.

٤- السيد محمد يوسف وانغ جنغ جي عضو مجلس النواب للمحافظة.

وقد رحب السيد على مي فانغ جي في كلمته بوفد الرابطة وتحدث عن مدينة تونغ يانغ بأنها مدينة قديمة يرجع تاريخها إلى ٢٧٠٠ سنة تقريباً وتبلغ مساحة المحافظة ٦٠٠ كيلومتر مربع تتبعها ١٩ قرية ويبلغ سكان المحافظة ٤٧٠ ألف نسمة يعيش ٨٠٪ منهم في الأرياف حيث يزاولون زراعة القمح والأرز والقطن وسائر الخضروات، كما توجد في المدينة الصناعات الحديثة وأهمها مصنع لآلات التصوير.

وفي المدينة آثار كثيرة أهمها مسجد تونغ يانغ الذي يرجع تاريخه إلى عام ١٣٤١م وهو مبني بالطرازين الصيني والعربي.

المسلمون في المحافظة:

من خلال الأحاديث المتكررة التي دارت بيننا في المجلس سواءً أكانت خاصة أم عامة يمكن تلخيص حالة المسلمين في محافظة (تونغ يانغ) بأنهم كانوا كثرة في القديم ولكنهم الآن قلوا، لأنهم هاجروا منها

إلى أماكن أخرى - كما عبروا عن ذلك .

ويبلغ عددهم فيها في الوقت الحاضر سبعاً وستين أسرة تؤلف مايزيد قليلاً عن مائتي نسمة .

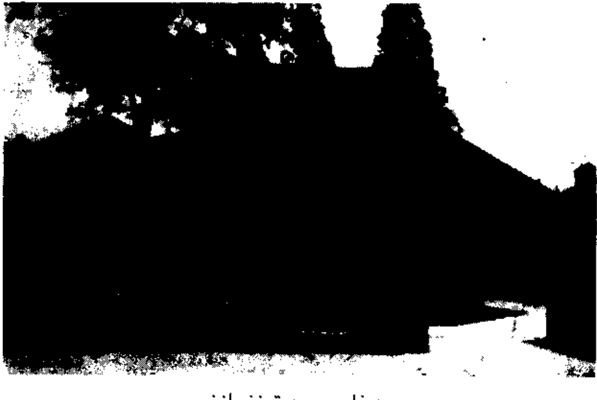
مدينة الخواتين ومسجدها القديم :

أخبرونا بأن المسجد بني في عام ١٣٤١م أي: قبل مايزيد على ستمائة سنة وقالوا: إن جزءاً منه بني على طراز عربي أصيل يوجد مثيل له في دمشق وفي مكة المكرمة وان هذا دليل على كثرة المسلمين وقوتهم في ذلك الوقت في المدينة .

فسألتهم عن اسمها القديم مادام الأمر كذلك؟ فأجابوا : إنها كانت تسمى : (خوا تين) .

فقلت لهم: إنني قد قرأت مايؤيد كلامكم إذا كان مافهمته صحيحاً لأن أحدهم وربما كان الرحالة ابن بطوطة قد ذكر مدينة (الخواتين) في الصين .

مسجد تونغ يانغ التاريخي



مدخل مسجد تونغ يانغ

ولعلها هي هذه (خواتن) أدخل عليها « ال » التعريفية. على أنني غير متأكد من ذلك.

في جامع تونغ يانغ:

بعد الاستقبال الحافل في المحافظة الحكومية سار الموكب منضماً إليه سيارات محلية إضافية لرؤية المسجد الجامع. وقد اخترق شارعاً تجارياً بمعنى ان عليه حوانيت متلاصقة، رغم كونه ضيقاً لأنه قديم وكلها أو أكثرها تملكه الدولة، وأكثرها ذو مظهر جيد تبعاً للمظهر العام الجيد الموجود في البلدة. وأكثر مافي هذا الشارع الدراجات واقفة لعدم وجود السيارات الخاصة.

وأما الناس الموجودون في هذا الشارع التجاري بخاصة وفي المدينة عامة فإنهم الصينيون الأصلاء وقد سبق أن شرحنا مايعرف به الصيني الأصيل من المظهر.

ثم عطفنا من هذا الشارع التجاري إلى زقاق ضيق لم تكد السيارات تدخل منه لضيقه وهو خالٍ من الازفلت بخلاف الشارع العام الذي هو مزفلت زفلتة جيدة.

ويقع في المدينة القديمة وعليه بيوت ذات مظهر قديم مبنية على الطراز الصيني الخالص وهي من الآجر الذي تركبه سقوف شبه مسنمة ولكنها مسترخية أي: غير مشدودة كما تكون عليه المنازل المسنمة السقوف في المعتاد.

عندما وصلنا المسجد كان أول من استقبلنا الأخ الحاج (عبدالله شانغ يانغ تشن) مدير مكتب ترميم الجامع، وعلى الأدق إعادة بنائه فأكثره يحتاج إلى إعادة البناء لأنه قديم وقد خرب أكثره.

والأخ الحاج عبدالله يعمل الآن متفرغاً لتعمير المسجد وهو من أهل شنغهاي ولكنه جاء إلى (تونغ يانغ) لهذا الغرض. وهو متحمس له، بل إن عمله في المسجد ملك عليه مشاعره كلها.

ابتدرنا عندما قابلناه بالترحيب الحار ثم بشرح حال هذا المسجد وقال: إنه أهم المساجد القديمة في جنوب نهر (يانغ تسي).

وقال: مع ذلك لم نستعد هذا المسجد إلا منذ عهد قريب فقد كانت الحكومة قدصادرته إبان الثورة الثقافية وحولته إلى مصنع للمصابيح الكهربائية ولكننا استعدناه بمعاونة من حكومة (شنغهاي) وبسعي حثيث من الجمعية الإسلامية في شنغهاي، وذلك إضافة إلى مساع من زعماء المسلمين عامة. وكان ذلك قبل عيد الأضحى الماضي بل كان في يوم عرفات بالتحديد. وقال: إننا نحرص الآن على إعادة القسم الصيني المتمثل بالمدخل إلى هيئته الأصلية وهو أمر صعب ربما لايقل صعوبة عن بناء مدخل جديد على طراز حديث وكذلك نريد ترميم مقدمة المسجد ذات الطراز العربي كما كانت عليه من قبل.

وقال: إن التخطيط الهندسي لإعادة المسجد كما هو عليه أمر يحتاج إلى وقت حتى إن المهندسين الذين يعملون معنا يقولون: إن ذلك لن يتم قبل شهرين من الآن لأننا نريد ان يشمل ذلك حتى النقوش الأصلية.

ثم قال: الواقع ان زيارتكم هذه سببت لنا مزيداً من عواطف عجيبة هي مزيج من الفرح والارتياح والفأل الحسن بأن المسجد ستتم عمارته على الوجه المطلوب.

وقال: لقد وجدنا المسجد في الحقيقة مكسراً، بل ان أجزاء منه خربة لأنه كان قد استعمل عدة سنوات مقراً لمصنع للمصابيح

الكهربائية كما قدمت ولذلك نحن قمنا بأعمال عديدة في تعميره حتى الآن.

ثم تحدث عن تاريخ المسجد فقال: إن بناءه قد بدأ بأيدي إخواننا العرب في عام ١٣٤١م وانتهى في عام ١٣٦٨م. وقال: إن العرب الذين قاموا على بنائه كانوا من الذين جاءوا إلى الصين لغرض التجارة، ولكنهم لم ينسوا واجبهم الديني.

وبانيه منهم المسمى (نصر الدين) وهو مدفون في منزل مجاور للمسجد قد أدخل في المسجد في تاريخ لاحق عندما جرت توسعة المسجد.

وقال: إن زيارة وفد الرابطة هذه للمسجد لها معانٍ كثيرة ونرجو ان نتعاون في المستقبل.

وقال: لقد وجدنا في المسجد لوحات تبين انه قد رمم خمس مرات في التاريخ منها واحدة تمت قبل ثلثمائة سنة وآخر مرة كانت في عام ١٨٥٠م. وبعض المرات تمت في عهد أسر حاكمة لانستطيع تحديد زمنها بسهولة، لأن الصينيين كما تعرفون يؤرخون بسني الأسر الحاكمة وقد رددت عليه بكلمة بينت لهم فيها ان الرابطة مستعدة معهم للمساعدة على ترميم هذا المسجد خاصة والمساجد الأخرى المحتاجة بصفة عامة، وأننا نستطيع ان نقدم مبلغاً رمزياً من المال في الوقت الحاضر وسوف نرسل إليهم في المستقبل مبلغاً مجزياً بإذن الله ونحن نعتبر ان هذا ليس مساعدة من الرابطة وإنما هو واجب مفروض علينا أداؤه لأن هدفكم من تعمير هذا المسجد هو هدفنا في الحقيقة فكلنا نرجو ان يعود هذا البيت من بيوت الله كما كان في الماضي شاهداً على التعاون مابين المسلمين فى الصين وإخوتهم المسلمين في الخارج، بل انه سيكون رمزاً ثقافياً واضحاً للعلاقات الثقافية المتينة مابين المسلمين في

خارج الصين وبين أهالي الصين بصفة عامة.

وبعد ان قدموا لنا الشاي الصيني المعتاد الذي هو عندهم بمثابة القهوة في بلادنا السعودية لابد من تقديمها للضيوف، صحبناهم في جولة في أنحاء المسجد فكان يتألف من قسمين رئيسيين ولكنهما متصلان الأول منهما وهو الأمامي بني على الطراز العربي بالآجر المعقود تركبه قبة عربية الطراز تحتها المحراب، ولاتحمل القبة أية أعمدة بل قائمة بالآجر المعقود وفق صنعةمحكمة صمدت للقرون. والثاني هو المسجد الرئيسي أو المصلى وهو مبني على الطراز الصيني القائم على أعمدة من الأخشاب الضخمة ومسقف بالأخشاب المخروطة التي يفرط النقاشون في نقشها بل خرطها وتزويقها.

وبجانب المسجد من الجهة الجنوبية قبور قديمة في فناء مكشوف منفصل عن المسجد. بعد أبنية وملحقات للمسجد كانت تستعمل بمثابة المنازل للأمام والمؤذن وبعض العاملين في المسجد على العادة المتبعة في المساجد الرئيسية القديمة في الصين.

وفي جهة من الفناء وقفنا على قبر باني المسجد (نصر الدين) ولم نعرف بقية اسمه نسلم عليه السلام المشروع على المقبور. ودعونا له بالمغفرة والرضوان وجزيل المثوبة على عمله هذا العظيم الخالد.

وعليه كتابة سألناهم عن تاريخ وفاته فأجابوا: بأنه توفي في أواخر أسرة (مينغ) وأوائل أسرة تشنغ وأنهم لايستطيعون الآن تحديد ذلك التاريخ لأنه يحتاج إلى حساب.

وقد نبتت على القبر الذي كان مرتفعاً عن الأرض بنحو الذراع وهو ذو سطح مستو قد نبتت عليه شجرة خضراء ظليلة. وفي ركن منه نبتت شجرة عنب رأيناها مزدهرة.

وقد رافقنا في الجولة على المسجد عدد من الرسميين من المسلمين وغيرهم وكذلك رافقتنا مهندسة صينية غير مسلمة هي التي عهدوا إليها بالعمل الرئيسي في التخطيط لإعادة المسجد على ماكان عليه في السابق.

وفي نهاية الجولة كانت جلسة في المكتب الرئيسي الذي هو بجانب المسجد فحدثونا بالمزيد من أمره وقالوا: انهم لن يكتفوا بإعادة المسجد على ماهو عليه وإنما قرروا ان يزيدوا في مساحة مرافقه وملاحقه ومن ذلك انهم استملكوا هذه البيوت المجاورة القديمة وأشاروا إليها وتقع في الجهة الجنوبية الغربية من المسجد. وقد دفعوا تعويضاً لأهلها مائتي ألف ين. وأهلها من المسلمين الذين كانوا يسكنون بجانب المسجد.

وقالوا: انهم جمعوا حتى الآن ثلاثين ألف ين من تبرعات المسلمين واعطتهم الجمعية الإسلامية المركزية عشرين ألف ين مساعدة على اصلاح المسجد، وقد همس في أذني أحد الاخوة الصينيين المرافقين قائلاً: إنها من المبلغ الذي سبق ان قدمته الرابطة إلينا والبالغ قدره خمسمائة ألف دولار أمريكي وزعناه على المشروعات الإسلامية في سائر أنحاء الصين.

وقالوا ان المبلغ المقدر لاكمال المشروع هو مليون ين، وانهم لكبيرو الأمل في المساعدة للحصول عليه.

بحيرة السكران:

بعد الانتهاء من زيارة هذا المسجد التاريخي العظيم كان البرنامج يشتمل على زيارة حديقة قديمة في البلدة معنى اسمها في اللغة الصينية (بحيرة السكران) قالوا: إنها سميت على اسم شاعر صيني مشهور يلقب بالسكران توفي في عام ١٦٥٢م.

وقالوا: ان هذه الحديقة أثرية أيضاً فقد بدأ أول انشائها منذ خمسمائة سنة في أسرة (مينغ).

بدأنا زيارتها بتفقد قسم منها في غرف وأبهاء أشبه بالمتحف كان من أهم مافيه عندهم رسوم لكبار رجال المنطقة، منذ أكثر من مائتي سنة.

ومن الأشياء التي استرعت انتباهي فيها نماذج للخط الصيني كتبت قبل خمسمائة سنة وتتضمن أشعاراً من ذلك التاريخ ولم يستطع المترجم الأستاذ (صالح) الذي كان قريباً مني وهو يعرف قدراً من العربية ان يفهمها وقال: إنها من الشعر المنظوم بلغة ذلك العصر ولا استطيع فهمه.

وقد كنت لاحظت ان المرافقين الذين كانوا معنا كلهم من شمال الصين يصعب عليهم التفاهم مع عامة الناس الذين يسكنون في جنوب الصين فاللغة برغم كونها صينية في الجميع إلا انها تختلف في الجنوب عنها في الشمال بحيث لايكاد بعضهم يفهم كلام بعض.

وكل الأبنية الموجودة في الحديقة أو المتاحف التابعة لها هي من الخشب على الطراز الصيني القديم مع أنها أبنية كثيرة ومتسعة، ولكن هذا كان هو طراز البناء عندهم حتى القصور كانوا يبنونها بالأخشاب غيرانهم يزوقونها ويزخرفونها بالطلاء حتى لايعرف الناظر إليها أنها من الخشب إلا بعد ان يخبره مخبر بذلك.

ثم جلنا بصحبة كبار القوم من رسميين وغيرهم على الحديقة نفسها وهي غريبة حقاً بل فيها ماهو عجيب قل ان يوجد له نظير في الحدائق الأخرى في العالم.

ومن ذلك بعض الآصص وهي الأوعية التي تستنبت فيها الزهور وغيرها من النباتات تاريخية قديمة بحيث يرقى تاريخها إلى

خمسمائة سنة مضت وهذا أمر عجيب ولكنهم اتفقوا على ذكره.

وقالوا إنهم يغيرون التربة التي في داخلها كل ثلاث سنين.

ومن لطيف مافيها مما هو باق من العصور القديمة أو ان فخارية كبيرة جداً مليئة بالماء كانوا يعدونها كذلك في الزمن القديم لسقي أشجار الحديقة قبل ان يعرف الناس إسالة المياه في الأنابيب. وقد استعملوها الآن لزراعة زهرة اللوتس.

المردة في القماقم:

من أغرب ما رأيت فيها مما لم أر له مثيلاً في أنحاء العالم وأشك في أنه يوجد له مثيل أشجار معمرة قد غرسوها داخل زهريات حجرية أو آصص فخارية وهي من الأشجار التي تعظم في العادة.. إلا انهم لم يسمحوا لها بأن تكون كذلك فهم يقطعون مايخرج منها ماعدا جذوعها وشيئاً قليلاً من أغصانها وأوراقها التي لاتخرج عن حجم الأزهار الكبيرة في الأصص المعتادة وأخبرونا أن أعمار بعض هذه الأشجار تزيد على مائة عام.

ومنها على سبيل المثال شجر الصنوبر الذي لايزيد ارتفاعه على شبر، وكذلك البامبو الذي يطول عادة ويرتفع في السماء. رأيناه هنا رغم طول عمره لايزيد ارتفاعه على شبر أيضاً.

وكلها غليظة الأعجاز قصيرة القوام، بحيث تبدو في مغارسها الضيقة كالمردة المحبوسة في القماقم. وقد غلظت أعجازها بشكل ملفت للنظر حتى بدت كأعجاز ذوي البدانة من الأقزام.

وأرونا بعد ذلك نماذج تطريز الحرير على الطريقة الصينية التقليدية القديمة، وهو عمل دقيق يستغرق وقتاً طويلاً.

وفي ختام زيارة هذه الحديقة أخبرونا أنها كانت منذ تأسيسها الأول حديقة خاصة غير أنها أصبحت عامة بعد الثورة الشيوعية ويسمونها هنا التحرير وذلك في عام ١٩٥٨م .

جولة في مدينة تونغ يانغ :

سار الموكب في جولة في المدينة لم تكن مقررة في البرنامج ولكنني طلبت منهم ذلك لرؤية بقية المدينة وبخاصة القسم القديم منها غير أنهم لم يمانعوا ولم يستجيبوا وإنما جعلونا نجول جولة في الأجزاء الحديثة من المدينة لأن القديم منها ضيق الأزقة وذو مظهر لايحبون أن يراه الغريب .

وقد بدت المدينة ذات قنوات مائية متعددة بل ان في بعض أجزائها تجمعات للمياه بحيث ذكرتني ببعض المناطق الاستوائية التي تكثر فيها المستنقعات والمياه .

أما هذه فإن تجمعات المياه فيها نظيفة .

وقد مررنا بمطعم إسلامي كتب عليه اسمه باللغة العربية هكذا : « هذا طعام الإسلامية » والكتابة على المطعم هنا رمزية تدل على ان فيه طعاماً من طعام المسلمين وإلا فإنه لايوجد من يقرأ هذه العبارة فضلاً عن أن يفهمها وهذا من تأثير الدين الإسلامي على اللغة وتعلق أهله به .

وعامة الناس من أهل المدينة يبدون في حال حسنة من حيث المظهر سواء في اللباس وفي المظاهر الأخرى . وعندما سألت مرافقي عن سبب ذلك؟ قالوا : إنه من أجل صغر المدينة فآخر إحصاء للسكان فيها هو انهم ثمانية وستون ألف نسمة . ومجموع سكان محافظة (تونغ يانغ) التي هي مركز إدارتها أربعمائة وسبعون ألف نسمة .

ومن هنا نرى أن الصينيين الذين يتميزون بكثرة العدد، وتتميز مدنهم الكبيرة الكثيرة بالزحام يعدون من مزايا المدن أو المحافظات أن تكون قليلة السكان.

وأرونا من معالم المدينة برجاً مربعاً قالوا: إنه الوحيد في الصين الذي بني على هذا الشكل في القديم لأن الأبراج التاريخية في الصين كانت تبنى مستديرة ولا تبنى مربعة.

وقد بالغوا في تاريخ بناء هذا البرج إذ قالوا: إنه بني قبل تسعمائة سنة. وهو مبني من الآجر والخشب ولكن بدون مسامير. ولقد تكرر قولهم في عدد من الأبنية الخشبية وأنها خالية من المسامير لأن ذلك من علامة المهارة عندهم إذ يداخلون الأخشاب بعضها ببعض بواسطة أجزاء من الأخشاب نفسها فذلك أبقى لها وأطول لأعمارها. وفي الوقت نفسه أجمل لمنظرها حيث تبدو أجزاؤها في كثير من الأحيان كأنها جزء واحد.

العودة إلى شنغهاي:

بدأنا العودة إلى مدينة شنغهاي في الساعة الثانية عشرة وكان ذلك مع طريق واسع غير الطريق الذي جئنا منه.

وقد رأيتهم لايزالون يعملون في هذا الطريق الواسع الذي ظهر أن أصله كان طريقاً قديماً ضيقاً يوسعونه الآن.

وتحف به أشجار جيدة معتنى بها. وزفلتته ممتازة قالوا: لأنها حديثة ولم أجد فرقاً فيما رأيته من الريف في الطريقين. فكلاهما يتميز بالخضرة الشاملة الجيدة. ويبدو ريفاً جميلاً غارقاً في المياه ولكن وفق نظام ينفع الزراعة ولا يضر الأرض بشيء.

وقال لنا المرافقون: إن الصينيين يقولون: إن الجنوب ويقصدون به ماكان جنوب نهر (يانغ تسي) هو موطن الأرز والسمك.

وقد أخبروني ان ريف (شنغهاي) كله هكذا أخضر وأن الشاي يزرع في بعض المناطق فيه.

مغادرة شنغهاي:

تركنا فندق (جيانغ جانغ) في الخامسة والربع عصراً إلى مطار شنغهاي حيث ودعنا الأخوة الكرام من أهل شنغهاي والرسميين الذين كانوا معنا من غيرهم.

وقد تكرر التدقيق على جوازات سفرنا ومقارنة الصورة في الجواز على وجه صاحبها مع أننا وفد رسمي معنا جماعة من الموظفين المعروفين وكذلك كانوا يختمون على ورقة يضعونها على الحقيبة اليدوية ولايسمح لمسافر باستصحاب حقيبته اليدوية إلى قاعة المغادرة إلا إذا كانت مختومة بذلك الختم.

وفي السابعة إلا ثلثاً كانت الطائرة تغادر مطار شنغهاي والشمس تغرب، وقنوات شنغهاي تمتد إلى مالانهاية في المنظر مستقيمة مترعة بالمياه، ونهر (هوانغ بو) ينساب مزهواً بأن هذه القنوات التي مدت من مياهه لم ترزأه شيئاً ذا بال غير انه بلاشك إذا ذكر شقيقه الأكبر نهر (يانغ تسي) فإنه لابد من ان يفارقه الزهو ويدركه التواضع.

ولقد ذكرني منظر القنوات المتعامدة والمتقاطعة وكثرة المياه في ريف شنغهاي مناظر من مناطق استوائية عديدة في العالم إلا ان هذه المياه منظمة ينتفع بها الناس إلى أقصى حدود الانتفاع بل انهم نظموا حتى طرق صرفها وابعاد الزائد أو المستعمل منها. حتى مع وجود المستنقعات التي استفادوا منها في زراعة الأسماك.

وكانت الطائرة تتسامى في الجو ونور الشفق أو أذيال الغروب يتسامى في الجو أيضاً حتى حرمنا من هذا المنظر الأنيق أسفل الطائرة.

أما الطائرة نفسها فإنها نفاثة صغيرة قد رصوا مقاعدها رصا حتى ضاق مابينها عن الحقائب اليدوية فكانوا مثل أهل الهند الذين يكثرون من الكراسي في الطائرة ولايتركون للحقائب أو الأمتعة التي يحملها الراكب بيده مكاناً فيكون البديل لذلك في رفوف الطائرة يملؤونها ملأ ولكنهم يغلقونها ويتأكدون من ذلك قبل قيام الطائرة.

وذكروا ان السفر إلى كانتون أو(قوانغتشو) كما ينطقون بها يستغرق ساعة وخمساً وثلاثين دقيقة ووزعوا الضيافة والوقت هو وقت العشاء والعشاء قطعتان من الخبز مستديرتان لايبعدان عن حجم البيضة كثيراً ونوعان من الكعك وشريحة من لحم الدجاج أو البط وكيس من اللدائن فيه شراب من عصير الفواكه وهو الذي تناولته دون غيره إلا الفاكهة وهي حبة من البرتقال ملفوفة بورقة رثة.

في مطار كانتون:

نزلنا في مطار كانتون والوقت ليل لم استطع ان أبصر المنطقة التي حول المطار إلا أن الأنوار توحي بالتوفير أو عدم توفر الكهرباء.

وحتى أبنية المطار وبخاصة قاعة الوصول الواسعة كان سقفها من الخشب والصاج حتى لتشبه بعض الأسواق العامة في القارة الافريقية. ولم يكن المستقبلون قد وصلوا فانتظرنا خارج قاعة الوصول مما يلي البلد على كراس من الطين أو الحجارة لا أدري ولكنها ليست من الخشب أو الحديدً والبعوض أو حشرات أخرى صغيرة لاسعة يلهب أقدامنا ويحوم أمام وجوهنا.

وبعد قليل جاء الاخوة المستقبلون ومنهم :

الحاج نور محمدمانونغ تا نائب رئيس الجمعية الإسلامية لمدينة كانتون

الأستاذ سليم مالوجانغ سكرتير الجمعية الإسلامية .

الإمام موسى يانغ دونغ سي إمام مسجد خوي شينغ (كوانغ تا) المنارة .

الحاج محمد رشيد يانغ تانغ الإمام الثاني لمسجد خوي شينغ ونائب رئيس الجمعية .

في مدينة كانتون أو (قوانغ تشو) :

قربوا سيارة سوداء رسمية مماثلة للتي كنا قد ركبناها في المدن والمقاطعات السابقة وهي المخصصة في الأصل لركوب الوزراء ومن في رتبتهم كما أخبرونا .

وركب معي في السيارة الأخ (نور محمد ماتونغ تا) نائب رئيس الجمعية الإسلامية في منطقة كانتون .

وعندما سار الموكب من المطار إلى المدينة وهو لايبعد عنها كثيراً والطريق أكثره عامر عمارة متصلة لفت نظري فيه كثرة سيارات الأجرة الصغيرة (التاكسي) بأعداد لايوجد مايماثلها في أية مدينة صينية أخرى، بل إن سيارات الأجرة لاترى ظاهرة أبداً إلا في هذه المدينة وقد وضعوا على ظهورها العلامة المميزة المنارة التي كتبت عليها كلمة (تاكسي) بالانجليزية وهي كلها مملوكة للحكومة .

والسبب في ذلك كونها مدينة مفتوحة أو شبه مفتوحة للسياح

والتجار وهذا مهم عندهم فعن طريقها تباع مصنوعات صينية كثيرة، وتعقد صفقات كبيرة للتصدير وذلك لقربها أيضاً من (هونغ كونغ) التي هي كلها منطقة حرة كاملة ولفت نظري لأول وهلة ان السكان هنا أقصر قامات من الصينيين الذين اعتدنا على رؤيتهم في شمال الصين ووسطها وهم إلى ذلك أضعف أجساماً.

كما ان تقاسيم وجوههم أشبه بالجنس الملايوي الموجود في تايلند وأجزاء من اندونيسيا منهم بالصينيين الشماليين وبخاصة من يسمون منهم بقومية (خوي) الذين هم المسلمون الصينيون الأصلاء.

فندق الأوزة البيضاء:

استمر تدفق سيارات الأجرة بلونها الأصفر المميز والعلامة في سقفها واستمر تدفق الناس أيضاً في الشارع فلم يمض على غروب الشمس وقت كثير حتى وصلنا فندقا حديثاً أمريكي الطراز ليس فيه مما للصينيين وأهل الصين من أثر.

وكتبوا عليه اسمه بالانجليزية بارزاً (فندق الأوزة البيضاء). وكل شيء فيه عصري غربي حتى الموسيقى التي كانت تصدح من مكبرات الصوت هي موسيقى غربية لا أثر للموسيقى الصينية فيها أصلاً.

وجلسنا في غرفة انتظار أنيقة جميع الأثاث فيها غربي أوروبي لا أثر للذوق الصيني فيه حتى أعدوا الغرف فوجدنا ستة مصاعد متقابلة كل ثلاثة في صف وهي كلها حديثة تسير بالضغط على الأزارير كما هي عليه الحال في الفنادق الكبيرة الحديثة في العالم.

وهذه أول مرة نركب فيها مصعداً لايحتاج إلى سائق أو لا يحتاج

إلى عمل يدوي يقوم به الراكب لأن المصاعد في الفنادق التي نزلنا فيها في الصين كلها قديمة وقد أخبرونا بعد ذلك ان هذا الفندق حديث بالفعل لم يمض على بنائه إلا سنة واحدة.

وأنزلوني في غرفة في الطابق السادس والعشرين منه وهو يتألف من ثمانية وعشرين طابقاً وكل مافي الغرفة من أثاث ورياش هو عصري غربي حتى أجهزة التلفزة كبيرة ملونة كالتي تكون في الفنادق الحديثة في العالم الغربي.

وتتألف الغرفة من قسم منفصل للنوم وقاعة استقبال ومايتبع ذلك.

ووجدنا الضيافة من إدارة الفندق سلة من الفاكهة المحلية هنا وهي غير الفاكهة التي اعتدنا عليها في شمال الصين والتي تتألف في الغالب من التفاح وأحياناً تكون من الكمثرى فهنا برتقال ويوسفي وموز.

وحتى خادمات الفندق وهن صينيات أصيلات قد ألبسوهن لباساً لايمت للصينيات بصلة، وقد جمعن بين أدب الصينيات في الخدمة والتزام الغربيات. فليس هناك عدم مبالاة بالخدمة عندهن كما لاحظنا ذلك في بعض مدن الصين.

وليس فيهن من وقاحة بعض الغربيات شيء.

وكان العشاء في الفندق لمن أراد من الرفاق أما أنا فلم أرد لأنني أكلت قليلاً في الطائرة وكان النوم عميقاً في هذا الفندق الهاديء الجميل الذي يحوي كل ممتع ومريح للنظر . وقبل النوم كنت أفكر في هذا الذي رأيته في هذه المدينة من خلال مرورنا في شوارعها مابين المطار إلى الفندق ومارأيته في فندقها هذا العصري الجميل ولم كل هذا الفرق

العظيم بينها وبين بقية البلاد في الصين من شرقه إلى شماله وغربه؟.

وكان الجواب هو أن هذه المدينة قريبة من بلاد الحرية الاقتصادية التي لابد لها من وجود حريات أخرى.

ومن بلاد الحرية الاقتصادية وبخاصة في (هونج كونج) تأتي الأموال، ويفد رجال الأعمال التي تتعلق بالبيع والشراء والأخذ والعطاء، وتصدر الصين بذلك ما تستغنى عنه، وتستورد ماتحتاج إليه. ولذلك جعلوها مدينة مفتوحة أو شبيهة بالمفتوحة يسهل الدخول إليها والخروج منها، كما اقاموا فيها معارض صناعية شبه دائمة لما تنتجه الصين من مصنوعات ومزروعات.

يوم الخميس: ٩ شعبان ١٤٠٤هـ - ١٠مايو ١٩٨٤م

صباح كانتون :

عاجلت الفجر قبل ان يبسط سلطانه على المنطقة لأرى ماتريه النافذة من طابق الفندق السادس والعشرين فأزحت الستارة الحديثة التي انزلقت بنعومة عن نافذة زجاجية بحجم الجدار كله. فرأيت غرة الفجر الوضاءة التي كانت لاتزال تنير نفسها كالمصلح الإجتماعي الذي يبدأ بإصلاح نفسه قبل ان ينشر الإصلاح على الآخرين.

وانتظرت فترة إلى ان عم النور الفضي جو المنطقة، ولم تبزغ الشمس بعد فكان ذلك كوقت أهل الجنة الذي ورد في الحديث أنها ليس فيها شمس ولا قمر وإنما هو نور كالنور الذي يكون قبل طلوع الشمس، أو ماهذا معناه.

فرأيت منظراً جميلاً هو منظر أنهار ثلاثة أو نهرين لأحدهما شعبتان وهي تقترب احداهما من الآخرى ثم تقترن في عناق جميل قبل ان تمتزج كما تمتزج أرواح العشاق، بعد العناق.

وتؤلف هذه الأنهار خضماً فخماً من المياه كأنه الخور العظيم من البحر، تقوم عليه أبنية عالية متفرقة أكثرها حديث من دون ان تطغى على طبيعة ضفافها الخضر فتحيلها من طبيعة ريفية إلى مكان حضري مزدحم. بل بقيت هذه الضفاف ذات طبيعة خضراء بهيجة. ولاينقص من بهجتها وجود مصانع بعيدة ذات مداخن عالية لأنها بعيدة من الضفاف.

وتسعى القوارب الكبيرة والصغيرة في مياهها سعياً حثيثاً، والعجب ان القوارب في النهر أكثر من السيارات في شوارع المدينة التي أراها في هذه الساعة المبكرة من الصباح.

لقد بنوا هذا الفندق الحديث الجميل على الضفة الشمالية لموقع اقتران هذه الأنهار مباشرة وربما كان هذا من أسباب تسميته بفندق الأوزة البيضاء. فالأوز يعيش في الماء وعلى ضفاف المياه.

وأجمل ما في هذا المنظر أن البصر يمضي فيه بعيداً في الفضاء، لا تحده أبنية عالية لأن المياه متسعة إلى مدى بعيد.

وهناك الميناء الذي يزدحم بقوارب كبيرة وسفن متوسطة راسية في مياه هذا النهر أو هذه الأنهار.

وذكرني ذلك بمرات عديدة نزلت فيها بفنادق واقعة على أنهار كبيرة في أنحاء متباعدة من العالم ومن ذلك فندق حديث عال في مدينة برازافيل عاصمة الكنغو وقد بنوه على ضفة نهر الكنغو مباشرة وفندق على نهر النيجر في مدينة باماكو عاصمة مالي، ويسمى «فندق الصداقة» وفندق آخر في عاصمة أخرى على ضفاف النهر العظيم الذي كان أسلافنا العرب يسمونه نيل السودان واسمه الأوروبي الذي يعرف به الآن «نهر النيجر» وذلك الفندق اسمه (جاوي) في نيامي عاصمة جمهورية النيجر المسلمة.

ولن أذكر لك مانزلته من فنادق على أنهار عدة في البلدان الأوروبية والأمريكية لأنه معروف ومشهور ومنها فندق قد بني مباشرة على بحيرة واسعة في مدينة ديترويت عاصمة صناعة السيارات في الولايات المتحدة الأمريكية، وتلك البحيرة هي التي تؤلف جزءاً من الحدود مابين الولايات المتحدة وكندا في تلك المنطقة وكنت نازلاً في الطابق السابع والثلاثين من الفندق ومن نافذته كنت أرى أرض البلدين الأمريكيين المتجاورين.

وكان الإفطار في الفندق مختلطاً ما بين الصيني والغربي يسألونك

أيهما تريد فأردنا الصيني لأننا شعرنا بقرب فراق الصين إذ سنغادر هذه المدينة إلى (هونج كونج) خارج الصين يوم الجمعة أي غداً بإذن الله، فكان أبرز مافيه شربة لذيذة من مسحوق السمك. وقد جمعوا بين الشاي الأحمر المعتاد والأخضر الصيني الخفيف.

وكان موضع الافطار غرفة منفردة إذ هم جعلوا في المطعم غرفاً إضافية خاصة بالمجموعات التي لاتريد أو لايليق ان تتناول الطعام مع سائر الناس في المكان العام.

وبعد ذلك حضر الأخ (نور محمد ماتونغ تا) نائب رئيس الجمعية الإسلامية وجلسنا قليلاً قرب شلال صناعي في الفندق يقل نظيره في الصين لأنه من الأشياء غير الضرورية. ولاحظت ان جميع النزلاء الذين رأيتهم في الفندق هم من الأجانب وليس فيهم من الصينيين أحد.

وإن كان فيهم من لايبعد كثيراً في المظهر عن أهالي مدينة (كانتون) وهم أقوام أخبرونا أنهم من الفلبين أو من سنغافورة.

إلى أول مسجد في الصين:

هكذا ذكروا لنا جازمين أنه أول مسجد في الصين كلها. وقد أيدوا قولهم بأن مدينة (كانتون) هي أول مدن الصين التي دخلها الإسلام، وذلك لكونها كانت الميناء الرئيسي أو المدخل الأدنى القريب لمن يأتي من البلاد العربية إلى الصين بطريق البحر سواء أكان ذلك بطريق مباشر أو غير مباشر.

سار الموكب من فندق الأوزة البيضاء (وايت سوان هوتيل) وهو مؤلف من خمس سيارات من دون أن تتقدمه سيارة رسمية عسكرية أو

نحوها كما سبق في المدن الصينية الأخرى. وذلك ان المسلمين الآن في (كانتون) هم قلة، وليسوا كما كان عليه الحال في الماضي ولذلك كان وزنهم عند الحكومة هنا ليس بالثقل الموجود في كثير من المقاطعات الأخرى في الصين.

على أننا ضيوف للجمعية الإسلامية الصينية التي تكاد تكون لها صفة رسمية من ناحية الاتفاق على مجيء الضيوف الأجانب ودعوتهم ثم استضافتهم.

وسلكنا شارع جانب النهر الذي يسميه بعض الناس بالكورنيش عليه النهر على أيماننا متجهين جهة الشرق. فوجدنا أنفسنا نصل بسرعة إلى حي قديم فاخر أي هو جيد بالنسبة لما كانت عليه الأحياء الجيدة في المدن التجارية قبل أربعين سنة مثل الأحياء التي كانت فاخرة من مدينة القاهرة قبل عام ١٩٥٢ ويتألف من متاجر وأبنية جيدة إلا أنها غير مفرطة في الارتفاع لأن هذا كان مستوى الأبنية العالية في ذلك الوقت.

وهذه المتاجر والحوانيت قد علاها الكسوف إذ أصبحت حكومية ليس فيها من حركة إلا حركة محدودة بالحدود التي ترسمها الحكومة لها كما سبق.

وأما الناس الذين في هذه الأسواق فإنهم شديدو الشبه بالجنس الملايوي الموجود في جنوب الفلبين وبلاد الملايو.

ولعل هذا من الشواهد الظاهرة على أن أصل الجنس الملايوي قد قدم من جنوب الصين.

هذا إذا لم يصح افتراض العكس وهو ان هذا الجنس الشبيه بالملايوي الموجود في الصين هو الذي قدم من بلاد الملايو في الأصل

واعتقد ان هذا افتراض بعيد.

وقد أخبرنا مرافقونا ان شر الثورة الثقافية التي هي في الحقيقة الفورة الشيوعية المتعصبة قد وصل إلى (كانتون) ولكن على هيئة أخف مما هي عليه في باقي الصين.

فلم يخربوا المعابد أو المساجد وإنما أحرقوا كتباً دينية قديمة للبوذيين وغيرهم والسبب في ذلك هو قرب المدينة من (هونج كونج) ثم من العالم الخارجي وكثرة المترددين عليها من الأجانب مما جعل المسؤولين عن الحكومة خلال تلك الحقبة الكريهة من الحكم الشيوعي في الصين يخشون من رد الفعل لدى الأجانب.

ومن الملاحظ هنا كثرة سيارات الأجرة كما قلت. بحيث يرى المرء العشرات منها واقفة أو سائرة في الشارع الواحد ولاشك ان أكثر الذين يستعملونها هم الأجانب لأن المواطنين الصينيين ذوو دخول محدودة اللهم إلا إذا كان أحد منهم تصل إليهم بطريقة مباشرة، أو غير مباشرة بعض نقود الأجانب.

ومن الملاحظ هنا أيضاً كثرة الزحام وسيل المشاة والدراجات في الشوارع، كما في أكثر المدن الصينية إلا ان النظام هنا أقل، وطبيعة القوم أقل هدوءاً وإن كان الهدوء المسيطرعلى الناس في الشطر الخاص بالأجانب

مسجد كانتون يقال إنه أول مسجد بني في الصين



أحد الزملاء داخل مسجد كانتون

ومعاملتهم لايزال هو الغالب. ومما يجدر ذكره ان سكان كانتون يبلغ عددهم ثلاثة ملايين نسمة.

شارع التاجر العربي:

لايكاد يخلو تاريخ مدينة كانتون في أي حقبة من الحقب عن ذكريات التعامل مع العرب أو مايدل على ذلك.

وقد ذكرنا بذلك الآن شارع وصل إليه الموكب اسمه شارع (تاجي) وقال الاخوة المرافقون وأيدهم غيرهم بعد ذلك: إن كلمة (تاجي) هنا محرفة عن الكلمة العربية (تاجر) وان المراد بالتاجي هنا هم العرب، فمعنى تسمية هذا الشارع هو (شارع العرب).

وقد اسموه بذلك لما كان للتجار القادمين من البلاد العربية من أهمية في تجارة الصين الخارجية في العصور القديمة.

والشارع لايزال فيه الحوانيت ولكن التجارة الحرة قد فارقته كما فارقه التجار العرب الذين لاشك أنهم انصهروا في البوتقة الصينية، وذابوا في هذا المحيط البشري الصيني العظيم أما أحفادهم من التجار العرب المغامرين فإنه لاتزال توجد منهم بقية تتاجر مع الصين وتصل إلى مدينة (كانتون) هذه كما كان أسلافهم يصلون ولكنهم لايسكنون في هذا الشارع وأمثاله، وإنما يقيمون في الفنادق الغالية



قاعة داخلية في مسجد كانتون

لأن أموالهم كثيرة والتجارة قد اصبحت عملاً يتسم بابتغاء الراحة. وتجار العرب المحدثون لايأتون من البحر وإنما يأتون من الجو، لذلك لاتكون لهم علاقة بهذا الشارع الذي لايبعد كثيراً عن شاطيء البحر أو النهر الذي تشبه مياهه مياه البحر. ومازال الإخوة المرافقون يقصون علينا قصة التجار من العرب القدماء الذين كانوا يأتون إلى كانتون من البحر وأنهم إذا رأوا منارة المسجد العالية قالوا وهم في البحر: لقد وصلنا الصين.

ولذلك سمي الشارع الذي عليه المسجد باسم (كوانتالو) أي: شارع المنارة من أجل وجود منارة المسجد فيه التي لم يكن نفعها يقتصر بطبيعة الحال على العرب وحدهم بل كان المسافرون في البحر من كل الأجناس يهتدون بها ويرونها من بعيد وهم في البحر فهي كانت بمثابة المنار للسفن إضافة إلى كونها مئذنة للمسجد الجامع الذي يقال: إنه أول مسجد بني في الصين.

أول مسجد في الصين:

نعود إلى العنوان السابق وذلك لأننا وصلنا إلى هذا المسجد التاريخي العظيم فوجدنا عليه لوحة بعربية واضحة لم تؤثر فيها القرون مكتوبة على مدخله الخارجي وهذا نصها:

«هذا أول مسجد في الصين بناه سيدنا وقاص رضي الله عنه، إذ دخل هذه الدار لاظهار الإسلام بأمر رسول الله ﷺ، ثم جدده المتأخرون مرة بعد مرة إلى الآن، حفظه الله تعالى من الآفات، في (الإحيات) وهو في الصين مبدأ الإسلام، ومنبع العلوم فينبغي على مسلمي الصين أن يزينوا ظاهره بالعمارة الحسنة. ويصلحوا باطنه بإقامة الجماعة، ووضع مدرسة خصوصاً على مسلمي هذا البلد،

فاعتبروا ياأولى الأبصار، اللهم انصرنا على أعداء الإسلام، آمين، الموصي سليمان بن عبدالكريم».

إن هذا النص ثمين لو كان عليه تاريخ وإن كانت الوقائع المذكورة في أوله مستقاة من الحكايات والأخبار المتناقلة ولاتستند إلى دليل تاريخي يصح الركون إليه.

ذلك بأنها تذكر أن هذا المسجد بناه (وقاص) بأمر الرسول ﷺ وظاهر هذا أن النبي ﷺ بعث إلى الصين صحابياً اسمه وقاص لينشر الإسلام في الصين. ونحن لا نعرف هذا في كتب السير. ولا في كتب التاريخ المعروفة.

إضافة إلى بعده عن التصور من الناحية العقلية البحتة ذلك لأنه كان في زمن البعثة بين الصين وبين البلاد العربية بلدان كثيرة عظيمة على غير دين الإسلام هي أولى بالدعوة كما كان النبي ﷺ قد فعل حين بعث برسائل إلى حكام البلدان القريبة من الجزيرة العربية مثل هرقل في الشام وكسرى في العراق وهوذة بن على الحنفي في البحرين.

ويكفي ان نشير هنا إلى ماهو بدهي في التاريخ وهو أنه حتى العراق الذي كانت تنطلق منه السفن إلى الصين بعد ظهور الإسلام وربما كان بعضها كذلك قبل ظهوره لم يكن قد دخله الإسلام بعد، إذ لم يفتح إلا في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وإنما الصحيح ان (وقاصاً) هذا كان داعية مسلماً ربما كان عربياً أو قادماً من البلاد العربية لنشر الإسلام في الصين وكان بعد البعثة النبوية بزمن بل بعد عهد الخلفاء الراشدين كما نتصور فجاء المتأخرون وزادوا في أمره حين رفعوا من قدره فقالوا: إنه مبعوث من الرسول ﷺ لإظهار الإسلام في الصين.

دخلنا إلى المسجد من بابه الخارجي الواقع على الشارع وهو الذي تعلوه هذه الكتابة العربية يراه كل من يمر به من هذا الحي المزدحم من المدينة فافضى بنا المدخل إلى جزء مسقوف غير ممتد فرأيت ما أعجبني مما لا أكاد أذكر أنني رأيت له مثيلاً من قبل لا في مساجد الصين ولا غيرها من البلدان.

ذلك بأنك من باب المسجد الخارجي هذا ترى ممراً طويلاً جداً تقطعه عقود راكبة عليه في بعض المواضع بعضها أجزاء من مرافق المسجد ثم يأتي المسجد الرئيسي الذي هو المصلى الرئيسي لا تكاد تراه لبعده وعلى أحد العقود أو الطيقان - جمع طاق - عبارة بالصينية فسرها لنا الإخوة المرافقون بما معناه: «أن الإسلام جاء من المغرب.. ورغم بداهة هذه الجملة. إذ ليس من المظنون أن يأتي الإسلام من الشرق من اليابان مثلاً أو مابعدها إلا أن لها أهمية خاصة. ذلك بأنها بخط امبراطور من أباطرة الصين اسمه (كوانغ شي) ذكروا أنه هو الامبراطور قبل الأخير الذي قامت الجمهورية في الصين على أنقاض حكمه. وذكروا أنه كتب هذه العبارة بمثابة التقدير للمسلمين، والاشارة إلى الاحترام الذي يكنه للدين الإسلامي. وإن تاريخ كتابتها منذ أربع وثمانين سنة.

ومما يجدر ذكره أن الجمهورية في الصين قاه ت قبل الشيوعية بزمن وكانت بزعامة (صن يات صن) المشهور.

وبعد هذا الطاق أو العقد سرنا في فناء مكشوف مع الممر نفسه الذي هو متصل باستقامة كاملة منذ أن دخلنا مع الباب الخارجي للمسجد. ثم وصلنا إلى عقد آخر مكتوب عليه بالصينية:

«الإسلام ملة إبراهيم حنيفا، وطريقة جديدة».

وهذا العقد يقوم على جانب منه جزء من الرواق الخارجي المسقوف للمسجد وفوق هذا الطاق برج غير مرتفع يسمى «برج رؤية الهلال. كانوا يصعدون عليه عندما يتراءون هلال شهر رمضان وشهر شوال.

قالوا وكانت رؤية الهلال منه ممكنة في العصور القديمة قبل ارتفاع الأبنية وتعدد طوابقها في هذا القسم من المدينة أما الآن فإنها قد سدت عليه الأفق ولابد في ترائي الهلال من الصعود إلى منارة المسجد العالية.

ومن هذا الرواق وصلنا إلى حديقة في المسجد جميلة مرتبة ويقع بعضها بين الرواق المسقوف المحيط بالمسجد وبين المصلى نفسه.

وقد رأيت في داخل هذا الرواق لوحة عربية جميلة كتبت عليها الآية الكريمة كتابة خاصة: ﴿**ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه**﴾.

ثم الفناء المكشوف للمسجد بعضه مبلط بمادة تشبه الأسمنت وبعده رواق لاصق بالمسجد فيه عدة لوحات وكتابات بالعربية والصينية وكلها كتابات إسلامية من ذلك لوح من الخشب مكتوب عليه بالصينية أركان الإسلام الخمسة. وعلى لوح آخر بالصينية أيضاً هذه العبارة التي تدل على عدم معرفة المسلمين بالتاريخ الدقيق لانتشار الإسلام في الصين وهي تقول كما أخبرونا: .. الإسلام جاء في أسرة تانغ، كم مرَّ بنا من عصور قديمة؟..

وعند مدخل المصلى صندوق للتبرعات كتب عليه هذه الجملة (صندوق النية) يريدون بذلك النية في التبرع أو نحو ذلك وتحتها كتبوا معناها بالانكليزية وفوقها كتابة بالصينية قالوا: إنها العبارة نفسها بهذه اللغة.

وفي مقدمة المسجد جزء ضيق منه بمثابة المحراب الواسع مكتوبة

على واجهته الآية الكريمة، ﴿**إن الدين عند الله الإسلام**..﴾ بالخط الصيني المتميز عن غيره من الخطوط العربية وفي داخل هذا الجزء المتقدم من المسجد محراب معتاد.

والتقطنا صوراً تذكارية ومعنا إمام المسجد (موسى يانغ تونغ تو) والحاج (محمد رشيد يانغ تانغ) الذي كان يرتدي الثوب العربي، وفوق رأسه قلنسوة. وعلى جانب المحراب كتبوا الآية الكريمة: ﴿**الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور**﴾ إلى آخر الآية.

مدخل داخلي في مسجد الاشتياق إلى النبي في كانتون

لمحات تاريخية:

قلنا إنهم يقولون: إن هذا المسجد هو أول مسجد بني في الصين كلها. ومع ان القرائن تشير إلى صحة ذلك أو على الأقل تشير إلى أن مدينة (كانتون) هي من أقدم المدن التي دخلها الإسلام في الصين وذلك من واقع كونها محطة لقوافل التجار القادمين من البلدان العربية والبلدان الإسلامية الشرقية فإن الجزم بالقول بذلك يحتاج إلى دليل. وهذا الدليل يحتاج إلى علماء يبرزونه ويسعون إلى تحقيقه.

ونحن هنا قوم من الزائرين غير المتفرغين. ولذلك ليس لنا إلا ان نذكر ما شاهدناه أو سمعناه.

فكان من ذلك ماذكروه من أن المسجد رمم - فيما يعرفون من أمره - أربع مرات آخرها كان عام ١٩٣٥م.

وليس هذا بالمهم وإنما المهم أنهم أرونا حجراً كان مقاماً في فناء المسجد عليه تاريخ نقشه في عام ١٣٥٠م أي منذ ستمائة وأربع وثلاثين سنة. ذكروا ان الغوغاء كسرته وحطمت تاريخه إبان الثورة الثقافية، وانهم الآن يسعون إلى الكتابة على حجر آخر مماثل له وإقامته في مكان الأول لأنهم يحفظون نص الكتابة الأصلية عندهم على أوراق. وسوف يضعونه في مكانه في شهر رمضان القادم ١٤٠٤هـ حيث يتكاثر رواد المسجد في رمضان.

وبمناسبة الحديث عن الرواد أخبرونا انه يحضر صلاة الجمعة منهم نحو ثلثمائة مصل. أما في أوقات الصلاة الأخرى المعتادة فلايتعدى العدد مابين عشرة إلى عشرين.

وخرجنا من المسجد الرئيسي أو المصلى الذي هو ليس بالكبير إلى التجول في أفنية واسعة تابعة له أكثرها مسقوف.

وتحت هذه الأفنية المسقوفة أشياء تسترعي الانتباه..

من ذلك سبورة عليها كتابة قديمة بالصينية. ومائدة خشبية ضخمة قديمة جداً مؤلفة من كراس ومنضدة بينها. وكراس حجرية قديمة، حول مائدة حجرية أيضاً وفوقها بناء كالمظلة على الطراز الصيني القديم.



شاهد قبر في المقبرة الاسلامية القديمة في كانتون

والكراسي ملساء شديدة الملاسة قالوا: إن

السبب في كونها كذلك هو قدمها، وكثرة الجلوس عليها على مدى القرون.

وقد كتبوا على المائدة الحجرية بالصينية مامعناه: «رجاء التوفيق للجميع».

وفي الفناء المكشوف شجرة عادية - نسبة إلى عاد بمعنى أنها قديمة جداً- ولها جذع ضخم قد خرج عن حوضها كثيراً قال المرافقون: إن عمرها يزيد على مائتي سنة، بل قال أحدهم: إن لها مئات السنين.

وعلى عمود أمام هذه الشجرة وهو أحد الأعمدة التي تحمل أحد الأفنية المسقوفة كتابة بالعربية هي الحديث الشريف (الصلاة عماد الدين فمن أقامها أقام دينه، ومن ضيعها فقد هدم الدين).

وعلى عمود آخر مجاور كتبوا: (المؤمن في المسجد كالسمك في الماء، والمنافق في المسجد كالطير في القفص).

وهكذا تتعدد الكتابات العربية حتى الزهريات التي في الأفنية مكتوبة عليها البسملة بالعربية، واللوحات في داخل المسجد والأفنية أكثرها بالعربية.

ويتضح من ذلك فضل الدين الإسلامي على العربية وأهلها.

نص أثري هام:

بعد ذلك اطلعنا اخوتنا على نص مهم جداً يبين تاريخ بناء هذا المسجد في العصور القديمة وإن لم يوضحْ متى بني المسجد لأول مرة وأهميته تنبع من كونه وجدت صورته واضحة محفوظة عند أحد المسؤولين الحكوميين، ثم اعترفت به الإدارة الحكومية وضمنته منشوراتها.

وهذا نصه:

إن أول مسجد للناس في هذا الأرض كان هذا المسجد المبارك المسمى بالعتيق والقديم المكنى بالجامع والشائع الملقب بمسجد الأصحاب وكان ذلك في تاريخ سنة أربعمائة من الهجرة النبوية بعدما مضى من تاريخه المذكور ثلثماية سنة ووسعه وعمره وجدده واسس هذا الطاق العالي والرواق الرفيع والباب الكريم والشباك الجديد وتممه في تاريخ سنة عشر وسبعمائة الهجرية طلباً لمرضاة الله تعالى أحمد بن محمد القدس المعروف بحاجي ركب الشيرازي غفر الله له ولمن .... بمحمد وآله.

مرافق المسجد:

في المسجد مكتبة أي خزانة للكتب في جهة الشمال منه، داخل فنائه وكذلك محلات للوضوء عديدة مما يدل على أن عدد المصلين في المسجد كان في القديم أكثر مما هو عليه الآن وأماكن الوضوء هذه نظيفة جداً أكثر نظافة من مثيلاتها في الصين ولاشك في أن السبب في ذلك حب المسلمين الصينيين للنظافة والطهارة أكثر من غيرهم من بقية السكان وفيها فوط وأباريق للمياه.

وقال لي الإخوة القائمون على المسجد: إن المسجد يحتاج إلى كل هذه الأشياء يوم الجمعة لأن العدد الذي يستعملها كثير.

وعن البحارة الذين كانوا يأتون للمسجد في الأزمنة القديمة أخبرونا أنهم قلواالآن أولا يكادون يوجدون لأن الأبنية الحديثة المتعددة الطوابق حالت بينهم وبين رؤية المنارة، ولكن الزوار والسياح والتجار من المسلمين يسأل بعضهم عن المسجد ويحضرون لصلاة الجمعة.

في مقر الجمعية الإسلامية :

بعد هذه الجولة الممتعة في هذا المسجد الذي هو في الحقيقة مركز إسلامي وليس مجرد مكان للصلاة لما يشتمل عليه من الأبنية المتعددة والمرافق الكثيرة انتقلنا إلى مقر الجمعية الإسلامية في المسجد نفسه في عدة غرف ملحقة بالمسجد منذ القدم.

فكانت جلسة للحديث بل المباحثات الرسمية مابين الوفد والجمعية الإسلامية لمنطقة كانتون على حفلة للشاي أقامتها الجمعية الإسلامية. حضرها (نور محمد مانونغ تا) نائب رئيس الجمعية فكان أول المتكلمين. استهل كلامه بقوله:

إن المسلمين في هذه المدينة العريقة (كانتون) يرحبون بكم، وان حضوركم هنا هو في حد ذاته مدعاة لسرورهم جميعاً.

ثم قدم الأعضاء المهمين في الجمعية من الحاضرين منهم محمد رشيد نائب رئيس الجمعية وعبدالله سالم، الأمين العام للجمعية الإسلامية في (كانتون) و(قاسم ني لي سانغ) نائب الأمين العام. و(نور محمد تاو كنغ تا) النائب الثاني للأمين العام و(تسنى سي تشي) موظف في إدارة الشؤون الدينية في المقاطعة.

وقال: إن في هذه المدينة مسجدين وانهما يحتاجان إلى بعض الأمور التي تجتهد الجمعية في توفيرها.

وقد رددت عليه بكلمة مناسبة شكرته على ترحيبه بالوفد وأخبرته فيما يتعلق بالمساجد أن رابطة العالم الإسلامي تقوم ببذل جهودها لترميم المساجد في أنحاء العالم ولا يحد من نشاطها في هذا الأمر الذي يجعل سائر الاخوة المسلمين يحسون به إلا كونها تعمل على مستوى العالم لأن المساجد كثيرة والعالم واسع، والاخوة المسلمون

يتكاثرون وحاجتهم إلى بناء المساجد أو ترميمها تتزايد- ولله الحمد - تبعاً لذلك.

وقلت: إننا مستعدون للتعاون مابين الجمعية الإسلامية وبين رابطة العالم الإسلامي على مايرضي الله تعالى وينفع المسلمين.

ثم قدمت إليهم أعضاء الوفد.

مسجد شوق إلى النبي:

تشعب الحديث مع هؤلاء الاخوة في المسجد وكان جزء منه عن المسجد هذا فأكدوا ما ذكروه من قبل وهو ان هذا المسجد هو أول مسجد بني في الصين غير ان دليلهم الذي قدموه أو تعليلهم لم يكن مقبولاً عندنا، وان كان قد أصبح عندهم من الأمور المسلم بها.

وكذلك النتيجة تدل على عدم دقتهم في الحكم على الأشياء التاريخية. قالوا: تاريخ هذا المسجد مضى عليه أكثر من ألف سنة.

وقالوا: أول بلد في الصين دخله الإسلام هو (كانتون) دخلها الإسلام من البحر في أوقات مبكرة وهي كانت مكشوفة من جهة البحر أمام التجار والبحارة الأجانب الذين كانوا يأتون من البحر وقد كان مجيء العرب للصين لأجل التجارة وقالوا: إن العرب التجار هؤلاء كانت لهم مكانة كبيرة في نفوس الصينيين من كفار ومسلمين، ومن حاكمين ومحكومين وان الصين بالذات كانت تعتني بهم. وهذا



مدخل مسجد الشوق إلى النبي في كانتون

صحيح غير ان الذي قالوه بعده ليس كذلك وهو قولهم: بني المسجد سعد بن أبي وقاص، وهو الذي بنى المنارة وهي من الحجر وكانت بمثابة (الفنار) الذي تهتدي به السفن في القديم.

لأنه من الطبيعي ان الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه الذي قاد معركة القادسية، ليس هو بالذي دخل إلى الصين وبنى هذا المسجد ومنارته.

وقالوا: إن هذا المسجد كان له اسم آخر اشتهر به في وقت من الأوقات وهو (شوق النبي) أو (الشوق إلى النبي) ويعرف الآن بالاسمين كليهما: «شوق النبي» و(مسجد المنار).

على رأس المنارة:

هذه المنارة المهمة التي نسبوها في حكاياتهم الشعبية إلى الصحابي الجليل (سعد بن ابي وقاص) جديرة بأن يتأملها المرء من الداخل والخارج. وقد فعلت ذلك وزدت عليه بأن صعدت إلى قمتها مع درج حجري ضيق في داخلها وبعيد العهد بالاستعمال لأن المؤذنين منهم مثل غيرهم قد استعاضوا بمكبرات الصوت عن الصعود إلى رأس المنارة.

ومن الغريب انه لكي يصعد المرء إلى المنارة لابد من ان ينزل في درج سفلي يصعد منه إلى أعلى وقد أرجعت سبب ذلك في ظني إلى ان الأرض الأصلية للمنارة كان مستواها نازلاً



منارة مسجد الشوق إلى النبي

واستمر كذلك رغم ان ماحولها قد ارتفع عن مستوى الأرض الأصلية.

أما شكل المنارة فهو مستدير وأسفلها أغلظ من أعلاها، وفيها ١٥٣ درجة والدرجة هنا هي التي يصعدها المرء بخطوة واحدة.

ومن رأس المنارة لم يكن المنظر أنيقاً بل كان معتاداً، لأن عمارات سكنية قد ارتفعت حول منطقة المسجد فحجبت النظر عن أن يذهب بعيداً.

ومن الغريب بل المحير أننا وجدنا في هذه المنارة التي لاتبدو غليظة جداً درجتين فواحدة للصعود وأخرى للهبوط، ولقد استعنت بصاحبي الذي صعد معي لرأس المنارة وهو الأستاذ إبراهيم الخزيم للتأكد من ذلك فتيقناه جميعاً.

إلى الضريح المزعوم لسعد بن أبي وقاص:

هكذا قالوا لنا جازمين: إلى ضريح سعد بن أبي وقاص نزوره ونسلم عليه فهو صاحب رسول الله ﷺ وأول من أدخل الإسلام إلى الصين.

وقد بينت لهم أن الأمر ليس كذلك بالنسبة إلى الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه كما سبق وأنني لم أشاهد الدليل على غير ذلك من أدلة ملموسة في الصين نفسها.

تركنا مسجد المنارة أو (الشوق إلى النبي) في العاشرة والنصف بعد ان أنفقنا فيه أكثر مما قدرناه من وقت ولكن ذلك لم يذهب سدى بل في تلقي معلومات ومشاهدة مواضع كثيرة في المسجد وماحوله.

فمررنا بشارع تجاري مهم اسمه (تشونغ تشان) فيه محلات تجارية كانت فاخرة وقد امتدت أمامها أروقة من أروقة المباني على غرار مانفعله الآن في مدننا بحيث تشترط البلديات عندنا في بعض الشوارع التجارية أن تكون لأبنيتها أروقة تقع فيها مداخل المحلات التجارية لكي تقي المارة والمتسوقين من أذى الشمس، ومن المطر إن نزل ولكن ليس فيه عقود كما في شوارعنا. وقد رأيت مثل ماعندنا من العقود في كاركاس عاصمة فنزويلا ولكن العقود في ذلك القسم منها هي كالأهلة وليست كالمحاريب.

هذا الشارع هو فاخر بالفعل بالنسبة إلى هذه المدينة الصينية التجارية. ولكنه في الواقع ليس فاخراً بالنسبة إلى المحلات التجارية في العالم في الوقت الحاضر بل بالنسبة إلى المحلات التجارية غير الفاخرة في بلادنا في الوقت الحاضر.

ولقد ذكرني مرآه بمنظر المحلات التجارية الفاخرة في المدن الهندية ولاشك بأن هذه المحلات والأبنية التي فوقها بل وهذا المظهر الجيد في هذا الشارع وأمثاله كله كان قبل الثورة الشيوعية، وإبان الحرية الاقتصادية.

ثم مررنا بأبنية جيدة وشوارع لا بأس بها بالنسبة إلى الأطرزة التي كانت معروفة في منتصف هذا القرن الميلادي.

ولكنها وقفت عن التطور بسبب مجيء الشيوعيين، وبقي عليهم ان يحافظوا عليها وإلا فإنهم لايستطيعون ان يبنوا مثلها فضلاً عن أن يبنوا أحسن منها.

سعة الشوارع مناسبة، وإن كانت بالعرف الحاضر لأمثالها قد أصبحت ضيقة.

ثم مررنا بشارع عام أوسع في وسط المدينة قد وقفت على أرصفته غير الفاخرة الدراجات الهوائية الكثيرة على هيئة صفوف متراصة منظمة لأنها هي الوسيلة الوحيدة للركوب التي يتاح لعموم الشعب الصيني أن يمتلكها.

وفي قسم من البلدة القديمة كانت هناك حديقة ظليلة، وقفنا عند بابها، وهي تبدو بأشجارها الملتفة وأعشابها الريانة كالغابات الإستوائية، ذلك أن مدينة (كانتون) حافلة بالمياه من الأمطار والأنهار.

ولذلك كانت هذه الحديقة ريانة الأعشاب، بل ذات أعشاب متشابكة تركبها أعشاب أعلى منها فأشجار قصيرة فأشجار أعلى منها حتى تشابكت فيها الأشجار والأعشاب.

وقد عرفنا بعد ذلك ان هذه الحديقة قديمة. وأنها حافلة بآثار العمارة القديمة ولذلك ابقوا عليها غفلاً أي من دون تهذيب أو تشذيب أو تركوها على حالة تقرب من ذلك.

سرنا مع ممر حجرى نخترق الحديقة التي كانت أشجارها الملتفة تغلق النظر وتحد من انطلاقه حتى لا يرى سواها. واستمر السير مع هذا الممر الحجري أي المرصوف بالحجارة، وليس بالأزفلت لأنه قديم لم يغير.

وبعد ذلك وصلنا فجأة إلى عدة أبنية قديمة كان منها بناء رئيسي يدخل مع باب خارجي على فناء مسقوف يفضي إلى جزء من



الأستاذ لقمان ماشان لي والشيخ صالح ان شي ون عند مدخل مسجد الشوق الى النبي

الحديقة تعبق منه روائح الزهور الشذية وفيه الضريح وقد كتبوا على بابه: «روضة أبي وقاص».

كما كتبوا عليه بالصينية مايلي: «نقطة أثرية هامة محفوظة من قبل الحكومة الشعبية لمقاطعة كانتون».

وأول الأدلة على عدم صحة نسبته إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وان كان الأمر يحتاج إلى أدلة- كلمة (روضة) التي استعملها المتأخرون من الأعاجم بمعنى قبر محترم أو (مقبرة) ربما كانوا أخذوها في الأصل من اللفظ غير الصحيح للحديث الصحيح: مابين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة. فرويت رواية غير صحيحة: «ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة».

فهذه اللفظة روضة بمعنى قبر أو مقبرة لم تكن مستعملة في الصدر الأول من الإسلام.

وثاني الأدلة أن اسم أبي وقاص المكتوب هنا يدل على أنه شخص آخر اسمه (أبو وقاص) غير الصحابي الجليل (سعد بن أبي وقاص).

وأخبرني أحد الأخوة المرافقين من الصينيين أنه كان مكتوباً بالعربية على هذا المدخل: (هذا قبر خال النبي سعد بن أبي وقاص). يشيرون بذلك إلى خؤولة النبي ﷺ في بني زهرة الذين منهم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه. غير ان هذه العبارة أزيلت إبان الثورة الثقافية لأنها على واجهة المقبرة.

وفي الفناء المكشوف أشجار وزهور منوعة ومقاعد حجرية يجلس عليها وإن لم تكن كثيرة.

ثم وجدنا مقبرة معتادة من مقابر المسلمين والقبور فيها من جهة اليمين واليسار. وفي وسطها بناء كالغرفة الكبيرة على سطحها شرفات

عربية صميمة يلوح القدم عليها وعلى سائر بناء القبر.

والقبر في وسط هذه الغرفة قد رفع عن الأرض بنحو المتر وقد جلل بالستائر وعنده قوم من المسلمين عليهم مظهر الصينيين الجنوبيين، أو أهالي هونغ كونغ وقد صفوا صفين وهم يدعون حول القبر مما أثار امتعاضنا جميعاً وبخاصة اثنين من الأخوة أعضاء الوفد حيث شددوا النكير على رئيس الجمعية الإسلامية الذي كان يرافقنا مع بعض أعضاء الجمعية وقالا: إنكم المسؤولون عن هذه البدع التي تكون عند هذا القبر بل المنكرات العظيمة فلم يحر جواباً وإنما قال أحد الاخوة من المرافقين الصينيين: إننا لانعلم ماذا يفعل هؤلاء عند القبر فربما كانوا يدعون الله وقد رأيناهم بالفعل يرفعون أيديهم بالدعاء فقلنا: وهذا أيضاً بدعة فقال: وربما كانوا يقرأون القرآن قراءة مجردة.

وقد حاولوا أن يسألوهم عما يفعلونه لنبين لهم أن ذلك لايجوز، ولكنهم لم يرضوا ان يستمعوا، بل لم يرضوا بأن يردوا بكلمة واحدة وإنما اقتصروا على الإشارات التي تؤدي معنى نفي، قال الإخوة المرافقون: إنهم لايريدون أن يقاطعهم أحد.

وقد ايسنا بالفعل من أن يردوا علينا، ، مما زاد أيضاً من امتعاض بعض الاخوة من أعضاء الوفد.

حديث الشواهد:

المراد بالشواهد شواهد القبور التي رأيناها في هذه المقبرة. وقد كتبوا عليها كتابات كثيرة إذ كلها عليها كتابات لكن بعضها مطول. وبعضها مختصر ربما حسب أهمية صاحب القبر ومنزلته في الدنيا.

وجميع هذه الكتابات بالعربية وقد رأيت نقل نماذج منها لا لكوننا

نستحسن الكتابة على القبور، وانا لنورد نماذج حية، وإن كان أهلها أمواتاً على اسلوب الكتابة بالعربية عند أهل الصين في القديم. ومن الملاحظ أن القبور كلها قديمة والكتابة عليها كلها قديمة وان لم تكن بالغة القدم. ولم نلاحظ بينها قبوراً حديثة.

وهذا نص الكتابة على أحدها:

(صاحب القبر عالم السخي التقي حاج الصالح النصيح محمد شمس الدين الغاز خوي الشويعر غفر الله له وجعله من الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين).

واسلوب الكتابة لايحتاج إلى تعليق وإنما المهم ان صاحب القبر من قومية (خوي). وهي تكاد تكون أكبر القوميات أو المجموعات الإسلامية في الصين. وقد مر ذكرها.

والثاني: وصفه بالشويعر فهل هذا وصف وانه شاعر بالفعل صُغِّر من أجل صغر سنه، أو صغر قدره كما قال الحريري في ملحة الإعراب في باب التصغير.

وان ترد تصغير الاسم المحتقر إما لتهوانٍ وإما لصغر

أم أنه مجرد اسم.

وإذا كان الافتراض الأول صحيحاً فهل هو شاعر بالعربية؟ أم بالصينية؟ بقي الأهم من ذلك كله في موضوع هذا النص وهو تاريخه فالصينيون لايؤرخون بالميلاد أو نحوه وإنما يؤرخون بالأسرة الحاكمة فيقولون إن فلاناً مات في عام كذا من حكم أسرة كذا وهم يعرفون تاريخ تلك الأسر الحاكمة ولكنهم يقارنونه بالتاريخ الميلادي أو الهجري.

وقد أخبرونا ان تاريخ كتابته في أسرة (تشينغ) وقال بعضهم: إنه منذ أكثر من مائة سنة وقال آخرون: بل هو أقدم من ذلك.

وهذا النص على شاهد آخر:

(صاحب هذا القبر عالم الفقيه الكريم حاج الواعظ المرشد محمد عمر القاشخو خوي عززه الله بالمرتبة العالية، والرحمة الدائمة، وجعل قلبه غرفات الجنة. وجعله مصاحباً أهاليه في الجنة ورائياً وجهه الأعظم).

وبعض شواهد القبور عليها كتابات مختصرة أو أدعية بالعربية ومنها قبر أخبرونا أن تاريخ كتابته يزيد قليلاً على مائتي سنة.

وآخر عليه دعاء بدعي يعني أنه لا أصل له في الشرع قالوا: ان كتابته ترجع إلى ١٢٠ سنة.

هذا والجو حار رطب وإن لم يكن في شدة حرارة جدة ورطوبتها في الصيف ومع ذلك فإن في هذه الرطوبة فائدة هي عدم اتساخ الحذاء لأن الغبار هنا قليل بخلافه في العاصمة (بكين) التي كان جوها عندما كنا فيها جافاً مغبراً تتسخ منه الأحذية. وقال لنا المسؤولون هنا: إن الثورة الثقافية التي امتدت إلى أكثر الأشياء القديمة في الصين لم تصل إلى هذه المقبرة ولم يعملوا فيها أي شيء أو يزيلوا أي شيء.

وشواهد أخرى:

قلنا: إن مدينة كانتون كانت من أوائل المدن الصينية التي دخلها الإسلام قبل غيرها، ولذلك كانت مقبرتها من أوائل مقابر المسلمين في الصين.

وقد اتضح ان بعض القبور قديمة جداً يرقى تاريخها إلى ثمانية قرون أو أكثر. ولكننا لم نرها إذ وسعت الحديقة التي بجانبها، وشملت تلك التوسعة جزءاً من المقبرة فضاعت بذلك معالم القبور، بل ضاعت القبور كلها، غير ان مصلحة الآثار الصينية احتفظت بشواهد القبور القديمة ورتبتها وضمتها إلى المتحف.

وقد اطلعنا على صور كتابتها وأردنا إثبات بعضها هنا للفائدة وبخاصة لمن لايعرفون، بل لايتصورون قدم وجود المسلمين في هذه البلاد.

ويتضح منها ان اللغة العربية هي التي كانت سائدة بين المسلمين وأن المسلمين يتعلمونها تعلماً لأمور دينهم، ويكتبون بها على قبورهم. وأكثر الكتابات على القبور فيها تواريخ امتدت من القرن السادس الهجري أي بعد المائة الخامسة إلى القرن الثامن الهجري أي مابعد السبعمائة.

ولاشك في أن وجود المسلمين لم يكن مفقوداً قبل ذلك التاريخ ولامنقطعاً بعده وإنما ذلك لغياب وجود الشواهد.

ومن الكتابات التي عليها تاريخ:

١- . . . هذا قبر حسين بن محمد الخلاطي رحمه الله توفي في شهر ربيع الآخر . . . ومات في سنة سبعة وستين وخمسماية . . . .

٢- البقاء لله حكم المنية في البرية جار ما هذه الدنيا بدار القرار هذا قبر منصور بن الحاجي القاسم الجاجرمي توفي في يوم الخميس الاحدى والعشرين من جمادي الآخر . . . . سنة ست وسبعين وستماية.

٣- بسم الله الرحمان الرحيم لا إله إلا الله محمد رسول الله لا إله

إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون.

٤- هذا الأجل الأكبر الأكرم شهيد حاج بن أعويك بن حاج المالقي وذلك كله سبع وعشرين من شهر شعبان سنة تسع وثمانون وستماية.

٥- من مات غريباً فقد مات شهيداً هذا لمشهد الشاب الأعز قرنطاً تكين ابن سلطان خان توفي في شهر تموز سنة ثمانية وتسعين وستماية.

٦- هذا قبر المرحومة الصالحة الراكعة الساجدة فاطمة بنت نبنا أحمد تغمدها الله بالرحمة والرضوان توفيت في الثالث عشر من شهر الله المبارك رمضان عظم الله بركته لشهور سنة سبعماية من الهجرة النبوية وصلى الله على محمد وآله أجمعين.

٧- قال الله تعالى كل نفس ذائقة الموت انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء الشيخ الأجل الكبير منبع الاحسان الحمد العفو ولي الكرمات الجزيلة الفائزة بالكل الجميلة شهامة الدام بالدين ابن داقاب بن اسفهسالار اليلاشاقوني أنار الله مرقده وطيب مشهده في أحسن العيد للأول من شهر ربيع الآخر عام إحدى وسبعماية من الهجرة النبوية والرحلة المصطفوية.

٨- ... بكر بن ... عشر صفر سنة .... ستماية غفر الله له ولوالديه.

٩- المتوفي الشهيد أمير سيد أجل طغانشاه بن سيد أجل عمر بن سيد أجل أميران بن أمير اسفهسالار در بكر في البخارى نوّر الله مضجعهم وجعل الجنة مثوبهم كانت وفاته في التاسع من شهر صفر سنة اثنان وسبعماية.

١٠- إنا لله وإنا إليه راجعون هذا قبر المرحوم المذنب الراجي إلى رحمة ربه وغفرانه نبينا محمد بن عبدالله يعرف.... توفي في نهار السبت من جمادي الآخر سنة أربعة وسبعماية.

١١- قال الله تعالى كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام كل نفس ذائقة الموت إنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور قال النبي عليه السلام من مات غريباً فقد مات شهيداً توفي المرحوم الراجي إلى رحمة الله وغفرانه الشيخ الفاضل للأكاراب عمر.... غفر الله له في شهر ربيع الآخر سنة ثالثة وسبعماية.

١٢- من مات غريباً فقد مات شهيداً صدق رسوله صاحب هذا القبر المتوفي السعيد الشهيد إلى رحمة الله تعالى حسين بن حاج العروس سير الله حفره في التاريخ ثلاث عشرين من شهر صفر سنة أربع وسبعمائة.

١٣- ... توفي الشيخ المرحوم السعيد وصل إلى رحمة الله تعالى خواجة ثمال الدين بن محمد بن أصهب ابراهيم نور الله قبره في التاريخ الثالث عشرة من شهر محرم سنة عشر وسبعمائة.

١٤- ... ابوبكر بن حسين .... تاريخ أوليط شهر ربيع الآخر سنة سبع عشرة وسبعماية.

١٥- هو الحي الباقي كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون قد توفيت أجرها السعيدة الشهيدة المرحومة المغفورة شيرين خاتون بنت حسين سولي نور الله قبرها وجعل الجنة مضجعها من الدار الفانية إلى الدار الباقية في الحادي والعشرين من شهر الله المبارك رمضان سنة احدى وعشرين وسبعماية من التاريخ الهجري النبوي المصطفوية

وصلى الله على محمد وعلى آله أجمعين..

١٦- .... وصل إلى رحمة الله تعالى لقبر نور أنسا ابن خواجه بلد الشاه ابن خواجه حاج حاربك خوارزمي نور الله قبره وجعل الجنة مضجعه من الدار الفانية إلى الدار الباقية في الاثنان والعشرين من شهر الله رمضان سنة اثنان وعشرين وسبعماية من التاريخ الهجرة النبوية المصطفوية صلى الله على محمد وآله أجمعين.

١٧- قال النبي عليه السلام من مات غريباً فقد مات شهيداً من أعرض عن الدنيا وصل إلى رحمة الله تعالى شمس الدين بن نور الدين بن اسحاقان شهر نساي في يوم الجمعة سبع وعشرين من شهر المحرم سنة خمس وعشرين وسبعمائة.

١٨- هو الحي الباقي هذا قبر الشهيد السعيد المرحوم وصل إلى رحمة الله تعالى محمد بن سعود نخش يوم الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة ست وعشرين وسبعمائة اللهم...

١٩- هذه قبرة الوالدة العزيزة المشهورة الصالحة فاطمة خاتون بنت على تكن الكوحاتي غفر الله برحمته ورضوانه من ست شهر ربيع أول في يوم الأحد سنة تسع عشرين وسبعماية من هجرة النبوية عليه الصلاة والسلام در هشتم ماه دوازده خطائي در سال نهگ.

٢٠- انتقل من دار الغرور إلى دار السرمدي واتصل إلى رحمة ربه الغيورة السعيدة الصالحة الساجدة الزائرة خديجة خاتون بنت للصدر المرحوم حوار معين الدين التهاني في تاريخ يوم الساهر من سرال سنة ست وثلاثين وسبعمائة.

٢١- قال الله تعالى ﴿وماجعلنا لبشر من قبلك الخلد أفان مت فهم الخالدون كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنةً وإلينا

ترجعون﴾ قال النبي ﷺ [إن أكرمكم عند الله أتقاكم]. . . . كانت في تاريخ الخامس من ربيع الأول سنة ثامن وثلاثين وسبعمائة.

٢٢- هو الباقي انتقل من الدنيا إلى العقبى واتصل إلى رحمة الله تعالى خواجة على بن عثمان الكيلاني تغمده الله بالغفران في الخامس من المحرم الواقع في ماه. . . . سنة تسع وخمسين وسبعمائة.

٢٣- انتقل من الدار الفانية إلى الدار الباقية واتصل إلى رحمة الله تعالى المرحوم السعيد الشهيد نعلوان بانان بن قاسم اصفهاني تغمده الله بالرحمة والرضوان واسكنه بحبوحة الجنان في سنة تسع وخمسين وسبعمائة.

٢٤- كل نفس ذائقة الموت انتقل من الدار الفانية إلى الدار الباقية الأبدية حسين اسماعيل الخالي في شهور سنة أربع وستين وسبعماية.

٢٥- هو الباقي انتقل من الدنيا إلى العقبى واتصل إلى رحمة الله تعالى حاجي خواجة بن حسا المردم يبكى الغى في التاريخ الخامس عشر من شوال سنة أربع وستين وسبعمائة.

٢٦- هو الباقي انتقل من الدنيا إلى العقبى بها الدين عمر ابن أحمد العامي التبريزي في التاريخ الثامن من شهر . . . . اربع وستين وسبعماية.

٢٧- توفى الأمير التوتقاسون أمير على بن حسن بن على الغروس غفر الله له ولوالديه يوم الجمعة في شهر رمضان سنة اثنين وسبعين وسبعماية.

٢٨- بسم الله الرحمان الرحيم كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام. توفيت الأمة الفقيرة فاطمة بنت موسى ابن على الموسى يوم السبت الثالث من المحرم من. . . .

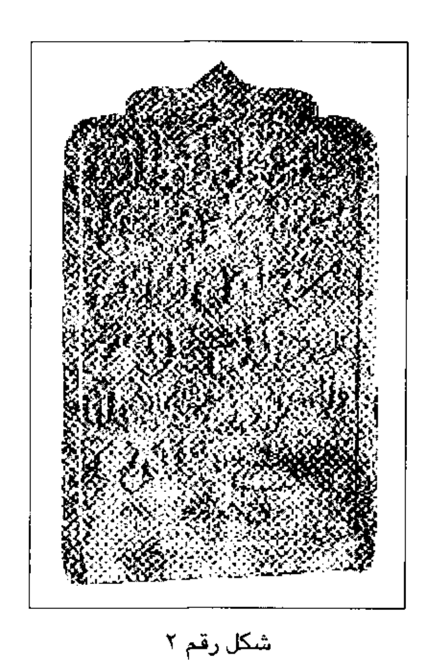
وقد كثرت هذه النقوش والنصوص المكتوبة بالعربية على شواهد القبور ويوحي أكثرها أنها لأقوام من إخواننا المسلمين غير العرب وذلك من الأسماء المذكورة فيها إلا ماكان من النص الأخير فربما كانت لأمرأة عربية.

وعلى أية حال فإننا نعتقد أنها نصوص مهمة تنبغي دراستها واستخلاص النتائج منها لمعرفة حال المسلمين الذين كانوا موجودين في الصين في تلك العصور ومعرفة علاقة الصين بالبلدان الإسلامية على ضوء ذلك.

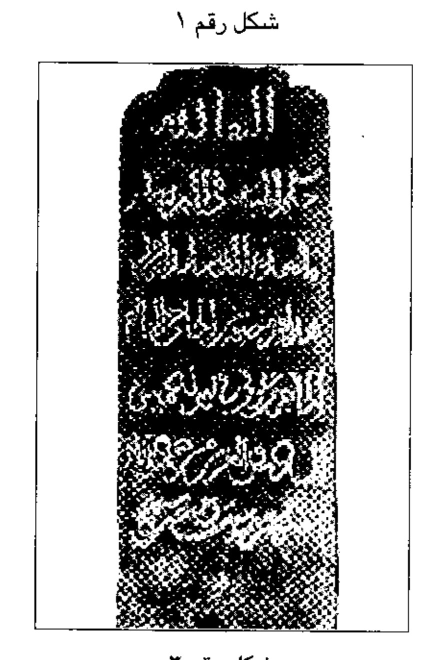
وهذه صور لبعض الشواهد والنصوص المؤرخة المكتوبة بالعربية في مقابر كانتون (قوانقتشو):



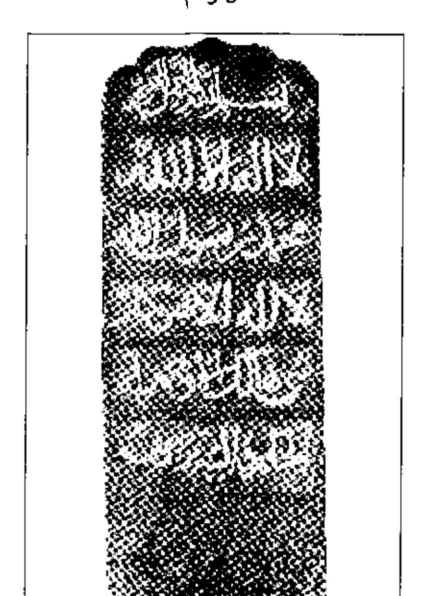
شكل رقم ١



شكل رقم ٢



شكل رقم ٣



شكل رقم ٤

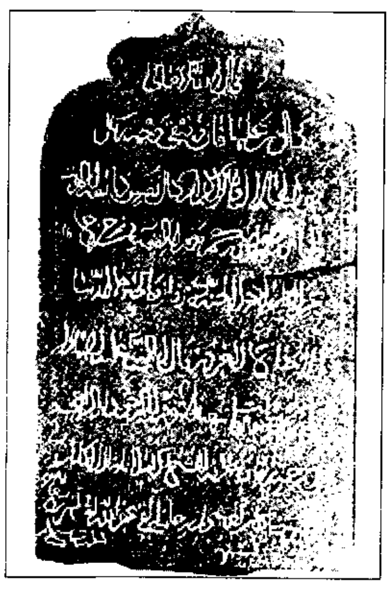
شكل رقم ٥



شكل رقم ٦



شكل رقم ٧

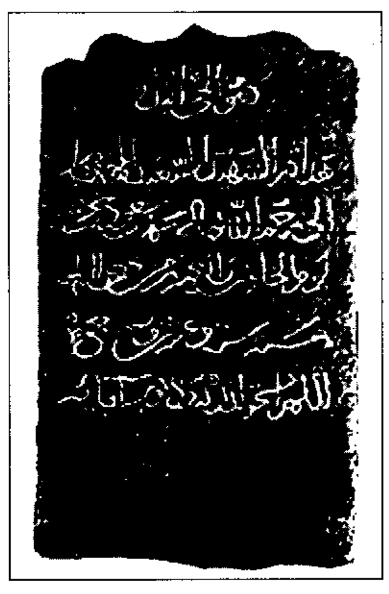


شكل رقم ٨

شكل رقم ٩



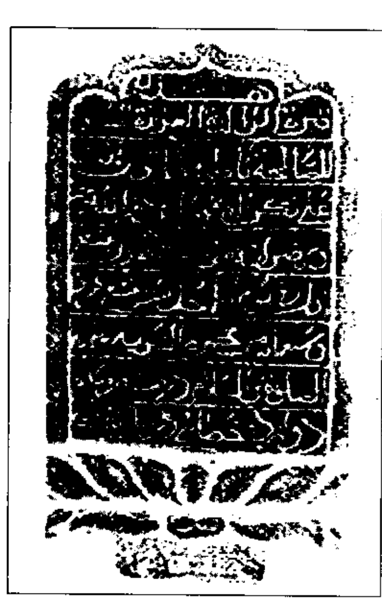
شكل رقم ١٠



شكل رقم ١١



شكل رقم ١٢



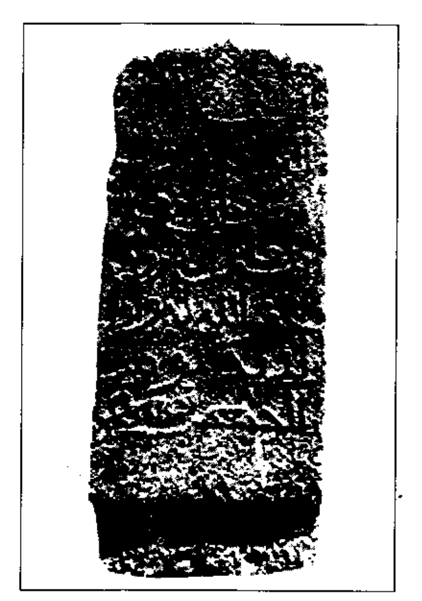
شكل رقم ١٣



شكل رقم ١٤



شكل رقم ١٥



شكل رقم ١٦

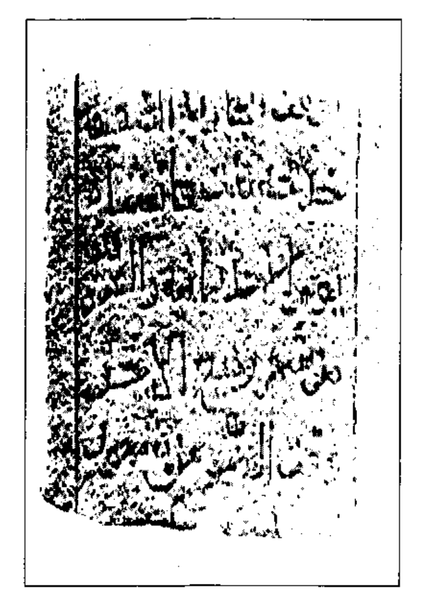
شكل رقم ١٧



شكل رقم ١٨



شكل رقم ١٩



شكل رقم ٢٠

شكل رقم ٢١



شكل رقم ٢٢



شكل رقم ٢٣



شكل رقم ٢٤

مسجد المعسكر الشرقي:

تركنا هذه المقبرة التي حفلت بما هو بدعي من البناء على القبور وتعظيمها بالدعاء عندها وتوجيه اليدين إليها في حال الدعاء لا إلى القبلة قاصدين مسجداً هو المسجد الثاني في مدينة كانتون وذكروا لنا أنه يسمي مسجد (تونغ يانغ) ومعناها: المعسكر الشرقي. وذلك أنه كان في جيش الامبراطور جنود مسلمون في هذا المعسكر الشرقي فبني هذا المسجد من أجلهم.

ولايوجد المعسكر الآن وإنما يوجد حي من أحياء كانتون التي تعتبر قديمة نوعاً ما أو متوسطة في قدمها فلا هي بالحي الحديث ولا بالقديم التاريخي مع أن الحداثة في الأحياء في المدن الصينية بعد الثورة الشيوعية هي نسبية، إذ لاتوجد أحياء حديثة أي ذات بيوت مبنية حديثاً، لأن الناس لايبنون البيوت فهم أفقر من ذلك، وإنما يقتصر بناء المساكن على الحكومة التي تبنيها على هيئة أبنية (عمارات) متعددة الطوابق ذات شقق تؤجرها بأجور ضئيلة على موظفيها وعمالها وذوي الحظ الحسن من الناس.

دخلنا إلى المسجد مع زقاق معتاد من الشارع العام في رأسه باب المسجد الخارجي مكتوباً عليه بالعربية: «المسجد لله تعالى» وتحتها معناها بالصينية.

ثم أفضى المدخل إلى



داخل مسجد تونغ يانغ في كانتون

فناء مكشوف غير واسع مبلط بالحجارة في جهة منه غرف كتب على إحداها: «إنا لله وإنا إليه راجعون» وأخبرونا ان هذه الغرفة تستعمل لتجهيز أموات المسلمين .

والمسجد غير واسع وهو من طابق واحد مبني بالخشب على الطراز الصيني التقليدي وفي محرابه كتبت الآية الكريمة: **﴿الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل﴾**.

وقد أخبرونا أنه لاتقام فيه الجمعة لقلة عدد الذين يحضرون، وإنما تصلي فيه الصلوات الخمس وأحدهم قال: بعض الصلوات الخمس مثل صلاة العصر التي يحضرها نحو عشرة مصلين.

يرجع تاريخ بناء المسجد إلى ماقبل ثلثمائة سنة وسنتين قال الاخوة ذلك بعد أن حسبوا تاريخ إحدى الأسر الحاكمة .

وأخبرونا أنه قد جرى تجديده وترميمه مؤخراً من تبرعات المسلمين من داخل الصين ومن هونج كونج مع انه كانت توجد مساكن موقوفة عليه ولكنهم لم يفصحوا لنا عما جرى لها.

العودة إلى الفندق:

خرجنا من الزقاق الذي يقع فيه المسجد وكانت السيارات واقفة في الجهة المقابلة من الشارع فظللنا فترة واقفين لكثرة الدراجات التي كانت تمر في الشارع رغم كون المرافقين يحاولون ان يوقفوا مرورها من أجلنا وذلك لأن هذه الساعة التي تقارب الثانية هي ساعة انتهاء الفترة الصباحية من العمل.

إلا أن الدراجات هنا على كثرتها هي أقل منها في بكين بالنظر إلى الفارق السكاني الكبير في حجم بكين التي هي أكبر وأكثر سكاناً من كانتون.

وعندما رأيت الأطفال بكثرة في أزقة هذا الحي تذكرت من وجودهم هكذا ومن أشكالهم على البعد كثيراً من البلاد التي يوجد فيها الجنس الملايوي الذي يشمل الأندونسيين والماليزيين والفلبينين والتايلنديين. وهم يختلفون عن سكان شمال الصين اختلافاً كبيراً كما أنهم يختلفون كلية عن سكان مقاطعة سينكانج أو تركستان الشرقية.

ولقد رأيت بعضهم معهم حزم صغيرة من الأسماك التي يذهبون بها إلى بيوتهم فلم أجد في طريقة حملها ولا في هيئاتهم وهم يحملونها وبخاصة عندما يمشون الهوينا مشياً قصير الخطى واحياناً يكون فيه جنوح خفيف ذات اليمين وذات الشمال مما شدني إلى ملاحظة الشبه العظيم بينهم وبين الجنس الملايوي المتقدم ذكره.

ولا عجب في ذلك لأن كثيراً من الباحثين يقولون: إن أهل الجنس الملايوي جاءوا في الأصل من جنوب الصين واعتقد ان هذا صحيح.

وعند العودة إلى الفندق رأيت ان السيارات الصغيرة والحافلات الصغيرة هنا أكثر منها في بكين فضلاً عن المدن الشمالية الأخرى ولاشك في ان سبب هذا هو سبب وجود سيارات الأجرة بكثرة في شوارع كانتون هذه لكونها مدينة سياحية تجارية يفد إليها عدد أكبر من السياح والتجار وهم يحملون نقوداً كثيرة ويحتاجون إلى هذه السيارات بخلاف المدن الصينية الأخرى فهي أقل منها في عدد السياح والتجار الذين يفدون إليها. وذلك بسبب تسهيل دخول هؤلاء من قبل الحكومة الصينية التي كانت تعطيهم سمات دخول محدودة إلى هذه المدينة ونحوها ولاتكون صالحة للذهاب إلى غيرها من المدن.

وكان الغداء في مطعم الفندق صينياً مخففاً لأنه غير رسمي.

وكانت المتعة في العودة إلى إطلالة من نافذة غرفتي في الفندق على اقتران المياه النهرية من تحتها ثم امتزاجها بحيث تبدو كالبحر العظيم. وقد ازدحمت بالقوارب على ظهرها كما تزدحم الشوارع بالسيارات في المدن الأخرى.

في متحف الحديقة:

كان البرنامج يتضمن فقرة بعنوان: زيارة حديقة(إيو تشيو). وكان وضع هذه الفقرة في البرنامج بعد الظهر مريحاً لي لأنه يأتي بعد يوم عمل غير ان إخوتي أعضاء الوفد آثروا عدم زيارة الحديقة وأن يستبدلوا بذلك جولة في أسواق هذه المدينة التي هي آخر مدينة صينية في زيارتنا هذه عسى أن يجدوا فيها مايستحق الشراء والإهداء.

ذهبت أنا مع الأخ المترجم (لقمان ماشان لي) وأحد الإخوة من الجمعية الإسلامية هنا .

دخلنا الحديقة في الثالثة والنصف ظهراً فرأينا طوائف من الناس من ذوي الملامح الصينية موجودين في الحديقة بكثرة ورأيناها واسعة فيها تلال وأماكن منخفضة بعضها فيها بحيرات طبيعية فقصدنا الأهم فيها وهو المتحف الذي يقع في بناء مرتفع على تلة عالية ويشرف منه على جزء كبير من المدينة وكان يشرف قبل ذلك على المدينة كلها والبحر من ورائها ولذلك كان اسم هذا البناء في القديم: «رؤية البحر».. قالوا: إن تاريخ إقامة البناء القديم كان في عام ١٣٨٠م وكان خمس طبقات من الخشب يبلغ ارتفاعه ٢٨ متراً وكله من الخشب الخالي من المسامير.

وهذه طريقة عند الصينيين للتأنق في البناء بالأخشاب عندهم في

القديم حيث كانوا لايضعون المسامير في الأبنية المهمة التي يعتنون ببنائها، وإنما يداخلون بينها بأجزاء صغيرة من بعض القطع تدخل في أماكن محفورة في قطع أخرى. إلا انه احترق في عام ١٩٢٨م وذهب كله فبنوه بناءه العالي ولكن من الأسمنت المسلح ومن ذلك التاريخ أصبح هذا المبني متحفاً وكان في السابق جزءاً من الحديقة ليس فيه معروضات لأنه هو نفسه كان يعتبر متحفاً لارتفاعه إلى مستوى خمسة طوابق وكونه يرى منه البحر.

وبعد الثورة الشيوعية ضم إلى الآثار الهامة في البلاد مع ان بناءه الحالي ليس قديماً. ومايزال اسم (رؤية البحر) باقياً رغم كون الذي فيه لايرى البحر الآن لوجود أبنية مستحدثة حالت بينه وبين البحر. بل حالت بينه وبين رؤية الجزء الأكبر من المدينة الذي كان يرى منه وأصبح المرء يرى من معالم المدينة إذا صعد أعلاه برجاً مهماً للمياه. وملعباً رياضياً كبيراً.

مدينة الوعل :

من أعظم التماثيل التي يقف عندها الناس هنا إثارة للاهتمام والتعليق عندهم تمثال لوعل وصغاره وذكروا ان السبب في ذلك أن القوت شح في سنة من السنوات في المدينة حتى كاد أهلها يموتون جوعاً إلا أن وعلاً جاءهم وصار يخرج إلى الخلاء فيحضر ثمار التوت من الأشجار البرية ويطعم الناس.

قالوا: ولذلك كانت مدينة كانتون تسمى «مدينة الوعل» في القديم. وبالنظر إلى ان هذه الحكاية بشكلها المجرد لاتصح روايتها فإنهم قد قالوا في القديم في زمن الروحيات وقبل الشيوعية إن ذلك

الوعل كان ملكاً جاءهم على هيئة وعل وعلى أية حال فإنهم نصبوا للوعل وصغاره تمثالاً أصبح الإطلاع عليه مهماً لمن يزور هذا المتحف.

وجدير بالذكر ان مدينة كانتون لايسميها أهلها بهذا الاسم على هذه الصيغة وإنما سموها (قوانقتشو) وهذا له نظائر كثيرة في الصين مثل (بيكنج) العاصمة بالانجليزية على حين ان أهلها ينطقون بها (بي جن). وأمثال ذلك في غير الصين كثيرة جداً مثل دمشق (داماسكس) بالانجليزية أو (داماس) بالفرنسية والقاهرة (كايرو) بالانجليزية، أو (لاكير) مع التعريف بالفرنسية. بل ان مدينة ميونخ في ألمانيا اسمها عند الألمان (منشن).

تركنا الوعل الخرافي. والخرافة عاشت ومازالت تعيش بين كثير من الشعوب إذا فقدت الرواية الصحيحة للتاريخ بحثاً عن الحقائق المجردة الملموسة هنا وكأنما كان منظمو المتحف يستجيبون لرغبتنا إذ وجدناهم عرضوا في الطابق الذي يلي الأول الذي فيه تمثال (الوعل) مخلفات أثرية قديمة أكثرها كانت مطمورة محفوظة في الأرض وكلها من منطقة (كانتون).

منها أوان نحاسية وأوان فخارية قديمة كتبوا عليها أنها صنعت في عام ٢٢٦ قبل الميلاد، وقالوا: إن ذلك يعني بداية العمارة في مدينة كانتون نفسها التي ترقى العمارة فيها إلى أكثر من ذلك التاريخ.

بداية اللغة الصينية:

لعل من أكثر الأشياء التي ذكروها فائدة للغريب وأكثرها امتاعاً له أنهم قد رسموا رسوماً بيانية في أقسام من المتحف لكثير من الأشياء تحتوي الايضاحات اللازمة لفهمها ومن ذلك ماذكروه عن تطور

الكتابة الصينية منذ ماقبل ميلاد المسيح عليه السلام بكثير حتى الوقت الحاضر وقد ظهر من ذلك تطور أشكال الكتابة عندهم ولا نقول الحروف لأنه ليس في اللغة الصينية حروف هجائية كالتي في اللغات الأخرى. وإنما هي الأشكال للمعاني أو الأشياء التي تدل عليها الكلمات.

وكانت اللغة الصينية في القديم تحوي شكلاً خاصاً لكل مسمى على حدة ولذلك شاع ماقيل من أنها كانت مؤلفة من أكثر من خمسين ألف حرف ويراد بذلك أكثر من خمسين ألف شكل من أشكال الكتابة.

ولكي نوضح الأمر نذكر شكلاً هنا رأيناه اليوم هذا الشكل هو في الأصل كتب أو رسم على هيئة الحصان أي انه أشبه مايكون برسم مجمل أي بدون تفاصيل أو لنقل برسم فج لشكل الحصان ويراد منه أن يدل على الحصان فإذا فرض أنك أردت ان تكتب مثلاً: أعطي الملك فلاناً (حصاناً) فإن الكلمة الأخيرة تكون على هيئة حصان.

هذه هي كتابة الكلمة أو الرسم المخصص للدلالة على الحصان فما هو لفظها؟ الجواب لفظها (ما) وهو مقطع واحد من المقاطع الكثيرة التي تتألف منها اللغة الصينية.

وإذا تركنا الحصان وشكله الذي تطور في الكتابة ولكنه لم يخرج عن كونه توجد فيه أربع أرجل كما توجد للحصان أربع قوائم فإنه لن يتركنا لماذا؟

لأننا إذا سألنا مثلاً عن شيء مستجد في الصين تماماً وليس له شكل أو رسم قديم موروث عن الأجداد فيها ولنقل مثلاً انه اسم (محمود) كيف يكتبونه؟ والجواب: إن الكتابة بالأشكال أو الرسوم

تسعفهم بذلك فيحولونه إلى ثلاثة مقاطع وهي (ما) يضعون لها شكل الحصان في الكتابة الأصلية القديمة الذي طوروه ولم يخرج عن الشكل الذي له أربعة أرجل هذا للمقطع الأول ثم يجعلون لبقية الكلمة وهو مود مقطعين آخرين أحدهما (مو) والثاني (دو) أو (دا).

وهكذا.

أرأيت كيف أن حروف الهجاء عندنا لاتقدر بثمن؟

جزيرة العرب آخر الدنيا:

من ألطف ما في هذا المتحف الذي رسموا فيه ماكان الصينيون القدماء، أو لنقل ماكان الصينيون في القديم يعرفونه أو يعتقدون به كيلا يشط بنا معنى كلمة القدماء إلى مرحلة موغلة في قديم التاريخ.

ومن ذلك على سبيل المثال مايتعلق بنا نحن العرب انهم رسموا خريطة للمواصلات في العالم القديم الذي كانوا يعرفونه فرسموا فيها الجزيرة العربية في آخر الدنيا!

وذلك أنها كانت بالفعل آخر ماكان الصينيون في القديم يعرفون ان السفن التي تأتي إليهم من ذلك العالم الغربي البعيد تصل إليه من تلك الجهة.

وهناك مخلفات محددة ونماذج كثيرة توضحها الرسوم البيانية أيضاً لما كان الصينيون القدماء يستعملونه من أدوات الحرث والزرع.

وحتى بيوت الفلاحين القدماء ولم نرها تختلف عن بيوت الفلاحين في هذه المنطقة في الوقت الحاضر إلا في كون البيوت القديمة تكون مدورة وأما هذه الحديثة فإنها تكون في الغالب مربعة وكلها

مقامة من الخشب المتوفر في بيئتهم المطيرة .

والواقع ان فكرة الرسوم الايضاحية مهمة جداً ينبغي تنفيذها في متاحفنا بمعني الانقتصر على النماذج الموجودة، وإنما نرسم لها رسوماً إيضاحية تشرحها وتوضح ماخفي من أمرها وتبرز التفصيلات التي لاتكون بارزة فيها .

السفينة العربية :

ومثلما كان موقع الجزيرة العربية بارزاً في هذا المتحف المهم في الخريطة التي أبرزتها آخر نقطة تصل إليها المواصلات مع الصين من جهة الغرب فإنهم أيضاً قد خصصوا رمزاً بارزاً لسفينة أسموها (السفينة العربية) وهي قادمة إلى كانتون .

وذلك لكي يرمزوا من ذلك إلى قوة العلاقات التجارية مع الصين عامة ومدينة (كانتون) بصفة خاصة التي تعتبر منفذ التجارة البحرية العربية إلى الصين .

وزادوا الأمر إيضاحاً برسم رسموه (لمسجد المنار) ومنارته الشامخة في ذلك الوقت وهذا كله من أجل إبراز العلاقة التي كانت قوية بين العرب المسلمين وأهل الصين . وقد عرضوا إلى جانب ذلك عملة ذهبية عربية . ونموذجاً لكرسي عربي قديم .

ومن الملفت للنظر أنه مع إبرازالعلاقات العربية الصينية هنا التي هي في الحقيقة علاقات مابين المسلمين والصينيين . ومن ذلك رسمهم لمسجد المنار ومأذنته انهم لم يبرزوا العلاقة مابين الأديان الأخرى والصين كالمسيحيين مثلاً الذين كان ينتظر أن يرسموا لهم كنيسة ولا لأي دين آخر .

وذلك حقيقة واقعة من كون الدين الرئيسي الوحيد الذي كان أهله يتعاونون مع الصين في الزمن الوسيط في العلاقات التجارية وغيرها هو الدين الإسلامي الحنيف.

وقال لي أحد الإخوة المرافقين ان الصلات مابين المسيحية وأهل الصين ترتبط في أذهان الصينيين بالاستعمار الأوروبي و(حرب الافيون) ومحاولة قهر الصينيين وذلك أمر غير محبوب وغير مرغوب فيه على حين ان العلاقات مع الإسلام ترتبط في أذهانهم بالتجارة والتعاون السلمي على مافيه المصلحة المشتركة.

أركان الأسر الحاكمة:

من القول الذي كررناه أكثر من مرة ان الصينيين يؤرخون بتاريخ الأسرة التي كانت تحكم بلادهم لذلك كانت عهود تلك الأسر ذات أهمية كبيرة من الناحية التاريخية.

ومن أجل ذلك خصصوا لكل أسرة حاكمة ركناً في هذا المتحف يتحدث عن تاريخها ويرسم إيضاحات بيانية عن أحوالها ويعرض بعض مخلفات عصرها إن وجدت.

ومن تلك المخلفات مخطوطات على هيئة رسائل ووثائق ونصوص كما انهم عرضوا فيها بخوراً من العنبر والعود.

وهناك ركن أقاموه لعرض المخلفات الحرفية قالوا: ان بعضها يرجع تاريخه إلى ثمانمائة سنة. وقد رسموا صورة فلاح صيني قديم بملابس طويلة واكمام تغطي اليدين كما هو مستعمل في بعض الملابس الصينية القديمة. ولاحظت ان هذه الملابس ليس لها جيوب.

وعرضوا بجانب هذه الصورة صورة لقطة وحشية مما نسميها في

بلادنا (التفه) وهي تسمية عربية قديمة، إذ كان العرب يقولون في أمثالهم: . . «أغنى من (التَّفَة) عن الرفة» والتفة هي السنور البري والرفه هو التبن. وذلك ان هذه القطة الوحشية لا تأكل إلا اللحم فهي من السباع المفترسة.

ولا أدري معنى مناسبة عرضها مع صورة الفلاح القديم إلا ان يكون ذلك لكونها موجودة عندهم في الريف بكثرة.

ولم ينسوا السفن فعرضوا نماذج مصغرة لسفن صينية قديمة بعضها - أي النماذج- مصنوع من العاج وبعضها من الخشب.

ركن الثقافة:

خصصوا أيضاً ركناً في المتحف مهماً للثقافة بعضها للثقافة في عهد أسرة من الأسر الحاكمة مثل أسرة مينغ التي كانت موجودة قبل ستمائة سنة.

وبعضها عام مثل ما يعرف بكيفية الطباعة عندهم والصينيون أول من عرفوا الطباعة من الشعوب وإن كان ذلك على طريقة مختلفة عما نعرفه نحن عنها الآن. ومنها أوراق مطبوعة قديماً وأظن أنها نماذج مستحدثة منها وليست طبيعية. مثل بعض الصور الخيالية لشخصيات تاريخية بارزة في تاريخ الصين.

ثم عرضوا أدوات فلكية قديمة ومعها ساعات جميلة مصنوعة في مدينة كانتون مابين عامي ١٧٣٦م - ١٧٩٥م.

مرحلة حرب الأفيون:

حرب الأفيون من الأحداث الشهيرة في تاريخ الصين الحديث.

وقد أوضحوا أحداث تلك الحرب في بيانات إيضاحية، ورسوم كاملة من عام ١٨٤٠م، إلى ١٨٤٩م . وقالوا: إن أجزاء من الصين في ذلك الوقت كانت مستعمرة، وان الصين تبدو نصف مستعمرة.

الفتيل الصينية :

الفتيل: بندق من البنادق القديمة جداً التي عرفناها بل هي أقدم أنواع البنادق وتسميتها بالفتيل عربية لا أصل لها في الاعجمية وذلك أنها تطلق بأشعال طرف الفتيل وهو خرقة مفتولة مشربة بالبارود تسير فيها النار حتى تصل إلى الذخيرة في البندق حيث يشتعل البارود وتطلق البندق.

ولها في الشعر العامي عندنا مكانة عظيمة لأنها ذكرت في الحروب التي كانت هي طابع الحياة العامة في تلك العهود.

وذكروا ان هذه الفتيل وجمعها عند بني قومنا (فتايل) هي مصنوعة في (كانتون) نفسها.

ومع ذلك لا أظن ان الصينيين افتخروا بصنعها بمقدار ما افتخر قومنا بحيازتها واستعمالها في الحروب فيما بينهم.

ولا أدري أمن المصادفة كونهم عرضوا بعد ذلك مباشرة رسوماً وبيانات توضح ثورة الفلاحين في الصين في أول هذا القرن الميلادي أم ان ذلك جاء مصادفة.

وإنما الشيء المؤكد انهم وهم يرسمون ويوضحون مراحل تاريخ بلادهم قد ذكروا المرحلة التي وصل فيها المسيحيون وعرفوهم فيها عن طريق إرساليات التنصير الذي قد يسميه بعض الناس بالتبشير و ذكروا ان المسيحيين جاءوا ومعهم الانجيل يعطونه الصينيين، ويأخذون باليد الأخرى عوضاً عنه الأرض!

صن يات صن وكانتون :

صن يات صن : هو الزعيم الصيني الشهير الذي يسمونه هنا (أبا الثورة) وبعضهم يسميه (أبا الجمهورية) لأنه الذي قاد البلاد للجمهورية.

وقد عرضوا الركن المتعلق بتاريخه يتوسطه تمثال صغير ، مع رسومات وبيانات تذكر عهده ولكن من دون ابراز وتبجيل.

ومن المعروف ان الشيوعيين الذين يحكمون الصين في الوقت الحاضر قد حاربوا الجمهوريين الذين يعتبرون أنفسهم أتباعاً لصن حرباً مريرة حتى انتزعوا الحكم منهم واضطرت بقيتهم الباقية القليلة إلى النزوح عن البر الصيني إلى جزيرة تايوان (فرموزا) فأسسوا فيها دولتهم بزعامة (تشان كاي تشك).

و(صن يات صن) هو أيضاً من بلدة غير بعيدة من (كانتون) وجهر بثورته في (كانتون).

لذلك احتفوا بعهده هنا.

ومن المعروف ان (صن يات صن) ولد في عام ١٨٦٦م وأسقط أسرة تشينغ في عام ١٩١١م وتوفي عام ١٩٢٥م وقد احتفت المدينة به حينما أقامت له تمثالاً كبيراً مرتفعاً ربما كان موجوداً قبل الشيوعية.

وقد رأيناه من الطابق العلوي في المتحف ضخماً شامخاً لأنه مقام على مكان مرتفع وبجانبه جهة اليسار قبة تذكارية صينية مسترخية وبقربه خزان للمياه كبير ذو قبة خضراء شبيهة بالقباب العربية.. فاجتمع للنظر قبتان مختلفتا الطراز والألوان.

جولة في الحديقة:

بعد الاستمتاع بزيارة هذا المتحف الذي هو في الحقيقة جيد ولكنه

دون ماينبغي ان يكون في هذه المدينة الصينية التاريخية المهمة قمنا بجولة على الحديقة بالسيارة لأنها أوسع من ان نستطيع في وقتنا الذي حددناه ان نتمشى فيها على الأقدام.

وتجلى الذوق الرفيع وحسن الاختيار لمكان الحديقة عندما رأينا الروابي الخضر التي تحفل بها الحديقة والبحيرات الطبيعية الصغيرة التي تنتشر في الأماكن المنخفضة فيها. وهي كبيرة واسعة. وأخبرونا أنها دائمة الخضرة لأن مدينة كانتون لاتشهد برداً شديداً في الشتاء، ولذلك لايستعملون المدافيء فيها بخلاف وسط الصين البارد وشمالها الشديد البرودة في الشتاء.

وهذه الحديقة حسبما نوهوا به كانت حديقة خاصة في أصل إنشائها ثم جعلتها الحكومة الشيوعية عامة ووسعتها إلى ماهي عليه الآن.

ووصلنا إلى ركن في الحديقة يقابل الحديقة التي فيها مقبرة (أبي وقاص) وأخبرونا أيضاً ان بعض المقابر القديمة والتلال التي كانت خارجة عنها قد أدخلت فيها.

عودة إلى قلب المدينة:

وطلبت أن نعود إلى قلب المدينة لأعيد النظرات إليها وإن لم أعد النظر في حكمي عليها أنها ذات طابع خاص مخالف لبقية المدن الصينية وبخاصة في ظهور بعض الخصائص الرأسمالية كما يسمونها مثل كثرة سيارات الأجرة التي تجري في الشوارع وفيها من الحافلات التي تسير بالكهرباء (ترويلي باص) مثل شنغهاي وبكين وهي غير موجودة في أكثر المدن الرئيسية البعيدة عن عيون الأجانب.

حتى الملابس هنا هي غير موحدة بخلاف أكثر الصينيين الآخرين.

وعدنا إلى شارع (تاجي) التي هي الكلمة العربية (تاجر) حرفت على ألسنة الصينيين ومعناها في افهامهم (عربي)، لأن العربي (تاجر) أو هو التاجر كما هي عليه الحال في بلدان أمريكا الجنوبية حيث يعمل العرب الذين هم من أهل الشام الكبير الذي يشمل مايسمى الآن سوريا ولبنان والأردن وفلسطين كلهم يشتغلون بالتجارة، ويكاد يكون اسم عربي عندهم مرادفاً لاسم (تاجر). وإن كان بعض أبناء المهاجرين القدماء من العرب في أمريكا الجنوبية الذين ولدوا هناك وتعلموا اصبحوا من ذوي المناصب فعددهم قليل لاينفي صفة التجارة عن العرب بصفة عامة حتى الآن.

حفلة المسؤولين في المدينة:

جاء في البرنامج ذكر حفلة عشاء قال لنا الاخوة المرافقون ومنهم الأخ المترجم (لقمان ماشان لي) بأنها حفلة المسؤولين في الحكومة في مدينة كانتون، وقد عرفنا بعد ذلك أنها ستقيمها إدارة الشؤون الدينية في كانتون وهي إدارة حكومية كما سبق غير أنها ستدعو إليها كبار المسؤولين في المدينة.

وكانت في السادسة والربع من مساء هذا اليوم وفي احدى القاعات المتعددة في فندق (الأوزة البيضاء) وكان على رأس الحاضرين فيها رئيس حكومة مقاطعة كانتون الذي قال لي: إن عدد سكان المقاطعة يبلغ ستين مليون نسمة.

وحضرها كبار أعضاء الجمعية الإسلامية ومن الجانب الصيني الرسمي:

وانغ كانغ نائب رئيس المجلس الاستشاري لمقاطعة كانتون (كواندونغ)

تانغ واي مدير الإدارة والشؤون الدينية لمقاطعة كانتون.

جن دونغ نائب مدير الإدارة والشؤون الدينية لمقاطعة كانتون.

ليو جوي شا موظف في إدارة الشؤون الدينية لمدينة كانتون.

جنغ يو نائب رئيس إدارة شؤون القوميات لمدينة كانتون.

وتضمنت المناقشة بين الحاضرين بأن مدينة كانتون أحد الموانيء الرئيسية التي قدم إليها العرب الأوائل للتجارة في الصين ويبلغ سكان مدينة كانتون حالياً نحو ثلاثة ملايين نسمة منهم ٥٧٠٠ مسلم، أما سكان المقاطعة كلها فهم ٦٠ مليون نسمة ولايتجاوز عدد المسلمين فيها كلها عشرة آلاف شخص.

وقد ألقى نائب مدير الإدارة الدينية كلمة ترحيب بالوفد تمنى فيها تكرار زيارة الوفد لهذه المدينة التاريخية ذات الصلة القوية بالعرب التي تضم مسجد المنار.

فرددت عليه بكلمة مناسبة عما انطبع في أذهاننا عن هذه المدينة خلال زيارتنا التي هي في الحقيقة قصيرة لكن معرفتنا بمدينة (كانتون) طويلة قديمة حيث عرفناها من كتبنا العربية مثلما كان أهل هذه المدينة يعرفون البلاد العربية معرفة قديمة كما شاهدنا هذا في هذا الرسم الذي في المتحف اليوم والذي يبين الصلات التاريخية القديمة مابين كانتون خاصة والبلاد الصينية عامة وبين البلدان العربية وذكرت أنه قد لفت انتباهي الموقف الودي الذي أبرزه المتحف تجاه العرب والمسلمين خاصة في كثير من الرسومات والبيانات التاريخية فيه.

ولقد شعرنا ان ذلك الموقف الودي بل الشعور بالصداقة في القديم قد امتد إلى العصر الحالي، حيث كنا نشعر بذلك في كل مكان حللناه من أرض الصين خلال زيارتنا هذه.

ثم كان العشاء الذي لم يختلف عن عشاء أهل الشمال الصيني الذي زرناه في كونهم أحضروه أنواعاً منوعة قد كتبوا أسماءها بالصينية على قائمة وزعوها على المائدة وضمت أسماء اثني عشر نوعاً من الطعام، غير ان الاختلاف كان في الرئيسي من المأدبة إذ جاءوا بأصناف غريبة لم نرها هناك. وفيها الفطر (المشروم) والربيان (الجمبري) ونوع من الأسماك قالوا: إنه يعيش ما بين النهر والبحر أي في المياه المختلطة وأنهم أحضروه لتوه من الماء فكان حياً قبل الطبخ بمدة يسيرة مما جعله لذيذ الطعم لأنه لم يتعرض للتبريد أو الخزن.

ولقد فعلوا شيئاً اعتبروه مهما إذ نادوا على الطباخ وقالوا: إنه طباخ مسلم، وطلبوا منه ان يسلم علينا، وقد فعلوا ذلك لكي يجعلونا نطمئن إلى ان الطعام من طعام المسلمين رغم كون الذين أقاموا المأدبة من الرسميين الحكوميين غير المسلمين بطبيعة الحال.

ومن الملاحظ هنا ان مضيفات المائدة وعددهن كثير كن يأخذن أطباق المدعوين ويتولين ملأها بالطعام من الأواني الكبيرة التي كانوا يحضرونها مليئة بالطعام ويضعونها في وسط المائدة.

وهذا أمر لم يكن معمولاً به في الشمال، وإنما كانوا يتركون للآكلين ان يأخذوا بأنفسهم مايريدونه من إناء الطعام الكبير.

ومن المراعى هنا ان المضيفات يبدأن بملء صحن الضيف الكبير أو ضيف الشرف وقد اعتبروني هنا ذلك الضيف ثم يملأن صحون الآخرين، والكل ممسك عن الأكل ينتظر ان يفرغن من افراغ الطعام في أطباق الآكلين حتى اذا اكتمل ذلك أشارت إحداهن بيديها كلتيهما وهي تنحني إشارة الأمر أو الاذن أو الاشعار ببدء الأكل فيبدأ الجميع وهكذا في كل صنف من أصناف الطعام مما جعل وقت المأدبة يمتد ويطول.

وهو امتداد استفدت منه إذ كان بمثابة الوسيلة السهلة للحصول على المعلومات عن حاضر هذه المقاطعة ومافيها.

ولم تختلف هذه المائدة عن موائد أهل الشمال في غرابة الأطباق بالنسبة إلينا فمن ذلك انهم أحضروا نصف قرعة مطبوخة هكذا في إناء كبير وأخذوا يفرقونها في صحون الآكلين وكذلك احضروا نوعاً من الخضار أسود يشبه الطحلب وهو الذي ينبت في الماء العذب الراكد. وأرز مقلي مع البيض ونوع من الحساء (الشربة) حلو الطعم جداً وهذا مالم نستسغه لأننا لم نتعود عليه لاسيما أنهم جاؤوا بها حارة جداً. ودجاج محشو بالفلفل غير الحار.

ولكنهم ختموا مائدتهم هذه بشيء معتاد لنا وهو الفاكهة جعلوها في آخر الطعام وليس في وسطه كما كان يفعل أهل الشمال.

وقد نوهوا بذلك فقالوا: إن طبخنا في الجنوب يختلف عن طبخ أهل الشمال.

ولكنني قلت لهم ماعرفته وجربته وهو ان طعامهم يشترك مع طعام أهل الشمال في كونه لذيذاً وافراً يدل على الكرم في التقديم، وعلى التعب في الإعداد.

يوم الجمعة: ١٠ شعبان ١٤٠٤هـ

هذا اليوم هو آخر أيام هذه الرحلة الصينية الممتعة التي رأينا خلالها من الأشياء الجديدة المفيدة في هذه البلاد العتيدة مالم نكن نطمع ولا في الخيال أن نصل إليه. ولقد ذكرت ذلك فحمدت الله تعالى وشكرته عليه.

وبدأ هذا اليوم بتناول الافطار في السادسة والنصف في الفندق وهو إفطار قد اختلط فيه كذلك ما هو للصين متمثلاً بالخادمات المؤدبات وبالطعام الصيني بما هو للغرب عامة، أو لأمريكا خاصة فمثلاً تقديم بعض الطعام والمشروب فيه على نوعين احدهما على الطريقة الصينية والآخر على الطريقة الغربية مثل الشاي الذي احضروه نوعين، والفرق بينهما ظاهر فالشاي الصيني لايقربه السكر ولايخلط به الحليب.

مغادرة الصين :

كان الخروج من فندق (الأوزة البيضاء) في السابعة والنصف من هذا الصباح لكي نسافر إلى (هونغ كونغ) بالقطار.

وقد تسلموا أمتعتنا ولم يفتشوها على العادة التي جروا عليها في معاملتنا كما تعامل به الوفود الرسمية.

وعندما وصلنا المحطة كان جمع المسافرين ومودعيهم كبيراً بل هائلاً إذ هذه المحطة تكاد تكون البوابة الرئيسية الوحيدة المفتوحة أمام السياح والمسافرين الذي يقدمون من هونغ كونغ ليروا الصين الشعبية ولكنهم في الحقيقة، لايرون منها إلا أول الدهليز القصير الذي ليس بالضرورة أن يكون ممثلاً للدار الواسعة.

فكانتون التي هي دهليز الصين تختلف في أشياء كثيرة عن بقية مدن الصين الشعبية وشعبها يختلف عن بقية الشعب الصيني بل الشعوب الصينية.

وفي المحطة كان توديع مؤثر من إخواننا المرافقين الصينيين حتى انفجر بعضهم بالبكاء ومنهم الأخ (لقمان ماشان لي) جزاه الله خيراً رغم كوننا قد اثقلنا عليه، وكنت أنا بالذات أكثر أعضاء الوفد إتعاباً له إذ كنت الرئيس فكان يجب عليه أن يكون بقربي وأن يترجم كل ماأقوله، وإن يترجم لي كل ما أسمعه، وأنا فضولي بطبعي وبصنعتي.

وتحرك القطار بدون المرافقين في الساعة الثامنة وكانوا ألحوا علينا أن يذهبوا معنا إلى هونغ كونغ فامتنعنا من ذلك وقلنا ان المسافة إلى هونغ كونغ لا تتعدى ساعتين وأربعين دقيقة و(هونغ كونغ) لغتها الرسمية هي الانجليزية ويكفي ما اتعبناهم به من قبل.

ووجدنا القطار جيد التأثيث والإدارة حتى انه يوجد فيه جهاز للتلفزة موضوع في كل عربة مما لم نره في القطارات الأخرى في داخل الصين وذلك لأن القطار يركبه الأجانب كثيراً إن لم يكن ركابه من الأجانب أكثر من الصينيين.

كما انه يصل إلى (هونغ كونغ) التي هي بمثابة مركز التحدي في التقدم المادي لهذه البلاد الشيوعية الجامدة. وقد دفع الصينيون أجرة القطار من (كانتون) إلى (هونغ كونغ) مثلما دفعوا أجور جميع تنقلاتنا داخل الصين بالقطارات والطائرات فضلاً عن المواكب الكبيرة من السيارات وكانت مقاعدنا في الدرجة الأولى من القطار.

وستكون المسافة ساعتين وأربعين دقيقة وهو مسافة ضئيلة جداً بالنسبة إلى أهل الصين الذين يركبون القطارات داخل الصين لمسافات طويلة جداً بعضها يستغرق أياماً وليالي. ولا عجب في ذلك إذا عرفنا ان (هونغ كونغ) هي جزء من الصين. هكذا كانت وهكذا ستكون في وقت قريب مظنون.

ومن الطريف في الأمر أننا أعطينا الإخوة المرافقين قبل تحرك القطار بقية النقود الصينية التي نحملها لأنها لاتنفع خارج الصين، وليست لها قيمة فيه.

وهي وإن كانت قليلة فإنها مهمة في داخل الصين لأن دخولهم محدودة، ورواتبهم ضئيلة.

إلى هونغ كونغ:

انطلق القطار في منطقة ريفية خضراء غنية بالمياه مشمولة كلها بالزراعة كأنها ريف شنغهاي الندي بل الروي.

وأكثر المزروعات التي نراها من القطار خضروات وأرز غارق في الماء وبعض حياض الأرز قد أخضرت فهو هنا يمكن أن يزرع بعضه ويحصد بعضه الآخر بسبب كون الطقس دفيئاً.

وقد لاحظنا كثرة مياه الصرف المتخلفة في الأرض على هيئة مستنقعات بعضها كبير يكاد يصل إلى ان يكون بحيرات صغيرة لاسيما والبط يسبح فيه ويأكل من الحشائش والطحالب النامية على جوانبه.

وأكثر الحيوانات التي ترى هنا هي الخنازير والأبقار.

وكما كانت فضلات المياه هنا كثيرة ظاهرة فإن فضلات الفحم الحجري المتخلفة بعد حرقه هنا موجودة بكثرة كما هو عليه الحال في شمال الصين. وهي على هيئة أكوام من الرماد الكريه المنظر.

ولم أرهم يعملون بهذه الفضلات الفحمية كما يعملون منها في الشمال قوالب تكون بمثابة اللبن الذي لا أدري ماذا يصنعون به.

وكان القطار يسير مسرعاً والنظر لا يرى في هذه المنطقة أي فراغ

فكلها خضراء كثيفة الخضرة، حتى تشبه في ذلك المناطق الاستوائية المطيرة ولا يرى المرء موقع قدم لم يستغل أو يزرع.

وذكرت بهذه المناسبة المناظر الرمادية الهامدة الخالية من الخضرة في أماكن شاسعة من شمال الصين. وحتى في مدينة بكين العاصمة التي لم نر فيها عوداً أخضر عندما وصلنا بسبب موت الأوراق والأشجار بعد فصل الشتاء البارد. فضلاً عن منطقة (سنكيانغ) ذات المناخ الشبيه بالصحراوي، إلا ان صحراويته يزيد منها كونها باردة بل متجمدة في الشتاء.

ولقد أقبل بائعون في القطار يدفعون عربات بأيديهم فيها المشروبات وأشياء من المأكولات الخفيفة إلا ان المفاجيء أنهم لايقبلون عملتهم الصينية في هذا القطار إلا ما كان منها خاصاً بالأجانب وهو الذي يكتب عليه بأنه بديل عن العمل الأجنبية وهو المقبول عندهم في الصين من الأجانب.

ومررنا بقرى ريفية بيوتها مبنية بالآجر وسقوفها مسنمة وذلك لكي تنزلق عنها مياه الأمطار التي تنزل غزيرة على هذه المنطقة.

وهي أحسن منظراً وآنق من بيوت الريفيين في شمال الصين التي هي بعيدة عن عيون الفضوليين الأجانب. والتي هي في الغالب تبنى من الطين هناك. ورأيت في إحدى هذه القرى الريفية سوقاً للفلاحين تكثر فيها ما اسميتها بحوانيت الاكتاف وهي الأوعية التي تحمل على كتف الشخص بواسطة عصا غليظة وتكون الأوعية مملوءة بالأغراض متدلية على طرفي العصا كما يكون عليه كفتا الميزان القديم.

وتستعمل في كثير من البلدان الاستوائية المختلفة التي لايستطيع الفلاحون فيها ان يجدوا وسيلة فردية ينقلون عليها أمتعتهم.

وقد رأيت هذه الحوانيت واردة إلى هذا السوق وصادرة منه، وأغلب الأوعية فيها مملوءة بإنتاج الفلاحين الذين حضروا إلى السوق لبيعه، وشراء سلع أخرى يحتاجونها.

وقد أمضى القطار الآن أكثر من الساعة والريف بهيج المنظر، في سهل متسع ليس فيه جبال ترى من داخل القطار.

واستمر المنظر كذلك حتى رأينا بعض التلال الخضر ومن بعدها ظهرت معالم (كولون) إحدى قسمي (هونغ كونغ) من ناحية الادارة.

ولم يقف القطار طيلة السفر بل كان سيره مستمراً وكنا نظن أنه سيقف عند الحدود مابين (كانتون) وكولون.

ولذلك لم نعرف أننا قد وصلنا إلى (هونغ كونغ) وفارقنا أرض الصين الشعبية إلا عندما رأينا عمارات أي أبنية حديثة كثيرة بهيجة قد ركبت فيها أجهزة تكييف الهواء وقد طليت (العمارات) بطلاء حديث بهيج فعرفنا أن هذا لايكون في الصين.

وشيء آخر لفت أنظارنا فعرفنا أننا قد خرجنا من الصين من دون أن ينبهنا أحد إلى ذلك. الا وهو وجود أسوار من شباك الحديد على بعض الأراضي أو البيوت وقد ركبتها الزهور البهيجة فقلنا إن أهل الصين قد شغلوا عن تزيين أسوار بيوتهم بما هو أهم وهو تحصيل القوت إذا كان لهم بيوت وإلا فإن البيوت التي تكون على هيئة دارات (فيلات) في الصين ويسكنها الأفراد نادرة أو غير موجودة أما هنا فإنها ظاهرة ظهور (العمارات) العالية المزخرفة.

كما ان جوانب الطريق المرفوعة هنا عن الأرض تتدرج فيها الخضرة مع تدرج الجوانب بنظام بديع مما لايوجد في الصين التي تعتبر - ان طوعا أو كرها- أن هذه الأشياء من كماليات العيش الرغيد التي لايجوز ان يتطلع إليها الشعب المجيد الذي ينبغي أن يتبع الإشتراكية

التي تجيز للحكومة مالاتجيزه للشعب العنيد .

وحتى أشجار الموز النامية هنا هي أكثر خضرة، وأكثر ازدهاراً لأن الصينيين يعنون بزراعة القوت أكثر ممايعتنون بزراعة الفاكهة .

وكثرت السيارات الأنيقة، وأخذت الملابس الغالية تصافح العيون . والشوارع المزينة المترفة تدخل إلى نوافذ القطار .

وشعرنا . . . شعرنا بأننا عندما خرجنا من الصين ووصلنا هونج كونج دخلنا إلى القرن العشرين . !

ملحق :

بقينا في هونج كونج يومين ونصفا تجولنا فيها على صغرها واتصلنا بالإخوة المسؤولين فيها عن المساجد والمراكز الإسلامية، ولمسنا من أخلاق أهلها ومعاملتهم للغريب ما جعلنا نعيد نظراً فيما كتبناه من مقارنتها بالصين الشعبية .

فالواقع ان الحياة فيها هي عصرية حديثة والمظاهر فيها هي مدنية أكثر من الصين غير أن الأخلاق فيها والمعاملة من أهلها متأخرة عن الصين وأهل الصين بقرون، فهي معاملة مادية مجردة . تركض وراء المادة ولاتقيم لغيرها وزناً، فتجد كل من عاملك ينتظر أن يكسب منك وكل من ساءلته وجدته حريصاً على ذلك، لايسعى لغيره إلا من ندر .

والأمن فيها غير مستتب وعصابات الجريمة موجودة .

وخلاصة القول أن فيها رذائل المدنية الغربية وجزءاً من فضائلها لأنها هي المسيطرة عليها .

صدر من هذه السلسلة

١ - تأملات في سورة الفاتحة ———— **الدكتور حسن باجودة**
٢ - الجهاد في الاسلام مراتبه ومطالبه ———— **الأستاذ أحمد محمد جمال**
٣ - الرسول في كتابات المستشرقين ———— **الأستاذ نذير حمدان**
٤ - الاسلام الفاتح ———— **الدكتور حسين مؤنس**
٥ - وسائل مقاومة الغزو الفكري ———— **الدكتور حسان محمد مرزوق**
٦ - السيرة النبوية في القرآن ———— **الدكتور عبد الصبور مرزوق**
٧ - التخطيط للدعوة الاسلامية ———— **الدكتور محمد علي جريشة**
٨ - صناعة الكتابة وتطورها في العصور الاسلامية **الدكتور أحمد السيد دراج**
٩ - التوعية الشاملة في الحج ———— **الأستاذ عبد الله بوقس**
١٠- الفقه الاسلامي آفاقه وتطوره ———— **الدكتور عباس حسن محمد**
١١- لمحات نفسية في القرآن الكريم ———— **د. عبد الحميد محمد الهاشمي**
١٢- السنة في مواجهة الأباطيل ———— **الأستاذ محمد طاهر حكيم**
١٣- مولود على الفطرة ———— **الأستاذ حسين أحمد حسون**
١٤- دور المسجد في الاسلام ———— **الأستاذ محمد علي مختار**
١٥- تاريخ القرآن الكريم ———— **الدكتور محمد سالم محيسن**
١٦- البيئة الادارية في الجاهلية وصدر الاسلام ـ **الأستاذ محمد محمود فرغلي**
١٧- حقوق المرأة في الإسلام ———— **د. محمد الصادق عفيفي**
١٨- القرآن لكريم كتاب أحكمت آياته [١] ——— **الأستاذ أحمد محمد جمال**
١٩- القراءات أحكامها ومصادرها ———— **د.شعبان محمد اسماعيل**
٢٠- المعاملات في الشريعة الاسلامية ———— **الدكتور عبد الستار السعيد**
٢١- الزكاة فلسفتها وأحكامها ———— **الدكتور علي محمد العماري**
٢٢- حقيقة الانسان بين القرآن وتصور العلوم ـ **الدكتور أبو اليزيد العجمي**
٢٣- الأقليات المسلمة في آسيا وأستراليا ———— **الأستاذ سيد عبد المجيد بكر**
٢٤- الاستشراق والمستشرقون وجهة نظر ——— **الدكتور عدنان محمد وزان**
٢٥- الإسلام والحركات الهدامة ———— **معالي عبد الحميد حمودة**
٢٦- تربية النشء في ظل الاسلام ———— **الدكتور محمد محمود عمارة**
٢٧- مفهوم ومنهج الاقتصاد الاسلامي ———— **د. محمد شوقي الفنجري**
٢٨- وحي الله ———— **د. حسن ضياء الدين عتر**
٢٩- حقوق الانسان وواجباته في القرآن ———— **حسن أحمد عبد الرحمن عابدين**
٣٠- المنهج الإسلامي في تعليم العلوم الطبيعية ـ **الأستاذ محمد عمر القصار**

٦١-	بين علم آدم والعلم الحديث	**الأستاذ محمد شهاب الدين الندوي**
٦٢-	المجتمع الاسلامي وحقوق الانسان	**د. محمد الصادق عفيفي**
٦٣-	من التراث الاقتصادي للمسلمين [٢]	**الدكتور رفعت العوضي**
٦٤-	تصحيح مفاهيم حول التوكل والجهاد	**الأستاذ عبد الرحمن حسن حبنكة**
٦٥-	لماذا وكيف أسلمت [١]	**الشهيد أحمد سامي عبد الله**
٦٦-	أصلح الأديان عقيدة وشريعة	**الأستاذ عبد الغفور عطار**
٦٧-	العدل والتسامح الاسلامي	**الأستاذ أحمد المخزنجي**
٦٨-	القرآن كتاب أحكمت آياته [٤]	**الأستاذ أحمد محمد جمال**
٦٩-	الحريات والحقوق الاسلامية	**محمد رجاء حنفي عبد المتجلي**
٧٠-	الانسان الروح والعقل والنفس	**د. نبيه عبد الرحمن عثمان**
٧١-	كتاب موقف الجمهوريين من السنة النبوية	**الدكتور شوقي بشير**
٧٢-	الاسلام وغزو الفضاء	**الشيخ محمد سويد**
٧٣-	تأملات قرآنية	**الدكتورة عصمة الدين كركر**
٧٤-	الماسونية سرطان الأمم	**الأستاذ أبو إسلام أحمد عبد الله**
٧٥-	المرأة بين الجاهلية والاسلام	**الأستاذ سعد صادق محمد**
٧٦-	استخلاف آدم عليه السلام	**الدكتور على محمد نصر**
٧٧-	نظرات في قصص القرآن [٢]	**محمد قطب عبد العال**
٧٨-	لماذا وكيف أسلمت [٢]	**الشهيد أحمد سامي عبد الله**
٧٩-	كيف نُدَرِّس القرآن لأبنائنا	**الأستاذ سراج محمد وزان**
٨٠-	الدعوة والدعاة .. مسؤولية وتاريخ	**الشيخ أبو الحسن الندوي**
٨١-	كيف بدأ الخلق	**الأستاذ عيسى العرباوي**
٨٢-	خطوات على طريق الدعوة [الجزء الأول]	**الأستاذ أحمد محمد جمال**
٨٣-	المرأة المسلمة بين نظرتين	**الأستاذ صالح محمد جمال**
٨٤-	المبادىء الاجتماعية في الاسلام	**محمد رجاء حنفي عبد المتجلى**
٨٥-	التآمر الصهيوني الصليبي على الاسلام	**د. ابراهيم حمدان علي**
٨٦-	الحقوق المتقابلة	**د. عبد الله محمد سعيد**
٨٧-	من حديث القرآن على الانسان	**د. على محمد حسن العماري**
٨٨-	نور من القرآن في طريق الدعوة والدعاة	**محمد الحسين أبو سم**
٨٩-	أسلوب جديد في حرب الاسلام	**جمعان عايض الزهراني**
٩٠-	القضاء في الاسلام	**سليمان محمد العيضي**

١٢١- الاسلام هو الحل ــــــ القاضي الشيخ محمد سوي

١٢٢- نظرات في قصص القرآن ــــــ الأستاذ محمد قطب عبد العا

١٢٣- من حصاد الفكر الاسلامي ــــــ د. محمد محي الدين سال

١٢٤- خواطر اسلامية ــــــ الأستاذ ساري محمد الزهراني

١٢٥- الاسلام ومكافحة المخدرات ــــــ الأستاذ اسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي

١٢٦- دروس تربوية نبوية ــــــ الأستاذ صالح أبو عراد الشهري

١٢٧- الشباب المسلم بين تجربة الماضي وآفاق المستقبل د. عبد الحليم عويس

١٢٨- من سمات الأدب الإسلامي ــــــ د. مصطفى عبد الواحد

١٢٩- خطوات على طريق الدعوة [الجزء الأول] ــــــ الأستاذ أحمد محمد جمال

١٣٠- خطوات على طريق الدعوة [الجزء الثاني] ــــــ الأستاذ أحمد محمد جمال

١٣١- المسجد البابري قضية لا تنسى ــــــ عبد الباسط عز الدين

١٣٢- التدريس في مدرسة النبوة ــــــ د. سراج عبد العزيز الوزان

١٣٣- الإعلام الإسلامي ووسائل الإتصال الحديثة الأستاذ ابراهيم إسماعيل

١٣٤- تسخير العلم والعمل لمجد الإسلام ــــــ د. حسن محمد باجودة

١٣٥- منهاج الداعية ــــــ الأستاذ أحمد أبو زيد

١٣٦- في جنوب الصين ــــــ الشيخ محمد بن ناصر العبودي

١٣٧- التنمية والبيئة دراسة مقارنة ــــــ د. شوقي أحمد دنيا

١٣٨- الشريعة الإسلامية شريعة العدل والفضل د. محمود محمد بابللي